موقع فلسطيني:

كتاب

الشخصيات الأسطورية في العهد القديم

وثالوث عزرا: الوثنية " يهوه " ـ العنصرية " الشعب المختار " ـ الاستعمار " الأرض الوعد"

(دراسة تحليلية للشخصيات والأحداث)

جميل خرطبيل

* * *

الفهرس:

المقدمة.

هوامش المقدمة.

ـ الفصل الأول: خلفية الاستعمار القديم.

هوامش الفصل الأول.

ـ الفصل الثاني: الشخصيات الأول "تمهيد".

1- من آدم وحتى نوح.

2- من إبراهيم وحتى يوسف:

1- إبراهيم.

2- لوط.

3- إسحق ويعقوب.

4- يوسف.

هوامش الفصل الثاني.

ـ الفصل الثالث: عصر العنف والعدوانية "تمهيد".

1- موسى.

2- يشوع.

هوامش الفصل الثالث.

- الفصل الرابع: التمرد والرضوخ.
هوامش الفصل الرابع.
- الفصل الخامس: المملكة المزعومة:
1- صموئيل وشاول.
2- داود.
3- سليمان.
هوامش الفصل الخامس.
- الفصل السادس: من الانهيار وحتى السبي.
هوامش الفصل السادس.
القسم الثاني:
- الفصل الأول: الصهيونية وثالوث عزرا.
هوامش الفصل الأول.
- الفصل الثاني: نقد مفهوم "الشخصية اليهودية".
هوامش الفصل الثاني.
الخاتمة.
المصادر والمراجع.

* * *

المقدمة

إن الكتبة اليهود وعلى رأسهم عزرا، صاغوا الأسفار بما يخدم أهدافهم الثالوثية: يهوه الخاص بهم، الشعب المختار (أبناء الله)، الأرض الوعد، وهذا يعني: الوثنية - العنصرية - الاستعمار!

والصهيونية اليهودية - وكحركة استعمارية - تبنت ذلك الثالوث. والصهيونية غير اليهودية، وقفت إلى جانبها دعماً ومؤازرة وتبنياً لمفاهيمها.

ومن هذا المنطلق كان من الضروري نقد ذاك الثالوث. وهو ما تم في كتابي " نقد الدين اليهودي". كمساهمة إلى جانب الدراسات العديدة التي قام بها الآخرون.

وتحليل ونقد الشخصيات اليهودية في العهد القديم هو استمرار ومكمل لنقد الدين اليهودي الذي هو في جوهره وثيقة استعمارية.

وهدفنا في هذا الكتاب، إثبات أن العهد القديم لم يقدم الشخصية اليهودية الكلية والمتماسكة والمتكاملة، كما يدعي الصهاينة العنصريون سواء أكانوا متدينين أم غير متدينين.

إنها شخصيات فردية، متنوعة، ومتمايزة بعضها عن بعض. وكون عزرا حمّلها ثالوثه، لا يجعلها شخصية واحدة.

فاليهودية دين، وليست مصنعاً لتكوين الشخصية، أو لتكوين الجنس - العرق - الإثنية – الشعب...

فلكل شخصية سماتها ضمن مجموعتها. وبالتالي لا يمكن أن تتماهى الشخصيات المتعددة في المجموعة الواحدة، لتشكل شخصية واحدة /كلية/ نمطية... مقابل المجموعات غير المنتمية إليها.

ثم لا يمكن للمجموعات المتعددة والموزعة في العالم، وضمن ظروف اجتماعية /اقتصادية/ تاريخية... متنوعة، أن تشكل شخصية واحدة تجاه شعوب العالم وأممه.

فهل الشخصية الفردية تحمل ثلاث شخصيات في آن واحد زمانياً ومكانياً ؟

إن اليهود في العهد القديم لم يكونوا مجتمعاً متجانساً، متآلفاً، منسجماً. وعلى امتداد الأسفار كان هناك صراع حاد، وكان ثالوث عزرا يُرمى خلف الظهر باستمرار.

وتلك الشخصيات التي رسمتها ريشة الكتبة بهدف خدمة مشروعهم الاستعماري، لم تكن تصلح البتة، نموذجاً / مثلاً أعلى/ قدوة...، لمن هو إنسان قيميّ. لأن سماتها تتنافى مع المطلق والقيم الأخلاقية من حق وخير وعدل.

والسمات التي تسيطر عليها هي سمات الشر والعدوانية، واغتصاب حقوق الآخرين، وطمس وجودهم وتشويه صورتهم.

وتلك الشخصيات لا تختلف في جوهرها عن شخصيات الأساطير القديمة، كما أن الشعوب القديمة كانت تجعل نفسها فوق الآخرين. وكلها اتخذت إلهها الخاص بها. ومنها مَنْ انتقل من خصوصية الإله إلى تعميمه. أي الانتقال من الوثنية إلى التوحيد. فالوثنية هي الخصوصية، أما التوحيد فهو تعميم الإله.

ويهوه كان خاصاً باليهود. وهذا يعني الوثنية. ولكن صورة يهوه عند بعضهم كأشعيا اتجهت شكلياً نحو التعميم: (أشعيا 7/56): " لأن بيت الصلاة يدعى لكل الشعوب".

و(صفنيا 9/3): " لأني حينئذٍ أحول الشعوب إلى شفة نقية ليدعو كلهم باسم الرب ليعبدوه بكتف واحدة ".

ولكن ذلك لا يعني انقلاباً، لأنه بقي الإله الخاص بشعبه المميز والمختار حتى النهاية، كجوهر ليهوه.

فالشعوب - إذاً - عرفت قضية التفضيل والتمايز، كما عرفت الوثنية، والتوحيد التام.

كما عرفت الأرض الوعد. فكل شعب كان يتصور أن الأرض منحها لهم الرب، فالثالوث كان متداولاً. ولكن عزرا والكتبة جعلوه جوهر الديانة اليهودية. ثم ربطوه - جهلاً - بالإثنية. فصار الدين - كأفكار ومفاهيم، جنساً / عرقاً/ شعباً!!

وهذا المفهوم استمر عبر التاريخ. وعلى الرغم من الاختلاط المستمر والاندماج، وتباعد اليهود شرقاً وغرباً، جاء مَنْ يربط بين اليهود المعاصرين في كل مكان، باليهود القدماء. وعلى امتداد التاريخ!

وهذا المفهوم الساقط علمياً، والمزيف، هو من اختلاق العنصرية الصهيونية الدينية واللادينية.

يقول د. قدري حفني: " تعتبر فكرة امتداد التاريخ الإسرائيلي إلى ذلك التاريخ الموغل في القدم بمثابة الزاوية لدى جميع المفكرين الصهاينة بلا استثناء"(1)

فربط الصهاينة أنفسهم /تاريخياً/ بيهود العهد القديم إنما هدفه، تبرير سرقة الأرض واغتصابها، وعنصرية الشعب.

فالاستعمار الصهيوني استغل الدين ليبرر لصوصيته، وما جوهر الدين الذي تقولب حول الثالوث إلا نص استعماري ولا أخلاقيّ.

فالوعد الذي أسقطه عزرا على شخصياته، يتنافى مع الحق والخير والعدل، أي: يتنافى مع المطلق نفسه الذي نسب إليه!

فالدين الحقيقي هدفه المطلق والكمال، وليس الدعوة إلى الاعتداء على الآخرين وقتلهم وسرقة أرضهم.

فمن كانت تلك هي دعوته، إنما هو بشري، يحلم بسرقة ممتلكات الآخرين وحقوقهم، وعلى رأسها الأرض التي يعيشون عليها.

ومن هنا يمكن القول: تلتقي أفكار الدين اليهودي - بما يتعلق بسرقة الأرض، وعنصرية الشعب وهمجيته وتوحشه - الصهيونية بنوعيها الديني واللاديني.

ولكن هذا لا يعني التقاء الشخص اليهودي المعاصر، بشخص اليهودي القديم. فلكل شخصيته. وما هو إلا لقاء الفكر الاستعماري.

لقد عدّ الصهاينة العهد القديم، تاريخ اليهود القوميّ. بل ربطوا بين معاركهم ومجازرهم وبين يشوع وداود... فهما على رأس أبطالهم القوميين!

وهذا ما تراه الصهيونية اللادينية. أما الدينية فهي تراه تاريخاً قومياً ودينياً مقدساً.

* * *

إن العهد القديم ساقط تاريخياً وجغرافياً ودينياً. فلقد سرق الكتبة الأساطير السومرية والبابلية والفينيقية والكنعانية والمصرية. كما سرقوا من الفرس واليونان... ثم أعادوا كتابة وصياغة ما سرقوه ليخدم أهدافهم الاستعمارية.

فهل سنناقش الأسطورة المحضة، أم ما أُسقط عليها من دين وعقيدة وإيديولوجيا... وممَن ؟!

لقد التحمت الأسطورة بالدين وثالوث عزرا. ومن هنا نقول: إن دراسة الشخصيات ليس من منطلق صحتها أو عدم صحتها، أو كونها موجودة أم غير موجودة. وإنما من منطلق ما هي عليه من ثوب ألبسها إياه عزرا والكتبة.

وهذا يعني أن نرى مفاهيم عزرا والكتبة، ورؤيتهم للشخصيات والأحداث والحكايات.

فالشخصية وما يحيط بها سواء أكانت من تراث المنطقة أو مختلقة، تحمل فكر الكتبة وعقلهم ومفاهيمهم.

كما أن دراسة الشخصية، إنما هي في الوقت نفسه دراسة لكاتبها ومصورها وراسمها.

فهي دراسة للثالوث الذي تبنت الصهيونية منه: الشعب والأرض!

وعندما ندرس الشخصيات أو الأحداث نكتشف ضعف وهشاشة ما نقرأ، لضحالة عقول الكتبة.

فإذا كان الكتبة في تلك العصور السحيقة، يلفهم الجهل، والسذاجة، وضيق الأفق، وغياب العقل والمنطق، وغياب القيم الحقيقية. والمفهوم الحقيقي للمطلق.

فما بال من يدعي العلم والمعرفة والثقافة والحضارة والقيم، وفي الوقت نفسه يؤمن بتلك الكتابات المشوّهة والمنحرفة والساقطة!!

بل منهم من يكدّ عقله ليؤول ويفسر ما هو قبيح وشنيع، تحت هلوسات الظاهر والباطن، والرمز، والثيوصوفية...

* * *

وبما أن علم النفس يدرس السلوك. لذا كان تحليل الشخصيات من خلال الحدث والسرد والحكاية، لأن ذلك هو فضاء الشخصية.

يقول يوسف مراد: " الإنسان من حيث هو كائن حي يرغب ويحس ويدرك وينفعل ويتذكر ويتعلم ويتخيل ويفكر ويعبّر ويريد ويفعل. وهو في كل ذلك يتأثر بالمجتمع الذي يعيش فيه ويستعين به، ولكنه قادر على أن يتخذه مادة لتفكيره وأن يؤثر فيه"(2)

فمتابعة الشخصية؛ سلوكها، حركتها، أفعالها، كلامها وحوارها، تصرفاتها... كل ذلك يضعنا أمام حقيقتها.

والأسفار كعمل أسطوريّ خرافيّ، يختلط فيه الواقع بالخيال، والحقيقة بالكذب، وأحلام اليقظة - المعبرة عن الأمنيات والتمنيات غير المتحققة - تجعلنا ندرك بأن الكتبة أنفسهم لم يبالوا بالشخصية في حد ذاتها أو بالحدث. فهما مجرد وسيلة/ أداة، للتعبير عن أفكارهم ومفاهيمهم.

فالثالوث هو الأساس. ومن هنا لا تعنينا حقيقة الشخصية تاريخياً، وكذلك صحة الحدث أو الحكاية. وسواء أكان ذلك مزوراً، أم مسروقاً أم مسقطاً، لأن المهم هو التقاط ما أسقطه الكتبة من أفكار ومفاهيم.

علماً بأن صياغة العهد القديم كما هو، كتاب ديني مقدس عند المؤمنين به، وهو حقيقة إلهية. ولكن الدارس بحيادية وموضوعية يجد أنه كتاب إيديولوجي استعماري. وحكاية ميخا وسبط دان ومدينة لايش في سفر القضاة الإصحاح (17- 18)، تلخص جوهر العهد القديم كله، ولب الديانة الثالوثية.

إن خطأ الكثيرين من الدارسين أنهم أضاعوا أنفسهم في البحث عن حقائق الشخصيات، والأحداث، والتاريخ والجغرافيا والأطالس، وأكثر من هذا غاصوا في عمليات الغربلة والانتقائية.

ودراساتهم المضنية مفيدة حتماً، وفيها معاناة وتعب... إلا أن الكتبة لم يكن هدفهم الحقيقة والصحة، ويعرفون أنفسهم بأنهم يسرقون تراث الآخرين، ولكنهم لم يروا ذلك عيباً أو انتقاصاً من عملهم، لأن ما يريدونه من الإسقاطات هو خدمة ثالوثهم وهو الهدف.

لذا أعادوا صياغة كتابة تاريخ مسروق، ورووه بسذاجة وبتناقضات وبسخافات، وعلى الرغم من ذلك عدوه مقدساً، فلِمَ ؟!

والجواب واضح، لأنهم عبّروا عن أحلامهم بسرقة الأرض، وقتل أصحابها الشرعيين. وحركوا شخصياتهم على مسرح الأسفار لتكون القدوة والمثل الأعلى لليهودي المتدين في كل زمان ومكان. ويهوه العنصري لا يتخلى عن أبنائه مهما فعلوا من جرائم وشرور لأنهم هم الذين حملوه ذاك الاختيار.

وبالتالي عليه أن يتحمل مزاجية اختياره!!

* * *

إن السلوك السويّ هو السلوك الطبيعي والمألوف في حياة الكثيرين، وهو يتسم بالأخلاق، ويسعى نحو مثله الأعلى في الحق والخير والكمال.

أما السلوك اللاسويّ، فهو الشاذ والمنحرف. وهو الذي يدفعنا إلى النفور منه والاشمئزاز، إن كنا أسوياء.

إن التوافق والانسجام مع الآخر له شروطه الذاتية والموضوعية. وما الشخصيات التي سنراها إلا بدائية وهمجية، ولم تكن إنسانية وأخلاقية. وبالتالي لم تكن سويّة. لأن من يعلم الشر والفساد والعدوانية، ومن يزرع العنصرية والكراهية، وينبذ المحبة والسلام، ويرمي خلف ظهره الحق والعدل، لن يكون سويّاً أبداً.

فالإنسان يساوي عقله بما يحمله من أفكار وقيم، ومبادئ إنسانية. وما سلوكه إلا انعكاس لتلك المبادئ التي يحملها.

وبالتالي يقاس الإنسان من خلال ممارسته، وهي التي تحدد موقعه ومكانته في هذه الحياة.

* * *

الشخصيات تبدأ من عصر الآباء - بحسب التسمية اللاهوتية - إبراهيم وإسحق ويعقوب... ثم موسى ويشوع...

وسنستعرض كل هؤلاء وبدءاً من آدم، وحتى ما يسمى الأنبياء الصغار (نبوءات الأنبياء).

وهذه الشخصيات سندرسها كما رسمتها ريشة الكتبة وبحسب تسلسل النص. ودون الاهتمام بحقيقة التسلسل.

كما سنتجاوز أحياناً الخرافات والمبالغات. وكذلك التناقضات في المعطيات التاريخية أو الجغرافية أو الحسابية. والسبب هو الجوهر. فالشكل من أسطورة وحكاية وسرد، وسيلة للمضمون الذي هو المقصود في النهاية. ولم يبال الكتبة كثيراً بذاك الشكل كيفما جاء.

ولن نتطرق للتلمود، والذي لا يقل أهمية عن التوراة، لأنه دائرة معارف حول التوراة فهي النواة له.

تقسم الشخصيات إلى:

1- الشخصيات الحاملة للفكر النظري.

2- الشخصيات العملية/ المطبقة/ الممارسة، للفكر النظري.

القسم الأول: مسالم، يغلب عليه مظهر المسكنة. يسيطر عليه الخوف والقلق. مما يجعل سيكولوجيته تتسم بالمكر والخداع والكذب. والاستخفاف بعقل الآخر، وحب الأخذ والكسب دونما عطاء.

أما القسم الثاني: فهو يغلب عليه طابع العدوانية الشرسة والهمجية بأبشع أشكالها.

والفرق الوحيد بين القسمين: أن الأول: ضعيف تنقصه العدة والعدد.

أما الثاني: فقد امتلك عدة وعدداً.

ومن البديهي أن ترافق فترات الضعف والفقر والانكسار، توجهات نحو الانعزال والتقوقع. أما فترات القوة والغنى، وحب الحياة المتولد عنهما، فهي ترافق دعوات الانفتاح. ولكن هذا ليس بقاعدة مطلقة.

فامتلاك القوة هو المفصل، وهذا ما سنراه على امتداد الأسفار.

ومن خلال القسمين: الضعف والقوة، نستطيع أن نقرأ ما خلف السطور شيئاً عن حقيقة شعب كنعان. وهذا لم يخطر في بال عزرا أبداً، وإلا لكان قد شوهه وطمسه. وهذا ما فعله المؤرخون أيضاً، إذ غيّبوا شعب كنعان عن الساحة الفلسطينية خدمة لمصالح الاستعمار والصهيونية!!

فالشعب الكنعاني شعب موحد ومسالم ومتسامح. وهو على قدر كبير من التطور والحضارة أمام الغزاة المتخلفين والهمج.

والكنعانيون قاتلوا الغزاة اليهود، ودافعوا عن أرضهم بكل ما يستطيعون من قوة. فعلى امتداد الأسفار نجدهم يكافحون ويقاومون بصلابة، محاولات الاعتداء عليهم لسرقة أرضهم. واستطاعوا أن يلحقوا بالغزاة ضربات قاسية. ولم يستسلموا أبداً. ولم يجعلوا الغزاة المستعمرين ينعمون بالهدوء والاستقرار.

وبما أن شعب كنعان كان شعب حضارة؛ فقد كانت له معتقداته وعاداته وتقاليده. لذا نجد أن اليهود اقتبسوا منه الكثير من العادات والتقاليد، وتعلموا منه الزراعة والحرف المختلفة. كما تعلموا بناء البيوت والاستقرار...

فالشعب الكنعاني علمهم وطورهم، حتى اللغة علمهم إياها فما اللغة العبرية إلا الآرامية نفسها، والتي كانت لغة الكنعانيين.

كما تعلموا منهم الديانة وحتى ربهم يهوه، إنما هو كنعاني الأصل وكذلك إيل وبعل...

وبما أن شعب كنعان كان حضارياً وله كتاباته. فهو لم يذكر شيئاً عن أولئك اليهود بحسب ما ورد في الأسفار؛ ومعنى ذلك أنه لم يكن لهم وجود في فلسطين كما يدعي عزرا والكتبة. ولأنه لا يُعقل أن تكون تلك المعارك الطاحنة والتي أدت - بحسب النص - إلى قتل عشرات الآلاف، بل مئات الآلاف، ولا يتحدث شعب كنعان عنها!! صحيح بأن الأسفار غيّبت شعب كنعان، ولكن هل شعب كنعان غيّب الأحداث والتاريخ ؟!

إنه لم يغيّبها، ولم يذكرها لأنها لم تكن موجودة على أرضه، ولم تحدث. وأولئك اليهود لم يكن لهم وجود يثير الانتباه، أو له قيمة!! هذا إن كان لهم وجود.

* * *

يتألف الكتاب من قسمين:

القسم الأول: يتألف من تمهيد تاريخي يعطي صورة عن فترة السبي، والتي فيها بدأت كتابة الأسفار. كما يعطي فكرة عن تأليف الأسفار نفسها. وقد عنوناه بـ "خلفية الاستعمار القديم"(3)

ثم هناك البحث الرئيسيّ عن الشخصيات.

والقسم الثاني: هو نتيجة للدراسة. ويتضمن بحثين:

الأول: ارتباط الصهيونية بثالوث عزرا.

والثاني: زيف مفهوم الشخصية اليهودية.

فثالوث عزرا الذي أسقطه على الأسفار، تلقفته الحركة الصهيونية لأنه يخدم هدفها الاستعماري لفلسطين. وقد تبنت منه قضيتين: الأرض، وقضية الشعب المختار كأداة لتنفيذ المشروع. لكن أيّ شعب هو؟!

وهذا يعني دراسة مفهوم الشخصية اليهودية ومفهوم الكلية والتعميم بل ومفهوم مصطلحات الشعب، العرق النقي، الأمة...

وكل هذا لنبين الزيف والكذب والخداع، فلا يبقى أمامنا شيء سوى الاستعمار الصهيوني/اليهودي/ الإسرائيلي.

* * *

هوامش المقدمة

(1) د. قدري حفني: الإسرائيليون من هم - ص 161.

(2) د. يوسف مراد: مبادئ علم النفس العام - ص 11.

وهناك عدة مدارس في علم النفس. يقول د. عبد الستار إبراهيم: " يمكن تحديد خمس مدارس كبرى في علم النفس هـي: المدرسة السلوكية، والمدرسة التحليلية النفسية، والمدرسة المعرفية، والمدرسة الوجودية، وأخيراً هناك التيار الإنساني. وكل مدرسة من هذه المدارس تركز على جانب من جوانب السلوك البشري وبالتالي تسد الثغرات الموجودة في المدارس الأخرى". ويرى أن المدرسة التكاملية هي الأفضل لديناميكيتها: " وتزداد الفاعلية إذا استطاع الباحث أن يأخذ من كل نظرية أو مدرسة أفضل ما فيها". (الإنسان وعلم النفس – ص62). ويذكر في (ص 60): " فإن الغالب على علماء النفس اليوم هو الاتجاه التوفيقي الذي يأخذ من كل وجهة نظر أفضل ما فيها".

وكما هو معلوم أن مدارس الغرب في علم النفس وصلت إلى طريق مسدود (راجع كتاب: أزمة التحليل النفسي: إريك فروم).

كما أن المدرسة الماركسية في علم النفس نقدت المدارس الغربية لإهمال العلاقة الجدلية بين الفرد والمجتمع، وضمن جدلية الواقع الاجتماعي والاقتصادي. (راجع كتاب: مذهب التحليل النفسي وفلسفة الفرويدية الجديدة: فاليري ليبين).

(3) كلمة الاستعمار أشد عنفاً من احتلال. وقد تجاهلنا عن عمد المفاهيم التقليدية لمصطلحات: احتلال – استعمار. فالاستعمار هو من يعتدي على أرض الآخرين ويحتلها، سواء أكان هذا قديماً أم حديثاً. وسواء أبنى مستعمرات أم لم يبن، وسواء أترك السكان أم طردهم...

فالاستيلاء على الأرض والسيطرة عليها هو الحكم الفيصل لاستخدام المصطلح.

* * *

الفصل الأول:

خلفية الاستعمار القديم

إن كتباً تاريخية كثيرة تحدثت عن التاريخ القديم لفلسطين. ولكنها دارت في فلك العهد القديم كمسلمة تاريخية. بل غيّبوا شعب كنعان وكأنما وجوده ثانوي لا قيمة له.

وهذا التهميش والتجاهل المتعمد إنما هدفه إبراز اليهود فقط خدمة للاستعمار والصهيونية.

فالمؤرخون ساروا في ركاب الصهيونية لتحقيق أهدافها على أرض كنعان. إلا أن المؤرخين (الجدد) في السنوات الأخيرة الماضية، ولا سيما من اليهود بدأوا ينتقدون ذاك التغييب.

يقول كيث وايتلام: إن اليهود الغربيين قد غيّبوا التاريخ الفلسطيني عندما درسوا تاريخ فلسطين القديمة. وغيّبوا الزمن الفلسطيني والمكان الفلسطيني، وبتأثير الدين/ الاستعمار. ثم وبعد المشروع الصهيوني ازداد التغييب لإبراز اليهود فقط.(1)

إن التزييف الغربي والمرتبط بالاستعمار - كما يقول إدوارد سعيد - فضح النزاهة العلمية التي يدعيها المؤرخون والمستشرقون.

ومع الأسف والألم، لحق بهؤلاء الغربيين كثير من المؤرخين العرب، ممن يشعر بعقد النقص تجاه ثقافة الغربي وادعائه الموضوعية. ناسين مصداقية أولئك وتخليهم عن العلم، لأنهم كانوا مرتبطين بأجهزة المخابرات الاستعمارية.

* * *

فالمؤرخون اعتمدوا على العهد القديم وكأنه وثيقة تاريخية علمية. وهم يعلمون تماماً أن التاريخ العلمي يجب أن يستند إلى الحقائق: وثائق، حفريات، آثار، نقوش، كتابات... وكل هذا غائب عن العهد القديم!!

وشتان بين التاريخ الديني والتاريخ العلمي. بين الأسطورة والخرافة وبين العلم!

والدراسات المقارنة تكشف حقائق كثيرة إلا أن المؤرخين، وإن تحدثوا عنها، يقفزون عن النتائج، وماذا تعني!

وهي في جميع الأحوال جزئية، ولا تتناول القضايا كلها وبكل أبعادها.(2)

ومن هنا نقول: إن العهد القديم ساقط تاريخياً وجغرافياً ودينياً. وهو على الرغم من ذلك له أتباعه ومؤيدوه!

وبما أننا ندرس شخصياته فلا بد من إعطاء فكرة عن الأسر البابليّ والذي فيه بُدئ بتأليف الأسفار. وهذا بالاستناد إلى ما يقوله الآخرون. وليس من زاوية رؤيتنا لذاك التاريخ المزيف. والذي لا يستطيع الإنسان الموضوعي أن يطمئن إلى أي شيء فيه.

والدراسة الموضوعية في هذا الأمر لن تفيدنا بالتحليل، لأنه من المستحيل الإمساك بخيط حقيقي وصادق. ولذا ستكون الدراسة هنا لما هو كائن على علاته.

ولقد تم الانطلاق من الأسر البابليّ لأن معظم المؤرخين يقولون: إن الأسفار تم تأليفها في القرن السادس قبل الميلاد وحتى القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد.

والجدير بالذكر أن كلمة (اليهود) لم تعرف قبل السبي البابليّ. فقد ظهرت خلال السبي وبعده. فقد جاء في سفر عزرا نص رسالة منها: " ليعلم الملك أن اليهود الذين خرجوا من عندك قد وفدوا إلينا إلى أورشليم المدينة ". (عزرا 12/4).
وتقول الموسوعة الكتابية: " أواخر القرن السادس قبل الميلاد صارت كلمة اليهود اسماً عاماً لكل بني إسرائيل".
إن كتبة الأسفار صاغوا كتاباتهم بما يخدم أهدافهم العنصرية والاستعمارية وليس بما يخدم الحقيقة والتاريخ.

* * *

اليهود قبائل رعوية متجولة، أرادت لها موطئ قدم في فلسطين، أرض كنعان. وقد تبنوا تسميتين (العبري، الإسرائيلي) ولا يوجد دليل على أن العبريين هم أنفسهم الإسرائيليون، وهم أنفسهم اليهود! لكن اليهود استأثروا بتلك التسميات وحدهم.
والخابيرو أو العابيرو، كلمة كلدانية تعني عابري الحدود أو المرتزقة. يقول فيليب حتي: " الخابيرو ليس اسماً عرقياً وإنما تسمية أطلقت على جماعات من الرحل والأجانب والأشقياء المستعدين للانضمام إلى صفوف أي جيش لقاء أجر أو بدافع الحصول على الغنائم"(3).
فالكلمة صفة لأي إنسان يعبر الحدود، النهر... ولأي مرتزق يقاتل من أجل المال.
وكلا الأمرين ينطبق على اليهود وغيرهم. إلا أن الكتبة جعلوها - العبرانيين - اسم علم على عشيرتهم.
فاليهود في حركتهم الدائمة بحثاً عن الكلأ والماء كأي بدو رحل، كانوا يخترقون حدود الآخرين " الأراضي، المدن، القرى...". وكتجار للمواشي يحتكون مع سكان المدن والقرى للبيع والشراء.
وبما أنهم يعتمدون على التجارة مع الجميع، فمن السهل انضمامهم إلى فريق ما في صراعه مع الآخرين، لقاء المنفعة والمال، لأنهم لا ينتمون لأحد. ويقول المؤرخون إنهم عملوا مرتزقة لصالح مصر أو فارس... خلال الصراعات في المنطقة.
لقد كانوا معرضين للطرد والمهانة، وعانوا من الإغارات وقطع الطرق، واستجداء مكان يحطون فيه رحالهم.
ولعل هذا الأمر بدأ يكون لديهم فكرة الاستقرار على أرض تكون لهم، حتى ينعموا بالاطمئنان والراحة كغيرهم من الشعوب، بدلاً من الخوف والقلق اللذين يسيطران عليهم.
ولكن أية أرض ستكون لهم، وكل أراضي المنطقة لها سكانها وأصحابها!؟

* * *

إن تتبع أصل هذه القبائل البدوية لا يفيدنا من الناحية العلمية، فالبدو في رحيل دائم. وقد تصل بهم جولاتهم الرعوية والتجارية إلى مئات بل آلاف الكيلو مترات.
ومن يستطيع أن يحدد أصول قبيلة بدوية تعيش على هامش الحياة. إضافة إلى الارتزاق بالقتال تحت سيادة قوم ما طمعاً في المال أو الحماية أو الاستقرار المؤقت!
لقد تعددت الآراء حول أصول تلك القبائل خالطة الأزمان المتباعدة لأن مصادرها العهد القديم.

فمن المؤرخين من يقول: هم من أصل آرامي - استناداً إلى التوراة -. ولكن ذاك أصل إبراهيم كما تقول التوراة، فما علاقة موسى وعشيرته بذاك الأصل وبينهما أكثر من أربعمئة سنة، وهي الفترة التي ذكرتها التوراة بين يوسف بن يعقوب وموسى. إن انقطاع الزمن ما بين يوسف وموسى يدل على تلفيق النسب. فأين اتصال الأخبار علماً بأن الكتبة كانوا حريصين جداً على أخبار وحكايات الأنساب والتي أوصلوها إلى آدم!؟

وما علاقة يهود السبي بعشيرة موسى. وما الدليل على أنهم من السلالة نفسها، أو من سلالة إبراهيم ؟!

ومن المؤرخين من ادعى بأنهم من بقايا الهكسوس أو الحثيين. وهل اتفق المؤرخون على أصل الهكسوس أو الحثيين، وكيف اختفوا عن مسرح التاريخ، فهم ظهروا فجأة ثم اختفوا وتلاشوا ؟!

ويدعي مؤرخون بأن عشيرة موسى أصلها من مصر، ومن أتباع ديانة أخناتون. ومنهم من قال: هم من صحراء سيناء أو الجزيرة أو العراق أو من أصول فارسية... أو... وكل هذا لا يستند إلى أية حقائق علمية.(4)

والنص التوراتي يتحدث عن أصل إبراهيم، وانطلاقاً من سلالة نوح: ففي سفر (تكوين 2/11): " وكان أنهم رحلوا من المشرق وجدوا بقعة في أرض شنعار فأقاموا هناك". وشنعار هي أرض العراق ويذكر الإصحاح أن الأرض كانت لغة واحدة، وأن الله بلبل ألسنتهم، ولذا سميت بابل. (تكوين 9/11): " ولذلك سميت بابل لأن الرب هناك بلبل لغة الأرض كلها. ومن هناك شتتهم الرب على كل وجهها".

فرأي الكتبة وعلى رأسهم عزرا أن السلالة التي بدأت مع نوح كانت تسكن شرقي العراق ثم جاءت إلى بابل. إذاً هي من أصول فارسية أو من أواسط آسيا كما يقول النص.

كما يدعي الكتبة أن إبراهيم وحتى يوسف هم آراميون:

(تثنية 5/26): " إبراهيم كان آرامياً تائهاً ". وهناك آيات تتحدث عن إسحق ويعقوب وزواجهما من عشيرتهم الآرامية: (تكوين 3/24). (20/25). (27/ 43). (28/2-5). (20/31).

ويقول الكتبة: إن موسى وحتى سليمان هم من سلالة أسباط يعقوب الاثني عشر. وإن المسبيين في بابل هم من سبط يهوذا!

إذاً الكتبة يقدمون ثلاث سلاسل من النسب لا رابط بينها سوى أسماء شجرية لا غير:

1- من إبراهيم وحتى أولاد يعقوب الاثني عشر.

2- موسى وعشيرته.

3- جماعة اليهود في السبي.

ثلاث مجموعات: الأولى حملت تسمية العبرانيين ثم الإسرائيليين.

والثانية: غلبت عليها تسمية الإسرائيليين.

والثالثة: غلبت عليها تسمية اليهود.

ولا أحد يستطيع وصل ما انقطع بين تلك المجموعات، ووضعها جميعاً في سلة واحدة. إلا أن اليهود فعلوا ذلك، وصارت التسميات ترتبط بهم. كما لا يستطيع أحد جعل المجموعة الثالثة الامتداد التاريخي لليهود المكابيين. وحتى مجيء الرومان وطرد اليهود كلهم من فلسطين.

* * *

ومن ذاك المنطلق وحتى لا ندور في حلقة مفرغة، انطلقنا من الأسر البابليّ، لا كحقيقة تاريخية، وإنما لأنه منطلق كتابة العهد القديم. كما يذكر النص ومعظم المؤرخين!

إذاً تلك القبائل الرعوية البدوية، تجد نفسها في خضم الصراعات، مسببة في بابل كغيرها من القبائل الأخرى. وهي عادة المنتصر في تلك العصور. حيث يقود الفريق المنتصر أعداءه وخصومه، عبيداً إلى بلده ليسخرهم لمصلحته ويتاجر بهم كرقيق.

وخلال الأسر البابليّ تتحول حياة البدو الرحل إلى حضر. ويتأقلمون مع حياة بابل الحضارية. ومنهم من يتعلم ويطلع على تراث بابل وغيرها من الحضارات. فيبدأ بكتابة تاريخ العشيرة.

ويستولي الفرس على بابل والمنطقة في القرن السادس قبل الميلاد. ويفكر أحد ملوكهم وهو قورش (كورش) (599 - 530 ق.م)، أن يكوّن له قاعدة، محمية، حامية... في فلسطين، لتحمي حدوده الغربية من عدوته الرئيسة مصر. وأيضاً العدو غير المنظور والذي تتنامى قوته وأطماعه وهو الإغريق.(5)

وهكذا فكر قورش بإرسال المسبيين اليهود إلى فلسطين ليبنوا تلك القاعدة أو الحامية، للإسراع بتأمين جرس إنذار مبكر ينبهه من عدوته المنظورة مصر.

وإن صحت هذه المعلومة التاريخية، يكون قورش بذلك صاحب أول مشروع استعماري لجزء من فلسطين.(6)

وهكذا بث قورش الفكرة بين زعماء اليهود، والذين راقت لهم الفكرة لأنهم سيتحولون من سبي إلى أحرار، فاستجابوا لها سريعاً.

ولا يستبعد أن يكونوا هم من طرح الفكرة على قورش.

وبما أن بعض المتعلمين قد بدأ بكتابة تاريخ العشيرة - بالاستناد إلى تراث الآخرين، خالطاً الحابل بالنابل، والحقائق بالخيال، وتاريخ زعماء العشيرة بتاريخ شخصيات لا علاقة لهم بها - جاء عزرا ليسقط على الشخصيات والأحداث والحكايات بما يناسب مشروع قورش: الوعد الإلهي بالأرض.

جاء في سفر (أخبار الأيام الثاني 36/22-23): " وفي السنة الأولى لكورش ملك فارس لكي يتم ما تكلم به الرب بفم إرميا نبه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداء في مملكته كلها وكتابات أيضاً قائلاً. هكذا قال كورش ملك فارس. جميع ممالك الأرض قد أعطانيها الرب إله السموات وأوصاني بأن أبني له بيتاً في أورشليم التي بيهوذا. فمن كان منكم من شعبه أجمع. فالرب إلهه معه، فليصعد".

ورغم حملة التشجيع للهجرة إلى فلسطين، فإن القسم الأكبر من اليهود أو المتهودين لم يقبل بالهجرة، وآثر البقاء في بابل والاندماج في شعوب المنطقة.

وفي سفر عزرا (64/3-65) أن عدد الذين خرجوا من بابل إلى أورشليم وعلى رأسهم زر بابل ويشوع ونحميا: " كل الجماعة معاً اثنان وأربعون ألفاً وثلاث مئة وستون. ما خلا عبيدهم وإماءهم وهم سبعة آلاف وثلاث مئة وسبعة وثلاثون. ولهم مئتان من المغنين والمغنيات".(7)

ولو جمعنا كل هؤلاء من يهود وعبيد ومغنيين، فلن يصل عددهم إلى خمسين ألفاً.

كما أن عزرا (الكاتب الأول للأسفار)، ذهب في عهد الملك الفارسي أرتحشستا (465-424 ق.م)، إلى أورشليم.

جاء في سفر عزرا (12/7-13): "من أرتحشستا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء الكامل سلام. إني أبرزت أمراً أن كل من شاء في مملكتي من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع إلى أورشليم معك فليرجع".

فقورش سمح لليهود بالهجرة إلى فلسطين عام 538 ق.م. فانطلقت المجموعة المهاجرة عام 533 ق.م (استناداً إلى المؤرخين اللاهوتيين).

أما عزرا فقد هاجر عام 458 ق.م. ولحق به نحميا عام 445 ق.م.

فما بين سماح قورش بالهجرة 538 ق.م، وبين هجرة عزرا 458 ق.م، ثمانون سنة. فلماذا لم يهاجر آباء عزرا ونحميا مع الذين هاجروا 533 ق.م؟!

إن اليهود في بابل كانوا قد تحضروا وأخذوا يعملون في التجارة والصناعة. وقلة كانت تعمل في الزراعة كما تقول مقدمة سفر عزرا (الطبعة الكاثوليكية).

ومعنى ذلك أن اليهود لم يقتنعوا بالهجرة، فقد استقرت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية. حتى زعماؤهم كانوا من رجالات الحاشية في القصر كعزرا ونحميا، وقبلهما دانيال... فالذين هاجروا هم ممن " لم يسعدهم الحظ في أرض بابل" كما تقول حاشية عزرا (الطبعة الكاثوليكية).

* * *

إذاً وعد قورش صار في كتابات عزرا وعداً إلهياً، وبالتالي صارت كتاباته كتابات مقدسة.

ويمكن استيعاب هذه القضية/ تاريخياً/ فما الخط الفاصل بين الإله والملك ؟!

وكم من الملوك من ادعى الألوهية حتى الإسكندر المقدوني فكر بتأليه ذاته.

إن اليهود الذين استقروا في أورشليم وما حولها - كما يقول النص - أقاموا حكماً دينياً. وهذه الثيوقراطية - إن صح وجودها - لم تكن مستقلة، فقد كانت تابعة لسلطة الفرس، ثم مع مجيء الإغريق خضعت لسلطتهم.(8)

وعندما غزا بومبي فلسطين، هدم أورشليم عام 63 ق.م، واستمر الرومان بتوجيه ضربات متتالية لليهود حتى عام 70 - 73 ق.م حيث قتل ما يقارب نصف عدد اليهود، وهرب كثير ممن بقي حياً. وبعد تمرد زعيم اليهود باركوخبا على الرومان عام 132-135م. تلقى اليهود الضربة التي أدت إلى نهاية وجودهم في فلسطين.

فقد دمر هدريان (985) مدينة في فلسطين، وذبح (580) ألف يهودي، والذين ماتوا من الحرق أو المرض أو الجوع أكثر من ذلك العدد بكثير.(9)

* * *

لقد مرت بفلسطين شعوب كثيرة: آشوريون، بابليون، هكسوس(10)، مصريون، فرس، يونان، رومان، تدمريون، أنباط... ومن هؤلاء من بقي مئات السنين كسلطة وحكم واستقرار وحضارة.

أما اليهود! فقد كان وجودهم عابراً كغزو استعماري، ثم خرجوا من مسرح الأحداث - هذا إن كان لهم وجود قبل اليونان -· وهم لم يصنعوا أية حضارة(11)، بل كانوا لصوص حضارة، وطفيليين وهامشيين. حتى كتابهم الديني وهو الإنتاج الوحيد لديهم، كان سرقة من تراث الآخرين.

وما تدعيه الصهيونية من حق تاريخي بناء على المملكة المزعومة، والتي لا تستند إلى أي أساس علمي، ما هو إلا ادعاء سخيف وأسخف منه القول: إن يهوه قرر ذلك. وما هو إلا منطق المستعمر لا غير.

وذاك الادعاء المزيف يعطي الحق لغيرهم كالفرس أو اليونان أو الرومان فهم كانوا حقاً في فلسطين، ولزمن أطول، ومنهم من صنع حضارة.

فمطلب الصهاينة اللامنطقي يسقط أمام منطق أولئك إذا تبنوا الفكر الاستعماري!!

إن شعب كنعان تعود جذوره إلى أكثر من خمسة آلاف سنة. لم يغادر فيها أرضه. وله فيها آثاره ووثائقه التاريخية. بينما اليهود لا يمتلكون أي أثر أركيولوجي!

مما يعني أن الحركة الصهيونية هي مجرد استعمار ولا علاقة لها مطلقاً بفلسطين لا قديماً ولا حديثاً. وكذلك لا علاقة لأي يهودي بها لا قديماً ولا حديثاً.

* * *

كتابة الأسفار:

إن عزرا الذي عاش في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، هو الذي ألف معظم الأسفار الأساسية ولا سيما التوراة، وهو المؤدلج للديانة اليهودية.

جاء في سفر (عزرا 11/7): "عزرا الكاهن الكاتب، كاتب كلام وصايا الرب وفرائضه على إسرائيل".

وجاء في (عزرا 6/7): " وهو كاتب ماهر في شريعة موسى".

يقول سبينوزا: إن كاتب الأسفار هو واحد: " وإذن فمجموع النصوص والترتيب الذي تتعاقب به الروايات يدل على أن كاتبها مؤرخ واحد له غرض محدد"(12).

ويعتقد بأنه عزرا فهو يقول: " والمسألة الأساسية هي أن عزرا (الذي أعده المؤلف الحقيقي، طالما لم يبرهن لي أحد على مؤلف آخر ببرهان أكثر يقيناً) لم يكن آخر من صاغ الروايات المتضمنة في هذه الأسفار، وأنه لم يفعل أكثر من أنه جمع روايات موجودة عند كتّاب متعددين"(13).

فسبينوزا يقوم بنقد نسبة الأسفار إلى كتبتها، وبالتالي، بما أن عزرا هو الجامع لها، فلا يبقى من كاتب غيره.

وهو يقدم براهينه على إثبات أن موسى لم يكتب أسفاره، ثم يقول: " من هذه الملاحظات كلها يبدو واضحاً وضوح النهار أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة، بل كتبها شخص عاش بعد موسى بقرون عديدة "(14).

إن التوراة هي الأسفار الخمسة. ومن اللاهوتيين من يجعلها ستة. والسامريون لا يعترفون إلا بالأسفار الخمسة الأولى: (التكوين - الخروج - اللاويين " الأحبار" - العدد - التثنية). وهم يرفضون كل ما عداها من العهد القديم.

وهناك آيات تدل على أن التوراة هي فقط سفر التثنية (تثنية 61/28): "سفر الناموس هذا ".

(تثنية 10/30): "سفر الشريعة هذا ".

(تثنية 9/31): "وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب، ولجميع شيوخ إسرائيل".

(تثنية 24/31): " فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها".

وفي سفر (يشوع 31/8): " كما هو مكتوب في سفر توراة موسى". وأيضاً: (يشوع 32/8): " وكتب هناك على الحجارة نسخة توراة موسى التي كتبها أمام بني إسرائيل".

فتلك الآيات تدل على أن التوراة هي سفر التثنية فقط. وهي الوصايا والشرائع والتعليمات ولها ارتباط بموسى. ومعنى ذلك لا علاقة لما قبلها من الأسفار بها ولا لما بعدها من الأسفار.

وإلى تلك النتيجة وصل سبينوزا فهو يقول: " أفترض أن سفر التثنية هذا هو سفر توراة اللّه الذي كتبه عزرا "(15).

وترد آيات في التوراة تذكر أن موسى هو الذي كتب التوراة: (خروج 4/24): " فكتب موسى جميع أقوال الرب". بينما ترد آيات تشير إلى أن رب موسى هو الذي كتبها: (خروج 12/24). و" مكتوبين بإصبع اللّه". (خروج 18/31).

وفي خروج (16/32): " واللوحان هما صنعة اللّه والكتابة كتابة اللّه منقوشة على اللوحين".

فموسى هنا يتلقى الشريعة جاهزة، كما تلقاها حمورابي من إله الشمس!

ولو تأملنا سفر التكوين نجده واضحاً في استخدام كلمات (اللّه، الإله: الرب): (خلق اللّه، روح اللّه يرف، وقال اللّه، ورأى اللّه، فصل اللّه، دعا اللّه، عمل اللّه، جعلها اللّه، باركها اللّه، فرغ اللّه...).

بينما مع موسى نجد: (أهيه، يهوه، إيل...) وأكثرها استخداماً الرب – يهوه.

وأهيه بمعنى: ياه أي: يهوه!

وعلى هذا نجد أن روح التكوين أقرب إلى روح ما يسمى بالأنبياء الصغار وأشعيا وإرميا. بينما الخروج ويشوع والقضاة والملوك روحهم أقرب إلى الوثنية.

لقد اطلع عزرا والكتبة على تراث المنطقة: البابليّ والسومري والكنعاني والمصري والفارسي...(16)

ويكفي أن نقول: كانت في بابل أعظم مكتبة في تلك العصور، وقد أنشأها أشور بانيبال. وهي تحتوي على ثلاثين ألف لوح من الطين مصنفة ومفهرسة.(17)

لقد أعاد عزرا صياغة ما سرقه من تراث الآخرين. وعدّل فيه ليسقط عليه ثالوثه (يهوه، الشعب المختار، الأرض)، وميكافيليته وبراغماتيته. وبما أنه يريد إقناع اليهود بأرض كنعان، لذا كان عليه خلق رابط عشائري بينهم وبين تلك الأرض.

وأسقط على يهوه، وعد قورش. ولأنه من حاشية الملك أدرك أهمية القانون والتنظيم. لذا كتب الشريعة على نمط ووحي شريعة حمورابي لتكون الدستور الضابط لجماعته.

وسار الكتبة على منهج عزرا بجعل الثالوث محور الأسفار التي كتبوها.

وفي نهاية القرن الثالث قبل الميلاد وفي عهد الملك بطليموس، اجتمع اثنان وسبعون يهودياً في الإسكندرية وترجموا الأسفار التي جمعوها من الآرامية أو العبرية إلى اليونانية.(18)

وهناك آراء تقول: إنها كتبت باليونانية مباشرة. وبعضهم يقول: لم تكن هناك أسفار بالعبرية فالترجمة تمت من الآرامية.

والترجمة السبعونية فيها ضعف وأخطاء " الأخطاء الناتجة عن التهاون أو الملل أو الجهل"(19).

وتقول الموسوعة الكتابية: رغم حرص النساخين على سلامة عملهم: " ولكن ليس معنى ذلك أنه لم يتسرب إلى النصوص أي خطأ، فالكتاب المقدس ظل ينسخ باليد من نساخ مختلفين مراراً بلا عدد على مدى قرون طويلة. ومن المستحيل أن يقوم إنسان بنسخ أي كتاب دون أن يقع منه أي خطأ، مهما كانت الدقة والمراجعة، لا بد أن تفلت بعض الأخطاء وتجد طريقها إلى المخطوطات الرسمية "(20).

لقد تلاعب الكتبة الاثنان والسبعون بالنصوص التي بين أيديهم، وزوروا وعدّلوا، ولكنهم حافظوا على ثالوث عزرا. كما حافظوا على مبدأي الميكافيلية والبراجماتية إلى أقصى الحدود. وخاصة لأن اليهود في الإسكندرية في تلك الفترة كانوا منافسين لليونان في الأعمال المالية والتجارية.

وقد أعلن الكتبة أن "عصر الأنبياء قد انقضى وأن الوحي اللفظي قد انتهى زمنه"(21).

لكن الأسفار لم يكتمل شكلها النهائي إلا في القرن الأول بعد المسيح. يقول موريس بوكاي: " لأن كتب العهد القديم لم تتخذ هيئتها الأولى إلا قبل قرون من ميلاد المسيح ولم تكتسب شكلها النهائي إلا في القرن الأول بعد المسيح كما يرى الكثيرون"(22).

إن اللاهوتيين لم يعطوا أسفار الأبوكريفا (السرية، المخفية) شرعية الاعتراف لأن معظمها كتب في القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد. وعلى الرغم من ذلك عدّوا سفر دانيال شرعياً مع أنه كتب ما بين (166- 162 ق.م).(23)

وكذلك الأمر بالنسبة لنشيد الإنشاد والأمثال وأجزاء من المزامير...(24)

* * *

تلك هي الخلفية التاريخية للسبي البابليّ، وبدء كتابة أسفار العهد القديم على يد عزرا.

وقد تم استعراضها بناء على أقوال المؤرخين ولا سيما اللاهوتيين منهم.

وقد تبين أن دوافع التأليف هي: المشروع الاستعماري الأول لجزء من أرض كنعان في أورشليم، وبمؤازرة الفرس أصحاب المشروع.

وفي العصر السلوقيّ ومنتصف القرن الثاني قبل الميلاد، توسعت رقعة الاستعمار اليهودي ولا سيما خلال حركة المكابيين اليهود والذين أقاموا حكومة ثيوقراطية، كما يدعي المؤرخون.

لقد انقسم اليهود إلى أنصار الحضارة الهيلينية (اليونانية) والاندماج فيها، وإلى المحافظين المؤيدين لعزلة اليهود. وكنتيجة للخوف من اتساع تيار دعاة الاندماج، سارع رجال الدين الفريسيون في حياكة الأسفار لإبقاء اليهود تحت مظلة الكهنة كأداة للمشروع الاستعماري.

وما مملكة داود وسليمان المزعومة - كما نرى - إلا انعكاس لحكومة الكهنة اليهود.

فما العهد القديم إلا إيديولوجيا استعمارية عنصرية ولا أخلاقية.

ولقد صوّر المؤرخون الدائرون في فلك الاستعمار والصهيونية، تاريخ فلسطين في القرن الثاني قبل الميلاد وحتى القرن الأول الميلادي، وكأنه تاريخ لليهود يصارعون فيه اليونان، ثم فيما بعد الرومان. أما شعب كنعان فهو مغيب تماماً ولا وجود له مطلقاً!!

إن ما كتبه عزرا هو جوهر الديانة اليهودية. وما بقية الأسفار إلا صدى له.

وحتى التلمود - وإن كانت أخبار مكانته متضاربة - فما هو إلا موسوعة يهودية جوهرها مفاهيم عزرا.

صحيح بأنه شروحات وتوضيحات ويشمل الفقه والقانون والتاريخ، والحكايات... ويؤرخ للعقلية اليهودية بكل أبعادها وتنوعاتها وحتى القرن السادس الميلادي، إلا أنه لم يخرج من عباءة عزرا.

* * *

هوامش الفصل الأول: خلفية الاستعمار القديم

(1) راجع كتاب: اختلاق إسرائيل القديمة - إسكات التاريخ الفلسطيني: كيث وايتلام.

(2) على سبيل المثال: يجري ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة - المجلد الأول - الجزء الثاني، بعض المقارنات والموازنات: مثل الطوفان، والمزامير... ولكن قضية اللغة - مثلاً - وهي جوهرية يهملها! فالعبرية ما هي إلا اللغة الآرامية المسروقة، ولكن ماذا يقول ديورانت عنها ؟! "وكانت اللغة العبرية أعظم اللغات الطنانة الرنانة على ظهر الأرض ألفاظها مليئة بالأنغام الموسيقية القوية رغم ما فيها من حروف حلقية ". (م1 ج2 ص329). فكيف يطلق ديورانت ذاك الحكم دون دراسة مقارنة للغات ذاك العصر؟!

(3) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - ج1 ص173، وراجع أيضاً كتاب د. أحمد داود: العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود.

(4) يرى فرويد في كتابه: موسى والتوحيد، أن موسى مصري.

(5) هذه الرؤية كانت مصيبة تماماً. فكم من الحروب التي خاضها الفرس ضد الإغريق فيما بعد! راجع قصة الحضارة لول ديورانت: م1 ج2 ص 407-408، وأيضاً: م3 ج2 ص 434 وما بعد... حول هزيمة الفرس في سهل مارثون أمام الإغريق في عهد دارا، ثم معركة سلاميس البحرية 480 ق.م والتي هُزموا فيها أيضاً.

(6) ظفر الإسلام خان: تاريخ فلسطين القديم - ص 63.

(7) الأرقام التي يذكرها الكتبة في كل مكان من الأسفار، لا تستحق أن ينظر إليها الدارس. فرقم عزرا أقل من رقم نحميا: (نحميا 66/7). فعند نحميا يزيد عدد المغنين خمسة وأربعين... وسنرى تضارب الأرقام كما في سفر الخروج والإحصاءات... فهناك تناقض في المعلومات، خلط الأزمان، الغموض، تكرار الأحداث مع شخصيات مختلفة... وكل ذلك يمكن استيعابه لعمل أسطوريّ خرافيّ.

(8) بعد أن سيطر الإسكندر المقدوني على المنطقة كلها، مات (323 ق.م) قبل أن يحقق حلمه بتوحيد العالم، وصنع حضارة كونية. وبعد موته انشقت مملكته إلى قسمين: البطالمة، السلوقيين (نسبة إلى بطليموس وسلوقس). وقد سادت في فلسطين الثقافة اليونانية. وفي عهد السلوقيين (167ق.م) تمرد مكابيوس على السلوقيين (الحركة المكابية). وتمكن من إقامة حكم ديني (ثيوقراطي). وقد جمع حوله اليهود الرافضين الاندماج في الثقافة اليونانية. (راجع: قصة الحضارة لول ديورانت - م4 ج1 ص 516 وما بعد. وج2 ص 51 وما بعد).

(9) ول ديورانت: قصة الحضارة - م6 ج1 ص 195. وباركوخبا قد تكتب باركوكبا. وهناك كتاب اسمه (حرب اليهود) ألفه يوسفوس اليهودي عام 57م. وقد غير اسمه إلى فلافيوس تملقاً للروم. وهو وإن شهد قسماً من الأحداث ولكنه غير ثقة ولا يُعتمد عليه في ذكر الحقائق التاريخية.

وراجع أيضاً كتاب (تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم) لمحمد عزة دروزة ص 387- 388.

(10) الهكسوس: شعب مجهول الهوية! فمن المؤرخين من عدّهم عرباً (جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام) - ومنهم من عدهم خليطاً من الكنعانيين والآموريين. حكموا سورية وفلسطين ومصر في القرن السابع عشر قبل الميلاد. وهم الذين أدخلوا إلى مصر: الخيل، العجلات الحربية، الدروع... وفي منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد، طردهم أحمس من مصر. وفي عهد تحتمس الثالث انتهى وجودهم في سورية وفلسطين. وصارت فلسطين تابعة لمصر ولمدة أربعة قرون. (راجع كتاب مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين - الجزء الأول - القسم الأول - ص 509 وما بعد).

(11) يقول غوستاف لوبون في كتابه: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى: إن اليهود في فلسطين لم يعرفوا سوى الرعي وسوى العمل الزراعي القليل وهم لم يقدموا للحضارة شيئاً. كما أن المؤرخ اليوناني هيرودت عندما زار فلسطين في القرن الخامس قبل الميلاد، لم يذكر شيئاً عن اليهود. مما يعني أنه لم يكن لهم وجود، أو وجودهم ضئيل لا قيمة له، وبالتالي لم يثر انتباهه. (راجع كتاب: المعتقدات الكنعانية – د. خزعل الماجدي). وكان اليهود سكان جبال لتأمين الحماية لأنفسهم - كما تقول النصوص - حتى أن الآراميين كانوا يقولون عن إله الإسرائيليين: " إن الرب إنما هو إله جبال، وليس هو إله أودية ". (ملوك "1" 28/20).

وفي كلام ميخا الموجه إلى آخاب ملك إسرائيل: " رأيت كل إسرائيل مشتتين على الجبال كخراف لا راعي لها". (أيام الثاني 16/18). فماذا يقدم ساكن الجبال خوفاً من الآخرين ؟!

(12) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة - ص 276.

(13) المرجع السابق – ص283.

(14) المرجع السابق - ص 271.

(15) المرجع السابق – 278.

(16) لقد سرقوا من التراث الفارسي: الشيطان. (مزامير 108-6/109): " وليقف شيطان عن يمينه". وفي سفر زكريا (1/3): " والشيطان قائم على يمينه". وفي سفر أيوب (6/1). وكذلك الصراع بين الخير والشر، ثم انتصار الخير. وأيضاً الآخرة والحساب والعقاب...

وراجع كتاب " تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية ": ميرسيا إلياد - ج2 ص 293 وما بعد. ونهاية العالم وما يرافقها من كوارث وظواهر كله من التراث الفارسي. والبعث عند دانيال وأشعيا.. من التراث الفارسي (ص 296- المرجع السابق). وكذلك الشيطان.

(17) ول ديورانت - قصة الحضارة - م1 ج2 ص 284.

(18) هناك من يقول جمعت من نصوص آرامية ولم تكن هناك نصوص بالعبرية. ومَنْ يقول أيضاً: إنها كتبت باليونانية مباشرة ولم تكن هناك نصوص قبلها. وهو عصر التأليف الحقيقي للأسفار!! ويذكر ابن خلدون رواية الكتبة السبعين (ابن خلدون - المجلد الثاني ص 224) فهو يقول: بعد موت الإسكندر مسموماً. استلم بطليموس. وقاتل اليهود

وسبى إلى مصر كثيرين منهم. وبعد موته استلم ابنه فلديغيش. وقد طلب من سبعين حبراً يهودياً جمعهم، أن يترجموا له التوراة من اللسان العبري إلى اللسان الرومي (أي اليوناني).

ونجد في قصة الحضارة - لول ديورانت (م4 ج2 ص77)، أن حكاية السبعين عالماً الذين ترجموا كتبهم إلى اليونانية في عهد بطليموس فلدلفس، إنما هي " إحدى القصص الخرافية". وعلى كل؛ هؤلاء الكتبة كتبوا الأسفار، وتلاعبوا بها كما يشاؤون: " تزوير، غش، إضافة، حذف، تعديل...) كما يذكر د. أحمد داود وسهيل ديب وغيرهما... ونحن نرى أن ما فعلوه لم يمس جوهر ثالوث عزرا والميكافيلية والبراجماتية وهذه هي الديانة اليهودية.

(19) الموسوعة الكتابية: مادة: ترجمة.

(20) المصدر السابق.

(21) ول ديورانت - قصة الحضارة - م4 ج2 – ص 94.

(22) موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة - ص 25.

(23) سهيل ديب: التوراة تاريخها وغاياتها ص 53. وقد جاء في كتاب: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية: ميرسيا إلياد - ج2 ص 292: " إن كتاب دانيال في شكله الحالي قد أكمل حوالي 162 ق.م ووصف فيه كاتبه الأحداث المعاصرة أو الحديثة تحت شكل نبوءات معلنة قبل عدة قرون".

(24) يقول ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة - المجلد الرابع، الجزء الثاني - ص 93: " وقد كتب اليهود الهلنستيون وقتئذٍ - بالعبرية أو الآرامية أو اليونانية - روائع خالدة كأسفار الجامعة، ودانيال، وأجزاء من الأمثال، والمزامير، والجزء الأكبر من الأسفار الإبوكريفية ".

ويذكر سهيل ديب في كتابه: التوراة تاريخها وغاياتها ص 39 وما بعد... أن سفر حزقيال وضع أولاً ثم وضعت بقية الأسفار حوله. وأن أشعيا وإرميا تأثرا به.

- ويذكر المؤرخون اللاهوتيون أن المزامير كتب قسم منها 50 ق.م - والجامعة في القرن الثاني قبل الميلاد. وأمثال سليمان نشره الفيلسوف اليهودي فيلون (عاش 30 ق.م -40م). وكان يدعو للاندماج في الثقافة اليونانية كما حاول أن يوفق بين اليهودية والأفلاطونية.

* * *

الفصل الثاني:

الشخصيات الأول

تمهيد:

أسطورة الخلق والتكوين في التوراة، من تراث المنطقة، كما يقر بذلك الجميع. ولكن عندما نناقش ذلك، إنما نناقش الأفكار اليهودية المسقطة عليها.

فالأسطورة وسيلة لتؤدي وظيفة محددة، وهذا يعني عدم الاهتمام بالشكل الخارجي لها.

والسؤال: لم بقيت الأساطير القديمة كجلجامش والإلياذة والأوديسة، وكذلك شريعة حمورابي... ضمن إطار الإبداع البشري، بينما الأسطورة في التوراة تجاوزت ذلك إلى دين إلهي، استمر مع الزمن ؟!

إن ثالوث عزرا المسقط على التوراة، ربطها بالعنصرية واغتصاب أرض كنعان، أي التمييز والمنفعة. ثم فتح المجال واسعاً لتحقيق الأهداف دون النظر إلى الوسائل وسواء أكانت أخلاقية أم غير أخلاقية!

ومن جانب آخر، في الوقت الذي غابت فيه الأساطير الأصل عبر الزمن، بقيت النسخة المزورة والمسروقة وحيدة، مما أعطاها هالة أخرى إضافة إلى الهالة الدينية.

وهذا الأمر استمر إلى أن أكتشف أمر الأساطير القديمة من خلال البعثات الأثرية في العصر الحديث.

وأخيراً تمكن اليهود المسيحيون من دمج دينهم في الدين المسيحي، وبالتالي صار الكتاب المقدس عند المسيحيين مؤلفاً من العهدين: القديم والجديد. والقديم هو أسفار اليهود!

وهذا ما منح اليهودية الاستمرار لأنها صارت الأساس للديانة المسيحية ولا تنفصل عنها.

إذاً لتلك الأسباب استمر الدين اليهودي في الحياة، ولولا ذلك لاندثرت اليهودية منذ عصورها الأولى.

ونجد في عصر سيادة العقل والمنطق والعلم، من لا يمتلك العقل والمنطق، لأنه يدعو إلى التسليم المطلق تحت ذريعة الإيمان والمشاعر والأحاسيس، فالإيمان يعني التسليم، ثم البحث عن المبررات، وهنا تدخل الخزعبلات والشعوذات لتبرير ما لا يمكن تبريره!

إن البراجماتية هي السائدة، فطالما هناك منفعة، نرى كل شيء له جوابه الجاهز دون الاكتراث بالعقل أو باستغباء الآخرين!!

وإن كنا نجد العذر لمن عاش في تلك العصور، ألا يمتلك المنطق والعقلانية والقيم السليمة، نتيجة المرحلة التاريخية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشها. ولكننا حتماً لا نقبل ذلك في عصر سيادة العقل والمنطق والعلم!

* * *

1- من آدم وحتى نوح

آدم:

الشخصية الأولى في التوراة هي آدم، والذي هو أبو البشرية الأولى. (تكوين 27/1): " فخلق الله الإنسان على صورته". "صورة الله". وفي تكوين 6/9): " لأن الله على صورته عمل الإنسان".

فالإنسان آدم صورته الشكلية أو النفسية على نمط إلهي. وهذا الإنسان هو اليهودي الأول وهو ابن الله وهو الكامل!

وعزرا يرى أن النسبة إلى يهوه وحدها كافية لغفران كل الخطايا. فاليهودي جزء من الله، والله لا يستطيع أن يستغني عن جزئه. وهذه هي علاقة الجزء بالكل، الابن بالأب...

وبالتالي الوجود كله إنما كان من أجل الابن اليهودي، ولذلك له السيادة المطلقة، وهو فوق البشر!

وتبدأ أول عملية استنساخ بشري (تكوين 21/2-22-23): " فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً، وبنى الرب الضلع التي أخذها من آدم، امرأة. وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي".

ولكن ترد في (تكوين 1/5-2): " يوم خلق الله الإنسان، على مثال الله عمله. ذكراً وأنثى خلقه وباركه وسماه آدم يوم خلق".

فالآية هنا تشير إلى أن آدم وحواء خُلقا معاً بجسد واحد " ذكراً وأنثى خلقه".

ويذكر ديورانت أنه ورد في قصص فارسية وفي التلمود: " إن الله خلق في بادئ الأمر إنساناً مكوناً من ذكر وأنثى متصلين من الخلف"(1). ثم تم فصلهما!

فنحن أمام آيتين: الأولى تقول: حواء جزء من آدم، والثانية تقول: آدم خنثى!

والأولى: من أساطير المنطقة، والثانية: من أصول فارسية.

ويقول ميرساد: " وثمة أساطير مشابهة قد تأكدت تقريباً في أمكنة عديدة من العالم، بدءاً من مصر القديمة واليونان حتى الشعوب /البدائية/.

فالفكرة الأساسية تبدو نفسها: الإنسان تشكل من مادة أولية (أرض، خشب، عظم) وأنه أعطي الحياة بنفس الخالق. وفي العديد من الحالات أن شكله هو ذات شكل خالقه. وبقول آخر، كما سبق ولاحظنا في معرض أسطورة سومرية، أن الإنسان / بشكله/ و/ بحياته/ يشاطر بنوع ما شرط الخالق. ولا ينتمي إلى المادة سوى جسده. وأن خلق المرأة من ضلع استل من آدم يمكن تفسيره كدليل على خنثوية الرجل الأول"(2).

ولنمض مع الآية الأولى، والتي تعني تبعية المرأة للرجل لأنها جزء منه، بينما هو من صنع الله نفسه. ولذا فله السلطة. ومعنى هذا أن آدم ذاك لم يكن آدم الأول. لأن المجتمعات الأولى كانت السلطة فيها للمرأة الأم (المطركية). وكان الأولاد ينسبون إلى أمهم. والمجتمع كان يعتمد على المشاعية، والمرحلة مرحلة صيد والتقاط الثمار.

فآدم التوراتي ليس بالإنسان الأول، ولكنه نقطة انطلاق بدءاً من مرحلة سيادة الرجل أي انتقال المجتمع من عصر الأمومة إلى عصر الأبوة (البطريركية).

وعصر سيادة الرجل - اليهودي ابن الله - مقابل المرأة التي ليست بنت الله، إنما انتماؤها للرجل!

ومن هنا نفهم وضع المرأة المزري في الديانة اليهودية إلى درجة عدّها نجسة في حالتي الدورة الشهرية والولادة. فهي عندما تلد تصير نجسة لسبعة أيام إن ولدت ذكراً، أما إن ولدت أنثى فتبقى نجسة لمدة أسبوعين!

وهذه النظرة تعني تراجعاً عما وصلت إليه الحضارة في العصور السابقة على عصر عزرا. ومن المعروف أن وضع المرأة عند الفرس في عهد دارا، قد انحط كثيراً !!

وتأتي حكاية الحية لتكشف جانباً آخر يؤكد تلك النظرة الدونية للمرأة. فالحية تؤثر في حواء، وحواء تُغوي آدم بارتكاب المعصية فيأكلان من الشجرة المحرمة على الرغم من أوامر الله " لا تأكلا منه". (تكوين 3/3).

جاء في حاشية الكتاب المقدس: " ينبغي أن نفهم بالحية المذكورة في هذا الفصل الشيطان عينه الذي ظهر في صورة الأفعى" (3).

وسنرى فيما بعد أن موسى صنع حية من النحاس للشفاء. وقد عبدها اليهود وبقيت عبادتها حتى زمن الملك حزقيا ملك يهوذا الذي حطمها (ملوك "2" 4/18).

وفي سفر أشعيا نجد أن الحية رمز للآشوريين الذين سبوا الإسرائيليين (أشعيا 1/27).

كما أن الحية لها رمزها الجنسي عند الشعوب القديمة!

فإذا كانت الحية هي الشيطان، وقد عبدها اليهود، إذاً هم عبدوا الشيطان نفسه!!

وللمعجم اللاهوتي رؤية أخرى: " فآدم وحواء عصيا الله، لأنهما بقبولهما مشورة الحية أرادا أن " يصيرا كآلهة، عارفي الخير والشر" (5:3)، أي تبعاً للتفسير الغالب، أن يقوما مقام الله للبت في الخير والشر"(4).

وهذه الرؤية تجعلنا نسأل: هل حب المعرفة يستأهل العقاب ؟ وهل تمييز الخير من الشر هو اعتداء على حقوق الله ؟!

أم أن الكتبة يريدون من أتباعهم الاستسلام الكامل لكل ما يقال دون نقاش أو جدل، لأن الجدل ذاته شيطانيّ !؟

وهذا ما يطرحه ندرة اليازجي فهو يقول: " في التوراة إشارة إلى سقوط آدم. وسبب السقوط، كما يبدو، هو محبة المعرفة. فالشيطان يغري آدم وحواء، من خلال الحية، التي هي رمز الحكمة المبطنة بالشر، ليعرفا الله ويكونا مثله".

وهو يجد في ذلك مأساة كبرى ويتساءل هل محبة المعرفة شر وخطيئة، وبالتالي سقوط، أم هي صلاح وخير، وبالتالي ارتفاع ؟ إنها خير وليست شراً. فكيف تعتبرها التوراة شراً ؟ إن يهوه لا يريد أن يعرف أتباعه حقيقة حتى يظلوا عبيداً(5).

إن اليازجي يؤمن بالثيوصوفية والتفاسير الرمزية. ولكن آدم وحواء أكلا من الشجرة، وبالتالي من المفترض أن يكونا قد حصلا على المعرفة الإلهية. أو على جزء منها يساوي ما أكلاه!!

وهناك تحليل يرى أن الخطيئة هي العلاقة الجنسية بين آدم وحواء. فالله حذرهما منها، أو من معرفتها. فقامت الحية/ الشيطان، بشرحها لهما، فتم الاتصال الجنسي. وتمت النشوة والسعادة المادية والروحية. ولما انتهى الأمر شعرا بالخطيئة، وبالتالي سترا عورتيهما مباشرة لأنهما كانتا موضع المعصية!!

إن خطيئة مشتركة ألصقت بحواء المرأة، وهذا يعني أنها منبع الشر وكيف لا، وهي حليفة الشيطان. وبالتالي هي التي أغوت ابن الله وأوقعته في حبائلها!!

لكن المعادلة بشكلها الأعمق هي: الرب يفرض أمراً، والطرف الآخر يرفض، يتمرد، لا ينصاع... والنتيجة هي الطرد من النعيم!

إنه تمرد الأنا ضد الأنا الأعلى(6). والأنا الأعلى قد يكون قد أخذ دوره الضميري والقيمي عند الأنا /آدم/، ولكنه لم يأخذ دوره ذاك عند الأنا/ حواء/... وهي ابنة البشر!

وآدم في المستقبل هو النبي، الكاهن، الزعيم... والأمر هو الارتباط به وبالأرض الوعد. والطرف الآخر المتمرد هو الرامي ليهوه وللأرض والنتيجة الحرمان من نعيم الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً!!

وهذا الأمر سنراه على امتداد العهد القديم كله، وبأشكاله المختلفة حتى عند الشخصيات القدوة.

فآدم لم يستطع أن يحقق التوازن المطلوب بين متطلبات الجسد/ بضغط من حواء/، وبين المثل الأعلى ولنقل الانصياع للأوامر، لمتطلبات يهوه.

وسواء أكان الأمر؛ الفضول لمعرفة الحقيقة والعلم، أم العلاقة الجنسية، فالنتيجة واحدة!

والثمن هو الطرد، الانتقال من النعيم إلى الشقاء والكدح.

وهنا يختل التوازن رغم القرب المكانيّ والزمانيّ بين طرفي المعادلة الميزان.

والسؤال هل العقاب يتناسب مع عصيان آدم ؟!

نعم، لأن عزرا الذي صاغ يهوه القاسي والعنيف والذي يقتل الآلاف لخطأ صغير، جعل الارتباط بيهوه، هو ارتباط بأرض كنعان.

وبالتالي؛ كل شيء يغتفر إلا التخلي عن مشروع استعمار أرض كنعان.

لقد جعل عزرا السبب الرئيسي في إخفاقات مشروع الاستيلاء على أرض كنعان: الاندماج في الشعوب الأخرى /الوثنية/، والزواج من الوثنيات. فالمرأة الوثنية ستبعد ابن الله عن الله وعن المشروع، وبالتالي لن يتحقق النعيم. كما أبعدت حواء آدم عن النعيم الإلهي!!

فآدم ابن الله هو اليهودي، وهل غيره سيحمل رسالة الله ؟! إنه هو وحده الحامل لرسالة الله (أرض كنعان) وبالتالي هو المختار، ومن سيمشي في دربه بحمل تلك الرسالة سيكون من أبناء الله. أما المرأة وإن كانت من نسل أبناء الله فهي غير جديرة بحمل رسالة الله، ولذلك لن تكون من بنات الله، ولكن تبقى لها مهمة بيولوجية فقط وهي إنجاب أبناء الله!!

وفي الوقت نفسه آدم المثالي، لن يستطيع أن يحقق شيئاً، فهو بحاجة إلى خبث المرأة ومكرها كما في حكاية أم يعقوب!!

ولذلك لا انفصام بين ابن اللّه ودهاء المرأة وخبثها.

* * *

قايين وهابيل:

حكاية هاتين الشخصيتين تهمنا بدءاً من الوقت الذي قدم فيه هابيل الراعي قربانه لربه من أغنامه " قرباناً للرب".(تكوين 3/4).

أما قايين فقد قدم قربانه "من ثمار الأرض". فهو فلاح، مزارع.

ويتقبل الرب ذبيحة هابيل، ويرفض القربان الزراعي(7).

فتدب الغيرة والحسد في نفس قايين فيقتل أخاه " قايين قام على هابيل أخيه وقتله". (تكوين 8/4).

وهذا الأمر يوضح حقيقة صائغي الأسفار وعلى رأسهم عزرا. فاليهود رعاة رحل، ولم يعملوا في الزراعة. بينما كان سكان كنعان عملهم الأساسي هو الزراعة.

والزراعة تعني الاستقرار والاطمئنان والحضارة. واليهود كانوا في دور البداوة والتخلف، وكتعويض عن الدونية، جعلوا الزراعة عملاً خسيساً ومرفوضاً من يهوه. في الوقت الذي رفعوا فيه شأن الرعي والذي يرضى عنه يهوه ولا يبارك غيره.

فهابيل استمرار لأبيه - كصورة اللّه. والذبح والدم جزء من تلك الصورة للإنسان الإله.

وإسقاط الحقد والكراهية والحسد على الطرف الآخر، إنما ليخلق التوازن.

إن العمل الزراعي مرحلة متقدمة في تاريخ تطور المجتمعات، ورغم ذلك يعيد عزرا العجلة إلى الوراء ليمجد جماعته المتخلفة!!

ومن جانب آخر، هذا يؤكد كلامنا السابق عن آدم بأنه ليس آدم الأول.

وحكاية قايين وهابيل وردت في الأساطير القديمة. يقول محمد عجينة: " إن الأسطورة التوراتية لها أصول سومرية قديمة تؤلف بين مصدرين اثنين أو أسطورتين قديمتين اثنتين: الأولى: قصة الإله دوموزي (تموز) الإله الراعي، وأنكيدو صاحب الحقل. وفي هذه الأسطورة ينتصر الأخ المزارع. ولا يوجد فيها قتل للأخ.

والثانية: " فأسطورة طقوسية يدعو فيها قابيل أخاه للذهاب إلى الحقل مع خرفانه. فيضحي به قرباناً حتى تخصب الأرض من جديد"(8).

وهناك من يعطي تفسيراً رمزياً للأسطورة: فصراع قايين وهابيل، ما هو إلا صراع بين مرحلتي الرعي والزراعة، وانتصار الحياة الزراعية على الحياة الرعوية.

ولكن كما هو معروف، وإن جاء التطور لصالح الحياة الزراعية، لكن الرعي ما زال حتى عصرنا ولم يمت!

فالزراعة انتصرت وسادت، ولكن الرعي ما زال على قيد الحياة.

والقضية بالضبط ما يريده عزرا: رفع شأن الرعاة على شأن كنعان المزارعين. وبأن الرعاة هم أبناء اللّه، أما كنعان فهم مجرمون! والشخصيات التي قدمها ما هي إلا شخصيات رعاة متجولين يمارسون الرعي والتجارة.

وفي الوقت نفسه كان شعب كنعان وغيرهم من شعوب المنطقة قد قطعوا شوطاً كبيراً في الحضارة.

* * *

إن القبيلة الجوالة كانت تحلم بأرض كنعان أرض الاستقرار والزراعة. وكانت ترى نفسها أنها المباركة والأحق في امتلاك الأرض. ولكنها أخفقت في قتل الكنعانيين والاستيلاء على أرضهم. وهذا قتل لها ولأطماعها وجشعها. فالمزارع / كنعان/ قتل الراعي / اليهودي ابن اللّه/ وهذه سجلها عزرا كأول جريمة في الوجود!!

وكان الصراع كله بين بدو وحضر، والأرض هي المحور.

* * *

ويعوض آدم بشيث بدلاً من هابيل المقتول (تكوين 3/5): " وعاش آدم مئة وثلاثين سنة، وولد ولداً على شبهه، كصورته، ودعا اسمه شيثاً ".

فهو نسخة عن أبيه آدم، وآدم كصورة اللّه، وشيث " كصورته"، إذاً هو كصورة يهوه. ونلاحظ تأكيد عزرا: "على شبهه، كصورته"! وسنرى فيما بعد أن اليهود/ أبناء اللّه/ كلهم يولدون على صورة اللّه.

أما غيرهم وكما صورهم عزرا إنما هم أبناء البشر، أي لا يمتون ليهوه بصلة. وبالتالي تتضح العنصرية في تقسيم البشر: أبناء اللّه، أبناء البشر. وبالتالي الشعب المختار هو الشعب اليهودي لأنهم أبناء اللّه!!

وتذكر الحاشية الكاثوليكية: " بنو اللّه هم على الرأي الأعم أولاد شيث. وإنما سموا بذلك لأنهم كانوا متدينين معروفين بالعبادة مزكين بتقوى اللّه عز وجل. وأما بنات الناس فكن من ذرية قايين الفاجرة الفاسقة"(9).

والواضح من ذاك الكلام أن شيثاً ذريته ذكور فقط وهم أبناء اللّه، أما قايين /المجرم/ فذريته إناث فقط، وهي/فاجرة، فاسقة/!!

ونستغرب من عزرا لماذا لم يجعل شيثاً يخلف البنات حتى لا يضطر أبناء يهوه إلى تنجيس أنفسهم بالعلاقات الجنسية مع بنات البشر، أم الجنس نفسه نجاسة وقذارة ؟!

ومن هنا، الذكور أبناء اللّه، أما البنات فهن نسل المجرم. لأن عزرا لا يستطيع إلغاء الجنس، ولا جعل يهوه يلغيه، لأنه حقيقة موجودة. إذاً هو نجاسة تجر فيه بنتُ البشر ابنَ اللّه إلى شر لا بد منه لاستمرار الوجود والحياة.

وهكذا تبدأ العلاقات الجنسية بين أبناء اللّه وبين بنات البشر/ الناس. فاللّه له البنون/ أبناء اللّه/. وليس له بنات/ بنات البشر.

جاء في (تكوين 2/6): " إن أبناء اللّه رأوا بنات الناس أنهن حسنات (حسناوات). فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا ".

وفي تكوين (4/6): " إذ دخل بنو اللّه على بنات الناس".

فالأنا اليهودية - كما طرحها عزرا - تندمج في الأنا الأعلى/ أبناء اللّه وأحباؤه/. ولكن متطلبات " الهو"، الحاجة الجنسية، تدفع بالأنا نحو بنات الأرض/ الناس، البشر، الذرية الفاجرة والفاسقة كما تسميهم الحاشية الكاثوليكية!!

إن عزرا حدد دور المرأة في كتابه المقدس بدءاً من حواء، ولكنه لم يستطع تبرير العلاقة الجنسية كعمل منحط كما يراه.

لقد صرخ عزرا كالمجنون من جر ابنة الأرض إليها ابنَ الله. وكان ضد الاختلاط والاندماج حتى لا يختلط " النسل الطاهر بأمم الأرض". (عزرا 2/9).

* * *

إذاً ما أسقطه عزرا حتى الآن:

1- الابن هو اليهودي وهو على صورة أبيه يهوه.

2- الأغيار / الغوييم/ الناس، البشر، الآخرون... هم في مرتبة أدنى.

3- اليهود الرعاة هم أحباء الله وهم المباركون.

4- أهل كنعان مجرمون وظالمون لأنهم أصحاب الأرض!

5- كون البشرية من مصدر واحد، لا يعني ذلك أنهم كلهم أبناء الله. فالبنوة اختيار. ويهوه وحده هو الذي يحدد من يريد ومن لا يريد وبمزاجية مطلقة. ولكنه لن يختار سوى اليهود ولن يبارك سوى اليهود!

6- أول مجرم وقاتل في الوجود هو كنعان/ قايين. وقد قتل ابن الله. ولذلك دمه مهدور! ولعل جذر الكلمتين واحد!

* * *

نوح:

بعد مرور أجيال، وكل جيل يعيش لمئات السنين(10). نصل إلى نوح والذي تصفه التوراة بالرجل البار: " كان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله. وسار نوح مع الله". (تكوين 9/6).

وقد وجد نوح " نعمة في عيني الرب". (تكوين 8/6).

ولأن الآخرين هم مصدر الإثم والضلال - كما يرى عزرا - لذلك عمّ الفساد نتيجة اختلاط أبناء الله ببنات البشر، ولو حافظوا على العزلة والتقوقع لما حدث ما يؤلم يهوه: "حزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه". (تكوين 6/6).

ودفعه حزنه وندمه إلى أن يغرق الأرض بالطوفان لأنه: " فسدت الأرض أمام الله، وامتلأت الأرض ظلماً ". (تكون 11/6).

ولكنه أقام عهداً مع نوح: " أقيم عهدي معك". (تكوين 18/6).

والعهد هو ألا يغرقه، بل ينجيه مع أهله والحيوانات. وعلمه صنع السفينة.(11)

يقول ديورانت: " كتب الشعراء - السومريون - قصصاً عن بداية الخلق، وعن جنة بدائية، وعن طوفان مروع غمر هذه الجنة وخربها عقاباً لأهلها على ذنب ارتكبه أحد ملوكهم الأقدمين. وتناقل البابليون والعبرانيون قصة هذا الطوفان"(12).

يقولون: إن الطوفان حدث في بلاد ما بين النهرين فقط. ولم يتحدث أحد عنه في سورية أو فلسطين أو مصر...

إلا أن عزرا جعل الطوفان يعم العالم كله. فإذا كان الفاسدون كما يراهم عزرا في بقعة محددة، فلم عمم الطوفان ؟!
أوليس هذا يعني أن عزرا حدد حركة الوجود كله من خلال أفقه الضيق الذي يجعله يتجاهل كل ما هو خارج الدائرة اليهودية ؟!
فاليهود هم المحور ولا قيمة للآخرين. وبالتالي يريد أن يؤرخ لحياة جديدة تبدأ مع آدم الثاني (نوح). والذي عنه ستنبثق البشرية من جديد، ووفق معاييره العنصرية.
إذاً يحدث الطوفان، ويغرق العالم، ثم ينتهي كل شيء. وينزل نوح وأهله وحيواناته من السفينة. ويبني مذبحاً للرب.(13)
ويندم الرب على إغراقه العالم: " فتنسم الرب رائحة الرضا. وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان. لأن تصوّر قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضاً أميت كل حيّ كما فعلت". (تكوين 21/8). ثم بارك نوحاً وبنيه (تكوين 1/9). فيهوه ندم على ما فعله وقرر ألا يفعل ذلك ثانية وأقام على ذاك التوجه عهده مع نوح وبنيه (تكوين 9/9): " وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم...".
وجعل قوس قزح أداة تذكير، وعلامة للميثاق (تكوين 16/9): " فمتى كانت القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين اللّه وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض".
وقوس قزح يعني التذكير بالأمطار والعواصف والفيضانات وكأنما هو أداة تهديد وتخويف. ومن جهة أخرى أداة تبشير بالخير...

* * *

ومن أبناء نوح تناسلت البشرية، فهو الأصل وهو آدم البشرية الحقيقي كما يرى عزرا.
" وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافث. وحام هو أبو كنعان". (تكوين 18/9).
والغريب هو ذكر كنعان (وحده) بن حام في الآية. وهذه الخصوصية تعكس اللاشعور(14) عند الكتبة ولا سيما عزرا. لأن كنعان هو الطرف المعني تماماً. وبالتالي يجب تحطيمه، تهميشه، تشويهه... لأنه يقاوم رغبة اليهود في الاستيلاء على أرضه!
فالصفحة الجديدة في حياة البشرية - توراتياً - من بعد الطوفان تبدأ بتسليط الضوء على حام أبي كنعان.
" وابتدأ نوح يحرث الأرض وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه. فرأى حام أبو كنعان سوءة (عورة) أبيه. فأخبر أخويه وهما خارجاً. فأخذ سام ويافث رداء وجعلاه على منكبيهما ومشيا مستدبرين فغطيا سوءة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء، وسوءة أبيهما لم يرياها. فلما أفاق نوح من خمره علم ما صنع به ابنه الصغير. فقال: ملعون كنعان عبداً يكون لعبيد إخوته وقال تبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبداً له. ليرحب اللّه ليافث يسكن في أخبية سام ويكون كنعان عبداً له". (تكوين 20/9-28).
إذاً بدأت الحملة الشنيعة على كنعان / شعب فلسطين/. فرؤية حام لعورة أبيه، تنزل اللعنة على ابنه " ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته".

إن حاماً هو الذي رأى عورة أبيه نوح وأخبر أخويه، بينما نوح يلعن ابن حام!

والمفترض - إن أراد اللعن - أن يلعن حاماً الأب صاحب العلاقة. أم هو استيقظ وما زالت آثار الخمرة تدور في رأسه ؟!

والسؤال كيف يلعن شعباً - توراتياً - لم يظهر إلى الوجود بعد ؟!

أهو التنبؤ بالمستقبل، أم إسقاط الحاضر - حاضر عزرا والكتبة - على الماضي السحيق؟!

ومن البديهي للقارئ أن يدرك أن عزرا والكتبة كان هدفهم الاستيلاء على أرض كنعان، فأسقطوا الفكرة على النصوص كلها! وتلك اللعنة تتناقض مع ما ورد " وكان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله. وسار نوح مع اللّه".

وتتناقض مع الشريعة اليهودية نفسها فقد جاء في (تثنية 16/24): " لا تقتل الآباء بالبنين ولا تقتل البنون بالآباء. بل كل امرئ بذنبه يقتل".

فكيف يكون نوح باراً وكاملاً في الوقت الذي يعاقب فيه كنعان وهو بريء لا ذنب له ؟!

وكان على عزرا - لو كان ذكياً - أن يجعل كنعان هو الذي رأى العورة، لتصح لعنة نوح!

وقد انتبه المؤرخ اليعقوبي إلى الأمر فذكر أن نوحاً دعا على كنعان ولم يدع على حام نفسه(15). ولكن اليعقوبي لم يسأل ولم يجب عن سبب لعن كنعان بالذات!

إن المؤرخين العرب القدماء ساروا في ركاب التوراة. يقول خزعل الماجدي: " وحذت كتب التراث العربية حذو التوراة فحقرت الكنعانيين"(16).

حتى ابن خلدون تبنى لعنة التوراة إلا أنه رفض نظرية نسبة اللون: " ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد. وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيداً لولد إخوته لا غير. وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة من طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات"(17).

وهو يرد على الادعاء بأن النسل الإفريقي يعود إلى حام: " وليست هذه الأسماء لهم من أجل انتسابهم إلى آدمي أسود لا حام ولا غيره"(18).

ويستنتج: " وما أداهم إلى هذا الغلط إلا اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالأنساب فقط، وليس كذلك"(19).

إذاً لم يسأل أحد عن مغزى اللعنة من الرجل الكامل!

إن اللعنة لا تعكس مجرد الغضب، إنما تفضح العدوانية المكبوتة في أعماق عزرا والكتبة تجاه شعب كنعان.

وبما أن نوحاً هو صورة عن اللّه، إذاً اللعنة هي لعنة اللّه نفسه! وبالتالي أُخرج كنعان من شعب اللّه ليصير من الناس الأغيار بل عبداً، ومن ثم طرد ليكون في الساحل الإفريقي كعبد أسود!

وكأنما السواد عقوبة ذليلة. وهذه نظرة عنصرية بغيضة تنسب إلى اللّه وهو الخالق للبشرية كلها!

إن شخصية نوح تحمل التناقض الصارخ بين ادعاء الكمال والبر، وبين اللعنة الأبدية الجائرة على كنعان ونسله، رغم براءتهم من فعل الأب.

فكيف تحمل الأجيال وزر خطيئة الأب، بينما الأب نفسه لا يحمل أي وزر والمفترض أخلاقياً وكمالاً أن يعاقب الأب وحده لأنه صاحب الذنب.

ألم يقل إرميا: " كل واحد يموت بذنبه. كل إنسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه" (إرميا 30/31).

ثم ما تلك الجريمة الشنعاء التي تستوجب العقاب الأبدي بالطرد والحرمان والعبودية ؟!

فهل العقاب - حتى لو كان على صاحب الجرم - يتناسب مع الذنب من الناحية القانونية والأخلاقية والعدل الإلهي؟!

نعم العدل الإلهي، لأن النص - كما يدعي عزرا والكتبة - نص ديني يشرع باسم الله المطلق!

وتلك الشخصية الكاملة والبارة، رؤيتها قاصرة ومحدودة لأن انفعالها أنساها الحقيقة!

فعلى مَنْ انصب غضبها ولعنتها ؟ أوليس حام ابنه، من لحمه ودمه. فأين مصداقية الأبوة ؟!

أين الحنان، الحب، الرأفة، التسامح... أين ؟!

لا يمكن لأب كامل أن يلعن ابنه، وأن يتبرأ منه إلى الأبد، وأن ينتقم منه فوق كل هذا بجعله عبداً لإخوته...

أوليس عقاب كنعان موازياً لعقاب الشيطان، بل عقاب كنعان أقسى وأشد ؟!

فالشيطان ملعون ومحروم من النعيم الإلهي، ولكنه حر طليق اليدين. أما كنعان فهو يشارك الشيطان في اللعنة والحرمان من النعيم الإلهي، ولكنه ليس حراً بل هو عبد لإخوته السادة!!

هذه الرؤية الحادة والمبالغ فيها لا تعبر إلا عن الحقد والكراهية والعدوانية تجاه شعب كنعان، الذي قاوم الغزاة اليهود، ورفض أن يستسلم، وأن يعطيهم أرضه!!

ونسأل المؤمنين بالنص: هل رؤية العورة تسبب اللعنة الأبدية، بينما عبادة اليهود للأوثان والزنى واللواط... وإدارة القفا ليهوه لا يستوجب اللعنة ؟!

ألم يعترف عزرا في سفره (7/9): " منذ أيام آبائنا، نحن في إثم عظيم إلى هذا اليوم".

ورغم ذلك يعفو يهوه عن شعبه المدلل والمحبوب مهما ارتكب من جرائم!

إنها عنصرية الإله والدين كما رسمهما عزرا والكتبة!

* * *

وبما أن نوحاً هو آدم الثاني - التوراتي - ، فلا بد من تصنيف البشرية وسلالاتها في العالم!

والتصنيف مُعد وجاهز، فهناك أخيار وأشرار. فالأخيار نسل سام ويافث. أما الأشرار فهم نسل كنعان!

والأمر بات واضحاً، فقد ركبت القضية لإزاحة كنعان عن أرض فلسطين وبإرادة إلهية!

وبما أن كنعان لم يقبل أن يكون عبداً لإخوته كما أراده عزرا والكتبة أو يهوه، وكونه لم يقبل بالنزوح إلى إفريقيا. إذاً هو مجرد من حقوقه الإنسانية، ودمه مباح ومهدور. وما على الطامعين في أرض كنعان سوى قتله تنفيذاً لحكم يهوه!

إن تصنيف عزرا للسلالات هدفه جعل أبناء سام مقدسين، وما إدخال الآشوريين والفرس ضمن دائرة سام إلا بهدف إدخال المتهودين ضمن دائرة القداسة.

وما أسماء السلالات إلا أسماء أعلام لمدن أو شعوب المنطقة.(20)

أما كنعان الموجود أصلاً في فلسطين وهو الملعون والعبد المتمرد، فما عليه إلا أن يجهز أرض فلسطين من سكن وبناء وزراعة... لتصير لنسل إبراهيم فيما بعد. حيث عدَّ عزرا إبراهيمَ رأسَ سلالة اليهود!

إنه ليس التنبؤ بالمستقبل، ولكنه النكوص إلى الوراء لتحميله تطلعات عزرا والكتبة الاستعمارية، وتصوير الأمر وكأنه أزلي ومرافق للخليقة الأولى وبتوجيه من يهوه، وتحقيقاً لأمنيته وإرادته!!

* * *

إن الكنعانيين هم أنفسهم الفينيقيون، ولكن أطلق اسم الفينيقيين على سكان الساحل السوري، واسم كنعان على القسم الجنوبي.

وكلمة كنعان: " ليست مصطلحاً توراتياً كما يتصور البعض بل هي تسمية قائمة قبل تحرير أسفار التوراة، وقبل التاريخ المفترض لدخول الإسرائيليين إلى كنعان"(21).

فعزرا والكتبة اختلقوا حكاية كنعان / ابن حام/، ومباركة يهوه للبشرية كلها إلا كنعان / شعب فلسطين/، من منطلق عنصري استعماري وعلى الرغم من ذلك تبنى الغرب الاستعماري وجهة نظر عزرا وكذلك شجرة الأنساب بل واللغات!!

والغرب يعرف تماماً أن عزرا أسقط على الأسماء، أفكاره بحيث تكون جماعة اليهود هي محور الوجود كله، بل ومن أجلهم كان الوجود وما عداهم تكملة عدد، أو ليكونوا خدماً وعبيداً لهم. هم يعلمون ذلك ويدعون العلمنة، وعلى الرغم من ذلك تبنوا وجهة نظر عزرا لأنها تخدم أهدافهم الاستعمارية!

* * *

إن شخصية نوح ليس الهدف منها سوى أن تكون آدم الثاني الذي عنه ستنبثق البشرية كلها - ومن منظور يهودي - ومن خلال أولاده الثلاثة: سام، يافث، حام.

والإرهاصات الأولى للمشروع الاستعماري، أُسقطت على الشخصيات الأولى في الوجود البشري التوراتي. وهي تمهد الطريق للخطوات اللاحقة والقادمة.

وما تلك السلالات إلا خرافات عنصرية لفرز البشرية إلى قسمين الأخيار والأشرار؛ الأخيار هم البشرية كلها، أما الأشرار فهم كنعان!! ولفرز أبناء اللّه/اليهود/ عن البشرية جمعاء!

* * *

2- من إبراهيم وحتى يوسف:

1- إبراهيم:

هو رأس الآباء، وأبو الأمم في نظر التوراة. وإليه ينسب عزرا أصل اليهود. وإلى سام الأصل الساميّ.

وتروي التوراة نسبه في (تكوين 11/11 وما بعد..). والمؤرخون العرب ساروا في فلك تلك السلالة(22). ومع أن ابن خلدون فعل ذلك إلا أنه يبدي شكه: " بأسماء أعجمية لا فائدة في نقلها لقلة الوثوق بالأصول التي بأيدينا من كتبه وكثرة التغيير في الأسماء الأعجمية "(23).

إن إبراهيم آرامي كما تقول التوراة (تثنية 5/26): " إبراهيم كان آرامياً تائهاً ".

ويقول مصطفى مراد الدباغ: " وأما القول بأنه (آرامي) فوهم". ويرجح بأنه أموري من العرب السوريين الذين حكموا العراق(24).

ومحمد عزة دروزة يضع ثلاثة احتمالات:

1- كلداني (لأنه من أور كلدان بحسب النص التوراتي).

2- آرامي.

3- أموري.

ويصل إلى نتيجة: " وعلى كل فإبراهيم من الجنس العربي الذي يسميه المستشرقون ومن يتابعهم من كتاب العرب خطأ الجنس الساميّ. سواء أكان كلدانياً أم أمورياً أم آرامياً. لأن الشعوب الثلاثة هي من هذا الجنس على ما يقرره الباحثون بدون خلاف"(25).

فإبراهيم ليس يهودياً ولا نسله. وباعتراف النص التوراتي. وقد جاءت اليهودية فيما بعد.

وهو كمدلول مسقط، المتلقي للوعد بالأرض، والأب للشعب المختار. والأبوة هذه تعويض لا شعوري عن المكبوتات.

فمحاولات اليهود اللاهثة لامتلاك أرض كنعان دون جدوى، وجدت في الأب الحلم الذي يتلقاه عن الأب الأكبر / الحنون يهوه/ فهو أي يهوه ما هو إلا الأب الذي يلجأ إليه اليهود ليحقق أمانيهم عبر أبيهم المباشر إبراهيم. فالآباء الأوائل هم صلة الوصل بينهم وبين الأرض وبين الأب الأكبر. وفي الواقع هو وهم أفرغ الشحنة الثقيلة من أعماقهم، فأشعرتهم بشيء من الاطمئنان والراحة النفسية بالتزام يهوه بوعده إن عاجلاً أو آجلاً(26).

* * *

ولد إبراهيم في عهد نمرود الذي كان ملكاً على: " بابل وآرك وأكد وكلنة في أرض شنعار". (تكوين 10/10).

وشنعار هي العراق والتي منها: "خرج أشور وبنى نينوى". (تكوين 11/10).

وفي البدء كان اسم إبراهيم أبرام: " وولد أبرام". (تكوين 26/11).

وكانت عائلته في أور الكلدانية. وفي التكوين (28/11) إشارة إلى ذلك: " ومات هاران قبل تارح أبيه في أرض ميلاده في أور الكلدانيين"(27).

وعندما كبر إبراهيم تزوج ساراي (سارة). كما أن أخاه ناحور تزوج ملكة ابنة أخيه هاران.

ويقرر الأب تارح الذهاب إلى أرض كنعان (تكوين 31/11). فيأخذ معه أبرام ابنه، وزوجة ابنه، ولوطاً ابن ابنه هاران (لأن هاران قد مات).

" فخرجوا جميعاً (معاً) من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. فجاءوا إلى حاران وأقاموا هناك". (تكوين 31/11).

ومات الأب تارح في حاران دون أن يحقق قراره بالذهاب إلى أرض كنعان فيتابع إبراهيم تنفيذ قرار أبيه!

إن حاران تبعد ستمئة ميل شماليّ غرب أور، وهي على بليخ أحد روافد الفرات.(28)

فكيف يكون الاتجاه نحو أرض كنعان بالتوجه شمالاً كل تلك المسافة ؟!

إن طريق كنعان يكون بالسير غرباً مباشرة. وهذا يعني أنها حركة عائلة بدوية رعوية على امتداد نهر الفرات!

والذي يبدو أن تارح الأب لم يكن ينوي الذهاب أصلاً إلى كنعان، فقد حط رحاله في حاران واستقر حتى مات!

ولو كان ينوي الذهاب إلى كنعان لتوجه غرباً كما قلنا لا شمالاً، لأن المسافة أقرب بكثير!

والقارئ لأطلس التوراة، يجد أن أبرام ينطلق من حاران غرباً ثم يسير محاذياً لنهر العاصي وباتجاه الجنوب وحتى لبنان ثم يتابع نحو فلسطين فمصر. ومن ثمّ يعود إلى سيناء ويتابع شمالاً!!

أوليس هذا المسار كمن يرسم خطاً ؟!

فهذا المسار هو مسار مسّاحٍ يخط الحدود الفاصلة للهدف المنشود! فالحركة الرعوية لإبراهيم تتضمن في طياتها مشروع الدولة التي كان يحلم بها عزرا والكتبة، إنها الحدود " من النيل إلى النهر الكبير الفرات".

ويخاطب الرب أبرام بعد وفاة أبيه تارح: " اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك". (تكوين 1/12).

الموجودون في حاران ثلاثة أشخاص: أبرام وزوجته ساراي ولوط. وحاران ليست مضارب العشيرة وليست أرضهم. فالعشيرة في أور إلا إن عدت التوراة أرض العشيرة على امتداد الفرات كله، وهذا ضمن مشروع عزرا الاستعماري!

إذاً تتحول رغبة الأب بالذهاب إلى كنعان، إلى رغبة إبراهيم. وتصير الرغبة قراراً إلهياً يأمر الله إبراهيم بتنفيذه!

وتتابع التوراة في (تكوين 2/12): " فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة". " وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض". (تكوين 3/12).

وتبدأ رحلة الثلاثة ومعهم عبيد ومقتنيات كثيرة،" وكان الكنعانيون حينئذٍ في الأرض". (تكوين 6/12).

ولكن: " ظهر الرب لأبرام وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض. فبنى مذبحاً للرب الذي ظهر له". (تكوين 7/12).

الوعد لا يبرر الخروج من حاران. وكما أن الفكرة لم تكن موجودة وهم في أور، كذلك الأمر هنا!

فالباعث هو الحركة الدائمة لبدو رحل يعتمدون على الرعي والتجارة. ولم ينجح عزرا في إسقاط الأرض الوعد على الحركة البدوية. وتاه في تحميل الوعد للأب ثم للابن!

إن يهوه يعرض الأرض على إبراهيم كرشوة للارتباط به، ثم أتم الرشوة بجعله الأفضل هو ونسله.

فطرفا المعادلة: يهوه - الإنسان المميز + الأرض.

وهذا هو ثالوث عزرا الذي يسري في الأسفار كلها!

لم يطرد أحد إبراهيم من أور، ولا من حاران. فلماذا لم يستقر إن كان قد نوى حط الرحال نهائياً، والتحول من البداوة إلى الحضر؟!

الاستقرار يعني البحث عن الاطمئنان والراحة والهدوء والأمن... ولم يكن إبراهيم ينشد الاستقرار.

فإسقاط التحول الفجائي، والتفكير في تغيير النمط الحياتي مع توفر الظروف المتاحة، وعدم تطبيق ذلك، يدل على أن إبراهيم ليس بذاك الشخص المعني بالأرض!

فالوعد /الحلم/، بسلب ما للآخرين له ولنسله من بعده، مُسقط عليه!

إن أبرام صار المعادل الموضوعي لحلم عزرا والكتبة، كما صار الامتداد الزمني لوهم اكتساب الشرعية!

ولكن الأسرة الصغيرة ليس بوسعها تحقيق الحلم. لذلك لا بد من زيادة العدد وسيأتي هذا فيما بعد.

وحتى يتحقق ذلك لا بد من المسكنة لدرجة الذل. وهذا يعني إخفاء النوايا، والاعتماد على المكر والاحتيال والخداع والكذب... واستغباء الآخرين. والسعي الحثيث للكسب والأخذ ولكن دون عطاء، دون مقابل.

إن مرور إبراهيم في فلسطين لم يزد على نصب خيمة بين بيت إيل وعاي، وإقامة مذبح للرب، ثم ارتحل إلى مصر (تكوين 8/12). وسبب الرحيل كما ترى التوراة هو القحط: " وكان جوع في الأرض فهبط أبرام إلى مصر لينزل هناك إذا اشتد الجوع في الأرض". (تكوين 10/12).

ولأن امرأته جميلة، وخاف على نفسه من القتل، ادعى بأنها أخته (تكوين 13/12): " فقولي إنك أختي حتى يُحسن إليّ بسببك وتحيا نفسي من أجلك"(29).

فهل الخوف هو الدافع، أم الطمع في المال ؟!

لقد كذب وقدم امرأته إلى فرعون متخلياً عن شرفه وكرامته(30). فالنص يقول: الخير أولاً أي المال، ثم الحياة ثانياً، أي المال هو الدافع الأول.

لقد حصل على مبتغاه "غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال". (تكوين 16/12).

ويستغرب المرء من جمال امرأته الفاتن وهي عجوز عاقر كما تقول التوراة وإبراهيم عمره خمسة وسبعون عاماً!

ويدافع ديورانت عن جمال اليهوديات متأثراً بالتوراة فيقول: " أما نساؤهم - وهن من أجمل نساء الأمم القديمة "(31).

إن الحكاية لا تصدق، كما أن مجيئه إلى مصر نتيجة القحط غير مقنع. لأن القحط لا يدفعه هو ومواشيه نحو الصحراء وعبورها، إنما يدفعه نحو أقرب الأنهار إليه والغنية شواطئها بالكلأ. فرحلته إما كمسّاح حركته أصابع عزرا ليخط الحدود، أو كطبيعة لبدوي رحالة يتاجر بالمواشي (الإبل والبقر والغنم)، أو كغجريّ له أعمال مختلفة.

إن عزرا أراد أن يزرع في عقل اليهودي البراجماتية؛ فالمصلحة والمنفعة فوق الأخلاق. ولا شيء يجب أن يكون عائقاً أمام المنفعة. وهنا تدخل الميكافيلية لتتلاحم مع البراجماتية.

كل شيء مباح لليهود، وكيف لا وأولئك الآباء هم المثل والقدوة.

يقول جورجي كنعان: " وهذه القصص التي تنطوي على إيحاء ضمني بإباحة استخدام الزوجة اتقاء لضر متوهم، أو ابتغاء لكسب مرجو، قد أفسحت أمام اليهود، منذ أقدم العصور، مجالاً فريداً لتطبيق القاعدة اللا أخلاقية: الغاية تبرر الواسطة أياً كانت الغاية وكيفما كانت الواسطة. وكأن كتاب العهد القديم، ما خلعوا على أنبيائهم وملوكهم، أبشع الصور وأقذرها، إلا ليبيحوا لأنفسهم، ولأتباعهم من بعدهم، ارتكاب المعاصي والرذائل والاستخفاف بالقيم والأخلاق، في سبيل الوصول إلى غاياتهم.

وإذا كان القدوة قذراً سافلاً، فلا لوم على المقتدي أن يكون كذلك. وكأنهم قصدوا من تدوين هذه الحوادث المنكرة في أسفارهم المقدسة، أن يتركوا دروساً أخلاقية للأجيال اليهودية، ممهورة بتواقيع مقدسة. في مقدمتها توقيع رب الجنود " يهوه". وإلى جوار تواقيع الآباء الأولين الكبار لبني إسرائيل وهم في عرفهم إبراهيم وإسحق ويعقوب"(32).

وإضافة إلى الكذب والاحتيال، نجد الاستخفاف بعقول الآخرين! فالرب يعاقب فرعون على فعلته (تكوين 17/12).

ويسأل فرعونُ - مستغرباً - إبراهيمَ: لِمَ لَمْ تخبرني بأنها امرأتك "حتى أخذتها لتكون لي زوجتي. والآن هي ذه امرأتك خذها وانصرف (اذهب، امض)". (تكوين 19/12).

وهكذا صار أبرام غنياً جداً " وكان أبرام غنياً جداً في المواشي والفضة والذهب". (تكوين 2/13).

وهل كل هذه الثروات لعلاقة عابرة مع فرعون؟! وهل ساراي وحدها كافية لجلب تلك الخيرات؟!

التوراة لا تخبرنا غير ذلك، كما أنها لم تخبرنا عن لوط فهو الآخر صارت لديه ممتلكات من مواشٍ وعبيد!

وسيكرر إبراهيم فعلته ثانية مع ملك جيرار فيما بعد.

وهكذا يعود إبراهيم وزوجته ولوط إلى أرض كنعان.

وبسبب كثرة الممتلكات يقرر أبرام إبعاد لوط عنه، إبعاد ابن أخيه المرافق له في كل رحلاته بدءاً من أور. وكان يسميه بالأخ!!

وقد جاء هذا عقب مشاحنات وقعت بين رعاة مواشي الطرفين. ولكيلا يقع نزاع بين عبيد كل منهما. وحتى لا تختلط الممتلكات... ولكن هذه الصورة التي تقدمها التوراة، يتضح زيفها فيما بعد. فالسبب الحقيقي هو إخراج لوط من دائرة القداسة المحصورة في إبراهيم ونسله. وبناء على ذلك يطلب إبراهيم من لوط أن يختار منطقة ليذهب إليها: " إن ذهبت شمالاً فأنا يميناً، وإن يميناً فأنا شمالاً ". (تكوين 9/13).

فيختار لوط لنفسه دائرة الأردن، ويرتحل شرقاً. (تكوين 11/13). ويبقى إبراهيم في أرض كنعان.

إن السيناريو المعد مسبقاً يقتضي حتمية ذهاب لوط إلى الشرق (الأردن) ولو كان التخيير حقيقياً واختار لوط أرض كنعان، فماذا ستكون النتيجة ؟! ضياع الوعد الإلهي، وهو - بحسب النص - جاء من أجل أرض كنعان.

إذاً التخيير لا معنى له. وهذه النقطة وغيرها من نقاط عديدة كلعنة كنعان بدلاً من حام، قد تشير إلى وجود نص أصلي، أدخل عليه عزرا مفاهيمه، لكنه لم يُعد الصياغة حتى لا تكون هناك ثغرات بين النص الأصلي وبين إسقاطاته. ولو كان ذكياً هو والكتبة لفعلوا ذلك!!

وما إن انفصل لوط عن إبراهيم حتى خاطب الرب إبراهيم: " انظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الأرض التي أنت ترى، لك أعطيها ولنسلك من بعدك". (تكوين 13/14-15).

كم دونماً تستطيع عينا إبراهيم أن تريا، وإلى أي مدى؟!

إنه لن يرى بعينيه أرض كنعان كلها، ولا زرقاء اليمامة في عصرها!!

ولكنه عزرا! ولم يكتف بذلك بل ومن النيل وإلى الفرات!

لقد طرد إبراهيم ابن أخيه واستفرد بالمكان وقرره له ولنسله من بعده " وإلى الأبد" ودون أية مشاركة من أحد.

ونصب إبراهيم خيامه عند بلوطات ممرا التي في حبرون (الخليل أو قربها). وبنى مذبحاً للرب. (تكوين 13/18).

ويبرز إبراهيم كبطل معارك إلى جانب عبيده الثلاثمئة والثمانية عشر، ضد الملوك الأربعة الذين هاجموا منطقة ابن أخيه وأخذوه أسيراً كغيره من السبي.

ويتمكن إبراهيم من هزيمتهم واسترجاع الأموال والسبي: " واسترجع كل الأملاك ولوطاً أخاه أيضاً وأملاكه والنساء أيضاً والشعب". (تكوين 14/16).

وما هذه إلا صورة عن إغارات البدو على بعضهم بعضاً(33).

وقد استضافه ملك شليم (شاليم - أورشليم) واسمه ملكي صادق (ملكيصادق)، وقدم له الخبز والخمر وباركه: " مبارك أبرام من الله العلي، مالك السماوات والأرض. ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك إلى يديك. وأعطاه العشر من كل شيء". (تكوين 14/19-20).

لقد كان ملكيصادق " كاهناً لله العلي". (تكوين 14/18). والكاهن هو العالم /الحبر/ رجل الدين. فهو الملك والكاهن. وقد كان موحداً أكثر من إبراهيم!

وقد تم اللقاء بين إبراهيم وملكيصادق أمام " إيل عيليون" أي الإله العليّ، كما يقول معجم اللاهوت الكتابي ويتابع: " وهذا الإله هو الإله الذي تعبده الأسباط السامية منذ القدم، ويعتبره ملكيصادق بمثابة الإله الأعلى. على أقل تقدير، بينما يعتبره إبراهيم الإله الأوحد. في هذا اللقاء، يلعب ملكيصادق الدور الرئيسي، رغم أنه كاهن لا ينتمي إلى الشعب العبراني، وأمامه يحتل إبراهيم العبراني، وأصل الكهنوت اللاوي، منزلة أدنى. سيحاول المفسرون الربانيون أن يتجاهلوه بينما المفسرون المسيحيون يذكرونه"(34).

إذاً ملكيصادق عرف التوحيد وكذا شعبه. فلِمَ يعطي اللهُ إبراهيمَ أرض كنعان ؟!

اليهود يقولون: مزاجية الله. واللاهوتيون يقولون: لأنهم وثنيون. والواضح أن رب ملكيصادق هو الحقيقي، أما رب إبراهيم فهو الكاذب وما هو إلا عزرا!

إن القضية ليست قضية إيمان ووثنية، إنها قضية حب الذات والجشع والاعتداء على أرض الآخرين. فملكيصادق صاحب إبراهيم كان موحداً وباعتراف النص. وله شريعة وقوانين...

يقول سبينوزا: " والحقيقة أن الله لم يعط إبراهيم أية شعائر خاصة به، ومع ذلك جاء في الكتاب (التكوين 5/26) أن إبراهيم قد عبد الله وعمل بوصاياه ونظمه وقوانينه، ولا شك أن المقصود هنا أن هذه الشعائر كانت النظم والوصايا والقوانين التي وضعها الملك ملكيصادق"(35).

وستأتي حكاية موحد آخر في عهد موسى واسمه بلعام والذي كانت دعواته مستجابة كما تقول التوراة ومن أقواله: " ليس الله إنساناً فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم. هل يقول ولا يفعل أو يتكلم ولا يفي". (العدد 19/23).

أوليس هذا نقداً لمفهوم اليهود لله ؟!

فالمنطقة لم تكن وثنية كما ادعى اللاهوتيون العنصريون لتبرير جرائم الغزاة.والجوهر هو الطمع في أرض كنعان، ثم تأتي الميكافيلية والذرائعية لتحوكا الأكاذيب والدجل والشعوذات.

* * *

بعد تلك المعركة التي خاضها إبراهيم شعر بقوته، ولكن قلقاً سيطر عليه من المستقبل: " بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى أبرام في الرؤيا قائلاً: لا تخف يا أبرام أنا ترس لك". (تكوين 1/15). وهذه الجملة " أنا ترس لك" ستتكرر مع الشخصيات لأنها تمنح صاحبها الاطمئنان والراحة.

وإبراهيم غني وقوي، ولكن المستقبل ضبابيّ لذلك لابد من أرض يستقر عليها، ولا بد من وريث للممتلكات ولحمل الاسم(36).

وبما أن امرأته عاقر، وهو عجوز، تبدأ حكاية الحمل!

فزوجته ساراي تقدم له جاريتها المصرية هاجر والتي أهداها إياها فرعون، ليدخل عليها(37).

وتحمل هاجر، ويدب الكبرياء فيها و" صغرت مولاتها في عينيها". (تكوين 4/16).

وتشتكي ساراي انكسارها إلى إبراهيم، فيدع لها الخيار في التعامل مع صلف هاجر. فتبدأ ساراي باضطهاد هاجر وإذلالها.

وتضيق على هاجر دائرة المشقة والمهانة فتهرب. ولكن ملاك الرب يعترض طريقها ويأمرها بالعودة والخضوع لسيدتها (تكوين 7/16-8-9). وذلك مقابل وعده لها بأن تلد صبياً وتسميه إسماعيل، وبأن نسله سيكون كثيراً.

وتطلق هاجر على المكان هذا اسم " إيل رئي". (تكوين 13/16).(38).

وتبدأ وعود الله لإبراهيم بناء على النسل القادم: " ظهر الرب لأبرام وقال له: أنا الله القدير، سر أمامي وكن كاملاً، فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً ". (1/17-2).

ولأنه سيصير رأساً لنسل جديد من زوجته الحرة، يتغير اسمه: " أما أنا فها هو ذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم. فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم. لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم".

إن تغيير الأسماء: أبرام – إبراهيم. ساراي – سارة. ثم يعقوب – إسرائيل... يضعنا أمام احتمالين:

1- وجود شخصيتين مستقلتين دُمجتا، فتداخلت أخبارهما. لأن الكتبة يريدونهما شخصية واحدة. وقد تكون واحدة منهما حقيقية والثانية مسقطة.

2- تغيير الاسم يعني الانتقال بالشخصية من حالة إلى حالة أخرى.

فأبرام صار اسمه إبراهيم مع شعوره بالقوة والغنى وبوجود وريث يحمل اسمه ويرث ممتلكاته.

وتتابع الآية: " لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك". (تكوين 6/17).

فإبراهيم أب لجمهور من الأمم. وربه خاص به وبنسله. والمقصود بالأمم هنا القبائل الإسرائيلية الاثنتا عشرة كما يقول المفسرون اللاهوتيون. وفي الموسوعة الكتابية نجد أن خليل الله إبراهيم "عند اليهود هو أبو أمة إسرائيل".

والله هو رب لإبراهيم ونسله فقط. وهذا نتيجة النرجسية عند عزرا. فمن المفترض أن يكون الله للجميع كإله كونيّ.

لكن الأنانية حولته إلى إله قبيلة. وقد مر معنا سابقاً أن الفرق بين الوثنية والتوحيد هو الفرق بين خصوصية الإله وتعميمه. والانعزالية تتطلب الإله الخاص، أما الانفتاح على الآخرين فهو يتطلب مشاركة الجميع في الإله الواحد. وكان عزرا مؤمناً حتى نخاع عظمه بالانعزالية والتقوقع.

ومن هنا نستنتج بأن اليهودية ديانة وثنية، ولم تعرف التوحيد أبداً! وهذا ما ستؤكده الأسفار القادمة. وما ورد خارج ذاك المفهوم ومخالفاً له، إنما له ظروفه الخاصة، وعلى الرغم من ذلك بقي الإله في النهاية الإله الخاص باليهود. وسيأتي الحديث عن هذه النقطة عند تحليل أشعيا.

أما توحيد كنعان فكان حقيقياً. وملكيصادق لم يجعل الله له ولنسله ولقومه، بل بارك إبراهيم باسم إلهه مالك السموات والأرض.

وكذا أبيمالك وبلعام فقد عرفا الإله العام، بعكس إله اليهود الوثني.

* * *

وتتكرر آيات الوعد الأبدي: " وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم". (تكوين 8/17).

إن الشعور بالغربة والوحشة والقلق وهمّ الممتلكات والنسل، كل ذلك يعتمل في اللاشعور ويكون الحل - في أحلام اليقظة لخلق الموازنة المتعادلة - هو: كل هذه الأرض ستكون لك، فاطمئن وأرح بالك من التفكير والتوتر!

ويوثق الله علاقته بإبراهيم أو العكس، من خلال الختان كعلامة تميز أبناء الله عن أبناء البشر " فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً ". (تكوين 13/17).

والختان: " يكون ذلك علامة عهد بيني وبينكم". (تكوين 11/17).

إن مقياس اليهودي هو الختان، وسيلعب دوراً كبيراً في العهد القديم، كما سيكون محور الصراع فيما بعد بين المسيحية الناهضة واليهودية المتشددة!

لقد كان الختان معروفاً ومتداولاً كعادة عند كثير من الشعوب كالكنعانيين والفينيقيين والمصريين...(39).

وقد رأى بعض الباحثين أن الختان مرحلة متقدمة على مراحل سبقتها، والتي كانت تقدم الإنسان نفسه كقربان لله. ثم استبدل القربان بتقديم قطعة من لحم الإنسان ومن عضوه التناسلي. ونحن لن نناقش الختان كطقس من الطقوس الدينية

القديمة. إنما نريد أن نشير إلى سرقة اليهود لكل شيء بما في ذلك الطقوس كالقرابين والختان والطهارة... وفي حكاية ختان ابن موسى تطابق مع الأسطورة.

والقرابين والدم والمحارق، كانت استرضاء لإله دموي. وبما أن يهوه ما هو إلا إله وثني، إله العواصف والرعود والبراكين، فلا بد من تهدئته وامتصاص غضبه ونقمته.

والشريعة اليهودية تحض باستمرار على القرابين وإقامة المذابح والمحارق، للتكفير عن الخطايا. وسفك الدماء وحده يرضي يهوه فيعفو ويغفر!

ويختتن إبراهيم وإسماعيل وكل الخدم والعبيد. لكن اختتان هؤلاء لا يعني دخولهم في العهد والميثاق. فهما خاصان بإبراهيم ونسله عبر إسحق وسيخرج إسماعيل من المسرح كما أُخرج لوط.

وكنتيجة لغيرة ساراي من هاجر وابنها، تحمل رغم عقمها وعمرها تسعون سنة. (تكوين 16/17-17). ويتغير اسمها إلى سارة. (تكوين 15/17). والرب يخبر إبراهيمَ بكل ذلك. والمولود سيكون اسمه إسحق. والعهد سيكون مع إبراهيم وإسحق.

ويتابع إبراهيم تجواله الرعوي، ويصل إلى جرار (جنوبي شرق غزة) وهناك يكرر قصته مع فرعون. فهو يدعي أمام ملكها أبيمالك أن امرأته سارة هي أخته، فيأخذها أبيمالك لينام معها!

ويأتي الله إلى أبيمالك في الحلم، وينبهه. فيقول أبيمالك لله: " ألم يقل هو لي إنها أختي. وهي أيضاً نفسها قالت: هو أخي. بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا ". (تكوين 5/20).

ويعصم الله أبيمالك من الخطأ: " فقال له الله في الحلم: أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا. وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تخطئ إليّ. لذلك لم أدعك تمسها". (تكوين 6/20).

الآية تعترف بأن أبيمالك موحد، وهو يعرف الله ويخشاه، وقلبه نقي وطاهر، وسريرته طيبة. بل هو أنقى وأتقى من إبراهيم. فقد تدخل الله شخصياً لينقذه من الخطيئة، بينما لم يفعل ذلك مع إبراهيم! لقد اهتم بأخلاق أبيمالك ولم يكترث لشرف إبراهيم!

وهذا يعني وجود إلهين: إله أبيمالك الطيب، وإله إبراهيم الذي لا يبالي بما يفعله إبراهيم من أعمال شنيعة وغير شريفة!

وادعاء إبراهيم الخوف كمبرر للكذب وتسليم زوجته لفراش أبيمالك يدل على كذبة جديدة، أو محاولة الخداع والتضليل!

فهو قدم زوجته كما قدمها سابقاً لفرعون ليكون له خير بسببها.

ولِمَ حمى الله أبيمالك من الخطيئة، ولَمْ يحم إبراهيم منها طالما هناك بينهما عهد وميثاق وقد قال له: " أنا ترس لك" ؟!

ولمَ الخوف وهو رجل الله /الخليل/ أبو الأمم / رأس الآباء؟!

أين قوته وقوة عبيده وقد انتصر على ملوك أربعة ؟!

إن جرار ليست سوى مملكة مدينة/ قرية. وقوتها لا تزيد عن قوة عبيده وربما عدد سكانها لا يزيد عن عدد جماعة إبراهيم.

ونسأل: لِمَ دخل إبراهيم إلى جرار، وهو يعرف عادات تلك المنطقة - إن صحت - من خلال رحلاته الرعوية المكوكية ؟ ولِمَ لَمْ ينبهه اللّه ؟!

إن دخوله يعني البحث عن المنفعة، على الرغم من كثرة ممتلكاته التي ذكرتها التوراة. وهذا ما يسعى إليه عزرا مؤدلج الميكافيلية.

أو إن كل الحكاية كذب وتناقضات لا أكثر. وما هي إلا أحلام يقظة لفقير تائه يبحث عن الغنى والتملك ؟!

وسؤال آخر: أما زالت امرأته العجوز، وقد صار عمرها تسعين سنة، ذات حسن وجمال ملفت لنظر الملك وسكان جيرار؟!

ويطلب اللّه من أبيمالك إعادة المرأة إلى زوجها: " فالآن ردّ امرأة الرجل فإنه نبي، فيصلي لأجلك فتحيا". (تكوين 7/20).

ويستدعي أبيمالك قومه وعبيده ويخبرهم بما جرى معه، فيدب الروع في نفوسهم. ويقابل إبراهيمَ معاتباً: " ماذا رأيت حتى فعلت هذا الشيء". (تكوين 10/20).

فقال إبراهيم: " إني قلت ليس في هذا الموضع خوف من اللّه البتة. فيقتلونني لأجل امرأتي". (تكوين 11/20).

والسؤال المطروح: طالما تعرف ذلك فلماذا دخلت إذاً ؟!

ويحاول إبراهيم أن يراوغ: " وبالحقيقة هي أيضاً أختي ابنة أبي. غير أنها ليست ابنة أمي. فصارت لي زوجة". (تكوين 12/20).

أيتحدث بالكناية وما هي إلا خداع وتضليل. فهو عندما كشف أمره لجأ إلى الحيلة. أليست سريرته تقول: اكذب لتنجي نفسك، فإن فضح أمرك، جد كذبة جديدة تبرر بها الكذبة السابقة... وهكذا إلى ما لا نهاية!

إن شعوره بعدم الأمن يدفعه إلى الكذب. وما الكذب والخداع والاحتيال والاستخفاف بعقول الآخرين، إلا نوع أو مظهر من مظاهر العدوانية.

فهل هو مصاب بعصاب الفوبيا(40). أم هو يبحث عن المنفعة وإن كان طريقها غير أخلاقي كما ذكرنا عن المؤدلج عزرا !؟

ويتابع إبراهيم حديثه: " وحدث لما أتاهني اللّه من بيت أبي أني قلت لها /لزوجته/: هذا معروفك الذي تصنعين إليّ. في كل مكان نأتي إليه قولي عني هو أخي". (تكوين 13/20).

الخوف المرضي مرافق له طوال تجواله كراعٍ من مكان إلى مكان، في البراري والقفار، وهو معرض لإغارات البدو، واللصوص وقطاع الطرق...

ومن هنا الاحتيال والخداع مخططان مسبقاً. ولكن هل من مبرر للخوف عند دخول الحضر /مدن، قرى/، إلا إن كانت النوايا السيئة والشك في الآخرين وسواس يسيطر عليه!

وفي الآية السابقة تستوقفنا " لما أتاهني الله من بيت أبي". فهو يدعي التيه، بينما الآيات التي مرت، وكانت مرافقة لرحلته من حاران، تدل على مجيء مخطط ومسبق وباتجاه هدف محدد وهو: الأرض. ثلاث كذبات، أو متناقضات يستخف بها عقل أبيمالك - والقارئ - والذي شهد الله بورعه ونقاء سريرته!

وتنتهي الحكاية بأن يعطي أبيمالك إبراهيمَ: "غنماً وبقراً وعبيداً وإماء"، ورد له امرأته. (تكوين 14/20).

وأكثر من هذا، سمح له بأن يسكن أينما يشاء في أرضه (تكوين 15/20).

ولو كان أبيمالك وقبله فرعون ثم ملكيصادق... يعرفون ما يضمر إبراهيم في أعماقه من إزالتهم من الوجود والاستيلاء على أرضهم كلها لما أبقوه حياً، أو في مناطقهم!

وتلك المواقف النبيلة والتسامح من أبيمالك تؤدي إلى إصابته بالعقم لما فعله بسارة علماً بأنه لم يمسها كما يقول النص.

وينتهي الإصحاح بدعاء إبراهيم له بالشفاء من العقم: " فدعا إبراهيم إلى الله فعافى الله أبيمالك وامرأته وإماءه فولدن. لأن الرب كان قد حبس كل رحم في بيت أبيمالك بسبب سارة امرأة إبراهيم". (تكوين 17/20-18).

يستغرب القارئ من هذه التناقضات، فمن هو المجرم ؟!

أتقع العقوبة على المغرر به، على البريء. بينما المجرم يُكافأ ؟!

لقد عاد إبراهيم وزوجته ومعهما الأموال الطائلة!!

ثم تلد سارة!! وكأنما عزرا يريد أن يقول: حملها من أبيمالك، وما عقمه إلا نتيجة فعلته بها. ثم شفاؤه لدفعه الثمن من الأموال والمواشي والعبيد...!!

وبما أن الميثاق مع إبراهيم ونسله من المرأة الحرة سارة، وليس من الأمة هاجر. قرر عزرا الكاتب إخراج هاجر وابنها إسماعيل من مسرح الأحداث.

ويبدأ السرد بتضايق سارة من مرح إسماعيل وضحكه: " ورأت سارة ابنَ هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح/ يسخر". (تكوين 9/21).

فقالت سارة لإبراهيم: " اطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق". (تكوين 10/21).

فيستاء إبراهيم ولكن قرار سارة يتحول إلى أمر إلهي فيطلب الله من إبراهيم أن يلبي طلب زوجته الحرة سارة!

ويعلل: " لأنه بإسحق يدعى لك نسل". (تكوين 12/21).

فنسله سيكون عبر إسحق. ومع أن عزرا يذكر: " وابن الأمة أيضاً أجعله أمة فإنه نسلك". (تكوين 13/21). لكن لا قيمة لهذا النسل وسيخرجه كما قلنا من المسرح. وكلمة "يدعى" مع إسحق توضح الأمر.

ولأن إبراهيم كامل مع ربه أو زوجته، يسرع في صباح اليوم التالي، لصرف هاجر وابنها إسماعيل. فتاهت في برية بئر السبع (تكوين 14/21).

وهنا نسأل عن عاطفة الأبوة، وعن النظرة الإنسانية لامرأة هي زوجة وأم. أم إن الأمة جماد لا مشاعر لها ولا أحاسيس؟!

وهل ابن الجارية لا يلتصق بدم أبيه وروحه ونفسه ؟!

أولسنا أمام عنصرية طبقية بغيضة تثير الاشمئزاز؟!

إن الرب قرر أن يكون الميثاق عبر إسحق، وهو لا يقبل أن يكون ميثاقه عبر العبيد /ابن الأمة/. لكن أين كمال يهوه تجاه مشاعر الأبوة والأمومة. وما هذا الكمال المطلق الذي يلتفت لتفاهة غيرة امرأة فيتبنى كيدها ؟!

يقول ابن الأثير: " وإنما أخرجتها سارة غيرة منها"(41).

هكذا يريد عزرا أن يخاطب جماعته المؤمنين بدينه: أمام المصلحة والمنفعة افعل ما شئت وإن دست على أقرب الناس إليك.

وسنتبين فيما بعد أن إبراهيم لا يحب إلا إسحق ويعدّه ابنه الوحيد!

لقد تاهت هاجر في البرية ونفد منها الماء وأخذت تبكي وابنها. فيأتي ملاك الرب ويهدئ من روعها. فقد أرسله اللّه لأنه سمع بكاء الطفل. ووعدها بأن نسل ابنها سيصير أمة عظيمة. (تكوين 18/21).

وتجد أمامها بئر ماء، فتبقى على قيد الحياة وابنها.

إن تلفيق عزرا، مجيء الملاك بعد سماع بكاء الطفل، ليرقع التناقض بين كمال إبراهيم وبين رمي ابنه مع أمه في صحراء موحشة!

والمفترض أن يكون الحل بعودتهما إلى إبراهيم أو بعدم حصول الأمر ذاك كله. لكن الحل كان بالشفقة. فبقي التناقض قائماً بين الكاريزما واللا إنسانية في شخصية إبراهيم كما قدمها عزرا.

كما أن الوعد بجعل نسل إسماعيل " أمة كبيرة "، لا يختلف عن نسل لوط أو عيسو كما سنرى.

وتنبأ لإسماعيل بأن " يكون رجلاً وحشياً يده على الكل ويد الكل عليه". (تكوين 12/16).

وينمو إسماعيل في برية فاران كرامي قوس! وتُزوِّجه أمه من مصرية وثنية. ثم يغيّبه عزرا ولا يُظهره إلا عند دفن إبراهيم ثم يخفيه ثانية، وإلى الأبد!

لقد أُخرج إسماعيل من الأسرة ثم من النسل بهدف الحفاظ على دم العشيرة من الأب والأم. ولقد حارب عزرا بشراسة الذين يتزوجون من أجنبيات.

وقضية الأم /ابنة العشيرة/ تلاشت مع نسل يعقوب. إلا أن قضية تعريف اليهودي استقرت أخيراً على من كانت أمه يهودية، أو تهوّد حسب الأصول الحاخامية.

* * *

ومع أن إسماعيل هو البكر، وبحسب المفاهيم القبلية، له الأولوية في الوراثة/ الزعامة، المال.../ إلا أنها حُوّلت إلى إسحق.

تقول الموسوعة الكتابية: إن إسماعيل هو البكر وهو الوارث بحسب المفاهيم " ولكن البكورية نقلت إلى إسحق بأمر إلهي"!

وهذا ما سنجده في حكاية عيسو البكر حيث باع بكوريته لأخيه يعقوب بصحن من العدس. فهل هذا بأمر إلهي أيضاً ؟!

فالبكورية ترتبط عملياً بالمرأة الحرة، وبشرط أن تظفر بحب الزعيم وأن تكون متقدمة على بقية نسائه كما سنرى مع داود وسليمان.

والسؤال: لِمَ هذه الإشكالات ؟ لِمَ لَمْ يكتب عزرا الحكاية دون وجود إسماعيل أو عيسو؟

نعم كان بإمكانه فعل ذلك، ولكنه والكتبة معه سرقوا الحكايات من شعوب المنطقة وأسقطوا عليها مفاهيمهم اليهودية ودون إعادة للصياغة لتنسيق السياق، مما أدى إلى ذاك الأمر. وإذا ما فصلنا تناقض الشخصيتين أو الحكايتين نرى النموذجين لأن التركيب الخاطئ لما هو كائن وما أُدخل عليه وأقحم، لا يدل على كاتب محنك لأنه لم يستطع التوفيق بين النموذجين!

كما أن أولئك الكتبة اختلقوا شخصيات لا وجود لها، فجاءت ضعيفة ومفككة، ولم تصل إلى مستوى بناء الشخصية المسروقة.

فهناك إخفاق في البناء المتكامل والمتناسق لمعطيات الشخصية أو الحكاية...

* * *

ويتابع إبراهيم تجواله كراع في أرض كنعان " وتغرب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة". (تكوين 34/21).(1).

وتأتي حكاية الذبيح بناء على طلب الرب امتحاناً لإبراهيم: "خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق". (تكوين 2/22).

وينطلق إبراهيم لتنفيذ مشيئة ربه " وأوثق إسحق ابنه وألقاه على المذبح فوق الحطب". ثم " أخذ السكين ليذبح ابنه". (تكوين 22/9-10).

قلنا: إن الختان تعويض عن التضحية بالجسد كقربان. والنفسانيّ غونين وبالاتكاء على فرويد وكلاهما يهوديّ الدين، يرى أو يميل " إلى الاعتقاد بأن الختان ليس إلا استبدالاً للقتل أو الخصي".(43).

لكن في حكاية إبراهيم نجد أن القربان الحيواني هو التعويض عن القربان البشري. ونجد في العهد القديم دائماً " وأقام مذبحاً للرب".

ومع أن فرويد يرى أن الختان يضرب جذوره في أعماق التاريخ، نجد في النص التوراتي تقديم الابن كقربان!

وهذا يعني جهل الكتبة في تنسيق تطور الأساطير القديمة وهم يسقطون عليها ما يريدونه!

فالشعوب القديمة عرفت التضحية بالابن إرضاء للآلهة ثم تطورت إلى التضحية بالحيوانات كبديل.

فقد وردت في لوحة عثر عليها في خرائب السومريين: " إن الضأن فداء للحم الآدميين، به افتدى الإنسان حياته"(44).

وجاء في كتاب: " المعتقدات الكنعانية" أن إيل ضحى بابنه جنود /وحيد/ " فقام بالتضحية به فوق المذبح". وذكر الماجدي أن هذه الحادثة تشبه ما فعله إبراهيم مع ابنه، وأن هناك من يطابق بين ما فعله إبراهيم وما فعله إيل(45).

وطبعاً هذا ليس مستبعداً لأن عزرا والكتبة سرقوا تراث المنطقة وبالتالي أسقطوا التحول من التضحية بالبشر إلى التضحية بالضأن، على إبراهيم.

وفي سفر القضاة (31/11) نجد أن يفتاح الجلعادي بعد أن انتصر على بني عمون وعاد إلى بيته، خرجت ابنته للقائه بالدف والرقص.

وكان قد نذر: " فكل خارج يخرج من باب بيتي للقائي حين إيابي سالماً من عند بني عمون يكون للرب أصعده محرقة ".

ومع أنها ابنته الوحيدة فقد قرر أن يذبحها وفاء للنذر. فتطلب متوسلة أن يمهلها شهرين لتبكي في الجبال بتوليتها، ويوافق الأب. ولما عادت بعد الشهرين وفى بنذره وذبحها قرباناً للّه!

وتذكر حواشي سفر القضاة في الطبعة الكاثوليكية: " ذهب القدماء إلى أن يفتاح ذبح ابنته ذبحاً حقيقياً "!

وزمن يفتاح بين يشوع وشاول، بينما قربانه البشري، كعادة، تعود إلى الأساطير القديمة جداً.

ويعلل فريزر الدين بأنه: "هو التزلف والتقرب إلى القوى العليا التي تفوق الإنسان والتي يعتقد أنها توجه سير الطبيعة والحياة البشرية "(46). فالقربان هو استرضاء للآلهة كما مر.

* * *

إن الآية تقول: "خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق"، فأين إسماعيل؟ أوليس ابنه - وإن طرده - فكيف يكون إسحق "وحيدك" ؟! ثم " الذي تحبه" ألا تدل على عدم حبه لإسماعيل، وهذا ما يفسر رميه في الصحراء وبناء على أمر إلهي انصاع فيه الإله لرغبة الزوجة الحرة سارة، والتي أكلتها الغيرة والحسد والكره الأعمى!

إن محاولة تقديم إسحق قرباناً للرب، كانت نتيجته معروفة مسبقاً عند عزرا فهي مسرحية لا أكثر. ولذا لم تتغير مشاعر إبراهيم ولم ينفعل ولم يصرخ ولم يبك لأنه يعلم بأن الأمر لن يتم، وبأن يهوه لن يكون جاداً في طلبه لأنه قد وعده بوراثة إسحق له من بعده!

ولذا مشى في الأمر بتلك الثقة. ولم تكن مشاعره ميتة أو متحجرة أو باردة.

ولكن عزرا هل أراد من ذلك أن يخلق توازناً بين طرد إسماعيل وذبح إسحق، من منطلق أن الأمرين كليهما إلهي ولا علاقة لإبراهيم بذلك! وكأنه يريد أن يقول: لا يظنن أحد أن طرد إسماعيل لأنه ابن الجارية أو لحرمانه من الميراث أو لأن إبراهيم يكرهه... إنها الحكمة الإلهية والدليل ها هو أمام تجربة أمرّ وأفظع؛ لقد أُمر بأن يذبح ابنه وحبيبه الوحيد وهو الوريث وهو ابن الحرة...!(47)

فإبراهيم لا حول له ولا قوة، وما هو إلا أداة تنفيذ، وعند يهوه القرار والاختيار والمشيئة!!

وقبل أن ينفذ إبراهيم الذبح، يأتيه ملاك الرب بكبش ليفدي به ابنه فيسمي ذاك المكان " يهوه يرأه، حتى يقال اليوم في جبل الرب يرى". (تكوين 14/22).

وفي الشريعة اليهودية فداء البكر من الأولاد غنمة. كما يقدم قربان البكر الذكر من المواشي...

وهكذا تحل الإشكالية ويرحل إبراهيم ومن معه إلى بئر السبع. وتموت زوجته سارة، فيدفنها في حبرون (قرية أربع) في الخليل.

وهنا يظهر إبراهيم كشخص آخر فهو يتذلل أمام بني حث: " أنا غريب ونزيل عندكم أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي". (تكوين 4/23).

هنا تتجلى السيكولوجية المنافقة تماماً؛ ظاهرها: تمسكن، ضعف، غربة، طلب استجدائي لمساحة قبر أرضاً... وفي الأعماق: الأرض هذه وكل أرض كنعان ومع الامتداد من النيل إلى الفرات لها!

شخصيتان: شخصية ظاهرة تستدر العطف والشفقة، والأخرى حقيقية مخفية تحمل الطمع والجشع والعدوانية المقيتة، لأنها تريد الاستيلاء على الأرض كلها وحرمان أصحابها منها!

الأولى: سماتها الكذب والخداع والمكر واستغباء الآخرين. والثانية: حقودة وحسودة تضمر الشر.

الشخصية الظاهرة تعبر عن الضعف والدونية أمام الآخر. والمتوارية تحلم بالسيطرة والسرقة وتخطط باسم يهوه وتنتظر فرصتها المناسبة.

وهذه هي حقيقة عزرا التي يسقطها على شخصياته فالجوهر طمع لصوص بالأرض والغطاء: الدين ويهوه والوثنية...

وبطيبة خاطر لبّى بنو حث طلبه بل وقالوا له: " أنت رئيس من الله بيننا". (تكوين 6/23).

" فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض بني حث". (تكوين 7/23).

فكيف تسجد الشخصية المقدسة أمام شعب الأرض الوثني؟!

ولم يكتف إبراهيم بذاك، بل طلب وساطتهم لشراء مغارة المكفيلة من عفرون ابن صوحر. إلا أن عفرون قدمها له هدية هي والحقل دون أي مال: " الحقل وهبتك إياه، والمغارة التي فيه لك وهبتها". (تكوين 11/23).

ولكن إبراهيم يصر على دفع الثمن رافضاً العرض الهدية. ثم يدفن زوجته في المغارة في حبرون.

والإصرار على دفع المال ثمناً ما هو إلا لتثبيت ملكية أولى في أرض كنعان تحت غطاء التظاهر بالمسكنة والطيبة: " فوجب حقل عفرون الذي في المكفيلة التي تجاه ممرا. الحقل والمغارة التي فيه وجميع ما فيه من الشجر بجميع حدوده المحيطة به، ملكاً لإبراهيم بمشهد بني حث وجميع من دخل باب مدينته". (تكوين 17/23-18).

تاجر خبيث ومحنك، فالعقد حسب الأصول ولكنه يتنافى مع الوعد اليهويّ الذي منحه الأرض كلها مجاناً ودون أي مال!

فلِمَ دفع المال من أجل جزء لا يذكر في قرية صغيرة ؟! أذاك المال والجزء خلقا الوعد، أم الوعد يتحقق بالشراء في حالات الضعف، وبقتل صاحب الأرض عند امتلاك القوة ؟!

إن الحادثة تشير بوضوح إلى طيبة شعب كنعان؛ فقد رحب بإبراهيم وقدم له الأرض دون مقابل، وعدّه رئيساً من الله. فأين هو منهم؟! وماذا تقول عن شخص تقدم له حقلاً مجاناً فيصر على دفع المال. ومن ثم يدقق بكل محتويات الحقل!

والسؤال المطروح بعد شرائه للحقل: هل بدأ يفكر بالاستقرار، والتوقف عن الترحال؟

وهل بدأت رؤيته تتجه نحو تأمين أرض له ولنسله، ومع هكذا تفكير تداعت آيات الوعد بأرض كنعان ؟

لقد صوّر لنا عزرا - ودون قصد منه - شعب كنعان بأنه مسالم، طيب، متواضع، متسامح، كريم ومعطاء، أمين وصادق... فكيف يتأتى له أن يجعل شخصية إبراهيم تحمل الغدر واللؤم والخسة ؟!

بل جعل توحيد ملكيصادق أجلّ من توحيد إبراهيم، وحرص الله على أبيمالك أكثر من حرصه على إبراهيم. ورغم ذلك حمّل إبراهيمَ الوعد الأبديّ!

إن حقد عزرا والكتبة والحسد والدونية والطمع بأرض كنعان... كل ذلك أسقطوه على شخصياتهم بكل شراسة ووحشية.

ولسان حالهم يقول: ليكن شعب كنعان موحداً ونبيلاً وفي قمة الأخلاق والفضيلة و... نريد أرضه لنا وهذه هي حقيقة الاستعمار وهذه هي حقيقة الأسفار التي صنعها عزرا والكتبة.

لقد جعل إبراهيمَ يؤجر زوجته متعللاً بالخوف. ثم ينسى نفسه عزرا فيروي أن أبيمالك يأخذ عهداً على إبراهيم ألا يغدر به!!

فقد جاء في (تكوين 23/21): " والآن احلف لي بالله ههنا أنك لا تغدر بي ولا بذريتي وعقبي. بل تصنع إليّ وإلى الأرض التي نزلتها بحسب البر الذي صنعته إليك".

فحلف إبراهيم ألا يغدر بأبيمالك...

وكونه حلف يدل على أن سلوكه هو الغدر. وبأنه لا يقابل المعروف بالإحسان وبالرد الجميل!

* * *

إن إبراهيم يرفض الاندماج في الشعب الكنعاني رغم أنهم استقبلوه وفتحوا له قلوبهم. وآثر العزلة لسوء ظنه وشكه في الآخرين. وعندما قرر أن يزوّج ابنه إسحق أرسل عبده القائم على شؤون بيته لإحضار زوجة لابنه من آرام النهرين مدينة ناحور أخيه (تكوين 10/24). وهي تقع بين نهر البليخ ونهر الفرات، فإبراهيم لم يقطع صلته بعشيرته هناك. وقد علم بأن ملكة زوجة أخيه قد ولدت (تكوين 20/22).

ومن سياق التوراة نفهم بأن رفض إبراهيم لبنات كنعان لأنهن وثنيات!! وهذا ما يؤكده اللاهوتيون!

ولكن عشيرته وثنية، وشعب كنعان موحد، وأخلاق كنعان أفضل من أخلاقه!

إنها العنصرية وليست الوثنية. عنصرية العرق والدم العشائري. فلقد أخرج عزرا لوطاً وإسماعيل لحصر الميراث والوعد في نسل إبراهيم فقط. وكما قلنا في هذه الفترة كانت المفاهيم العنصرية تركز على الأم والأب.

فقد ثبت عزرا في تلك المرحلة تعريف اليهودي بأنه من كان أبواه يهوديين. ثم أسقط الأم وأبقى الأب فقط مع أسباط يعقوب لضرورات التاريخ والأهداف!

لقد انطلق عبد إبراهيم إلى أرض عشيرة سيده إبراهيم. واختار العروس المطلوبة وهي رفقة بنت بتوئيل بن ملكة (بنت هاران أخي لوط وفي الوقت نفسه زوجة أخيه الآخر ناحور). عندما تعرف إليها وهي تستقي من عين الماء /أو البئر/. وقصة البئر والاستسقاء ستتكرر مع يعقوب، ثم مع موسى في مديان.

ويعود العبد بها من آرام النهرين ليتزوجها إسحق " وكان إسحق ابن أربعين سنة حين تزوج برفقة بنت بتوئيل الآرامي من فدان آرام" (تكوين 20/25). وفدّان آرام هو سهل آرام، وهو المنطقة حول حاران وهي نفسها آرام النهرين كما تقول الموسوعة الكتابية. وتذكر أيضاً أن حاران هي مدينة ناحور. لكن التوراة قالت: إن عشيرة إبراهيم

بقيت في الجنوب في أور الكلدانيين، ولم يذهب إلى حاران سوى أربعة أشخاص: أبو إبراهيم، وإبراهيم وزوجته ولوط. فهل هو خطأ وسهو، أم المقصود هو: المنطقة بكاملها للعشيرة وضمن حلم عزرا والكتبة ؟!

والغريب أن إبراهيم زوّج ابنه إسحق من العشيرة، بينما هو يتزوج مرة ثانية كنعانية واسمها قطورة (48). (تكوين 1/25).

إلا أنه أعطى "جميع ماله لإسحق" (تكوين 5/25). وأعطى أبناءه من السراري مالاً وصرفهم شرقاً (إلى أرض المشرق - الأردن).

وطبعاً هم خارج القداسة لأنها محصورة في إبراهيم ونسله عبر إسحق. ويموت إبراهيم. ويدفنه ولداه إسحق وإسماعيل في مغارة المكفيلة في حقل عفرون (تكوين 9/25).

وإسماعيل الذي يظهر فجأة عند دفن أبيه، بعد انقطاع أخباره، يعود للتغييب ثانية بعد إنهاء مراسيم الوفاة. وتندثر أخباره لأنه أُخرج من الدائرة المقدسة كما قلنا.

* * *

إن شخصية إبراهيم هي شخصية البدوي التائه الذي يحلم بأرض كنعان له ولنسله.

وعلى الرغم من احتضان كنعان له أرضاً وشعباً، إلا أنه كان نرجسياً يريد أرضهم كلها له. وفي الوقت نفسه استغل طيبة كنعان لمنفعته الخاصة في مواقف متعددة.

ولقد أظهر ما لا يبطن أو أبطن ما لا يظهر. ولتوهمه أو ادعائه الخوف من الآخرين حمى نفسه بالعدوانية التي تجلت في الكذب والمكر والخداع والنفاق والاحتيال.

وبما أن نوحاً أبو البشرية، فإن إبراهيم أبو اليهود - كما أراده عزرا - مع أنه لم يكن يهودياً.

وكونه من الآراميين - كما في النص - فهذا فقط لخلق رابطة تاريخية بفلسطين. أي رابطة عرقية/ إثنية.

وفكرة الأرض هي المحور، وإسقاطها على الآباء إنما هو لكسب الشرعية وكان يمكن إسقاطها على أي آرامي آخر. ولكن لا يمكن إسقاطها على أي كنعاني لأنه في الوعد هو المسلوب وليس السالب!

والآراميون من نسل سام - كما في النص - وهم من المباركين.

وتكتمل الصورة بأن كنعان مغتصبون للأرض وهم ملعونون وعبيد! وهناك عشرات الآيات المتناقضة التي تفضح وعد يهوه لإبراهيم. ففي سفر القضاة، يرسل زعيم الإسرائيليين يفتاح رسائل إلى ملك عمون، يذكره بمعاناة الإسرائيليين بدءاً من مصر ومروراً بالصحراء وانتهاء بمحاولات اختراق أرض كنعان... إلى أن يقول: " أليس ما يملكك إياه كموش إلهك تمتلك. وجميع الذين طردهم الرب إلهنا من أمامنا، فإياه نمتلك". (قضاة 24/11).

فالقضية قضية قوة واعتداء واغتصاب واحتلال استعماري.. قانون الغاب يمنح الصك الإلهي!

ولا فرق بين كموش وهو إله وثني يُملّك، وبين يهوه الذي يُملّك أيضاً جماعته. ولم نخرج من إطار الأساطير القديمة.

فالعقلية البدائية كانت مفاهيمها الساذجة تظن ما يلي:

1- إن حصلت على أرض ما، فمن الإله الذي تعبده.

2- إن انتصرت على عدوها، فإلهها قد نصرها.

3- إن خسرت أمام عدوها، فإلهها عاقبها لإثم ما.

4- رؤيتها لنفسها فوق الجميع. وتضخيم ذاتها يصل إلى أقصى الدرجات. وهذه النقاط تؤيدها مئات الآيات. وعلى سبيل المثال: " كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم". (تثنية 24/11).

" الرب إلهكم هو المحارب عنكم". (تثنية 22/3).

إن اليهود لم يحملوا أية رسالة حضارية، ولم يحملوا رسالة توحيدية فإبراهيم لم يتجاوز ملكيصادق أو أبيمالك في توحيدهما. ولعل السؤال لماذا لم يدع إبراهيم أحداً إلى توحيده / دينه/، لا يحتاج إلى إجابة فلقد كان سكان كنعان موحدين، وكانت أخلاقهم أسمى وأنبل من سلوك إبراهيم. فكان عليه أن يتعلم منهم التوحيد والأخلاق.

فإبراهيم لم يحمل سوى رسالة واحدة وهي: التبشير باستعمار كنعان.

لقد فرز نوح شعبَ كنعان من شعوب العالم وأممه، وجعله ملعوناً محروماً من كل حقوقه الإنسانية. أما إبراهيم فقد أزاح الأمم من وجهه ثم أزاح الساميين بما في ذلك الآراميين إلا نفسه ونسله المبارك.

وأضاف خطوة بأن أرض كنعان له ولنسله. فنوح يمهد الطريق لاحتلال أرض كنعان من خلال لعنه وإقصائه، والثاني يقرر أن أرض كنعان له. أي يُنظِّر لسلب الأرض من كنعان.

* * *

لقد شك بعض الدارسين في شخصية إبراهيم. يقول فراس السواح: " في الحقيقة، لم يمكن حتى الآن العثور على أدلة آثارية تثبت رواية سفر التكوين"... " من هنا، فإن كل ما كتب، ويكتب اليوم، حول روايات الآباء في التوراة، هو محض تخيل وفرض" (49).

كما أن اليازجي يرى أن إبراهيم ليس شخصاً حقيقياً و " إبراهيم شخصية كوكبية لا وجود لها في عالم الواقع" (50).

ثم يذكر بأنه كان " يمتهن الرعي، بل يعبد إله الرعي، يهوه" (51). وسواء أكان لإبراهيم وجود حقيقي أم لا، فهذا خارج عن منهج البحث. لأن ما يهمنا هو: كيف صوّر عزرا الشخصية، وماذا أراد لها أن تكون، وعماذا تعبر.

فنحن نحلل ما آلت إليه الشخصية على يدي عزرا. لأن الشخصية عنده مجرد وسيلة ليلبسها الثوب الذي يريده هو كيهودي يطمع باستعمار فلسطين بأية طريقة من الطرق، وأمام عينيه مبدأ الميكافيلية والبراجماتية.

لقد جعل هو والكتبة العدوانية والسرقة واغتصاب حقوق الآخرين، وتزييف الحقائق واللا أخلاق، ديناً إلهياً!!

إن الشخصية قد تكون مختلقة من الكاتب مما يسهل عليه جعلها تتكلم باسمه وتتصرف بما يؤمن هو به. ولكن إن كانت حقيقية أي لها أصل /وجود/ تاريخ... فهو وإن أعاد تكوينها / تعديل، حذف، إضافة، تشويه، تزييف.../ لتناسب مفاهيمه وأفكاره، فلن يتمكن من النجاح تماماً، وسيظهر التناقض... لأننا أمام كتبة لا يستطيعون رؤية الأمور من كل جوانبها، وهم عاجزون تماماً عن إدراك التناقض والخلل والضعف والسطحية بل والتفاهة!

* * *

2- لوط:

قبل متابعة نسل إبراهيم/ إسحق، لا بد من الوقوف عند لوط والذي اختار دائرة الأردن منفصلاً عن إبراهيم.

البلدتان سدوم وعمورة هما محور حكاية لوط. فأهلهما شاذون جنسياً ومن هنا جاءت تسمية " اللواطيّ " نسبة إلى لوط بينما الأصح أن تكون النسبة إلى سدوم أو عمورة!

لقد بقي لوط يسكن بينهم رغم صفاتهم اللا أخلاقية، ولم يرحل إلى أي مكان آخر.

وذلك لأن عزرا يريد إنهاءه ونسله من الدائرة المقدسة بإبراهيم ونسله.

لقد قرر الرب تدمير سدوم وعمورة ولذا أخبر إبراهيم. فيسأله إبراهيم " أفتهلك البار مع الأثيم". (تكوين 23/18). ثم يقول: " أديّان كل الأرض لا يدين بالعدل". (تكوين 25/18).

وبعد نقاش يعد الرب بأنه إن كان هناك عشرة بررة، فلن يدمرهما.

من الذي يملي التعاليم على الآخر، الرب أو إبراهيم ؟!

لقد صور عزرا الأمر وكأنما إبراهيم هو الرب الرؤوف، بينما الرب هو قائد عسكري أهوج!

ويرسل الرب ملائكته لإنذار لوط ليخرج وأهله من سدوم. فيزحف ذكور البلدة نحو بيت لوط، للواط بضيوفه: " إذا أهل المدينة أهل سدوم قد أحاطوا بالبيت من الصبي إلى الشيخ جميع القوم إلى آخرهم". وفي النسخة البروتستانتية: " من الحدث إلى الشيخ، كل الشعب من أقصاها". (تكوين 4/19).

ومع أن لوطاً يقدم لهم ابنتيه للتمتع بهما، لكنهم أبوا لأن شبق الشذوذ يسيطر عليهم " كل الشعب" !

ولا ندري كيف كانوا يحيون قبل مجيء الضيوف الملائكة إلى لوط، وهم كلهم من الحدث إلى الشيخ لوطيوّن!

ويستمر السرد حيث يُخرج الملاكان لوطاً وأهله من البلدة محذرين من الالتفات إلى الوراء، لكن امرأة نوح تلتفت فتتحول إلى عمود ملح. (تكوين 26/19).

وينزل العقاب: " فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء، وقلب تلك المدن وكل البقعة وجميع سكان المدن ونبت الأرض". (تكوين 24/19-25).

ويظهر من الآية وجود ربين؛ الأول يمطر الكبريت والنار، والثاني مالك/ خازن لتلك المواد!

ويلجأ لوط وابنتاه إلى مدينة صوعر القريبة ثم يتركونها، ويسكنون في4 مغارة في الجبل.

وتقوم الابنتان بمضاجعة أبيهما بالتناوب بعد إسكاره.

قالت الكبرى للصغرى: " تعالي نسقي أبانا خمراً ونضاجعه ونقيم من أبينا نسلاً ". (تكوين 32/19).

" ولما كان الغد قالت الكبرى للصغرى ها أنا ذا ضاجعت أمس أبي فلنسقه خمراً الليلة أيضاً وتعالي أنت فضاجعيه لنقيم من أبينا نسلاً ". (تكوين 34/19).

وبالتالي: "حملت ابنتا لوط من أبيهما. وولدت الكبرى ابناً وسمته موآب وهو أبو الموآبيين. والصغرى أيضاً ولدت ابناً وسمته بنعميّ (بني عميّ) وهو أبو بني عَمُّون إلى اليوم". (تكوين 36/19-37-38).

ويخرج لوط وابنتاه من مسرح الأحداث ليبقى النسل وحده (موآب أو "مؤاب"، عمون). وكأية سلالة بشرية ولكن مغضوب عليها!

إن تلويث لوط ما هو إلا لتبرير إخراجه من الساحة.

فالمخطط المُعد سابقاً قد سار على النحو التالي:

1- تم إقصاء لوط عن إبراهيم.

2- استقرار لوط خارج دائرة حدود حلم عزرا.

3- زواجه من وثنية.

4- إسقاطه في رذالة ابنتيه.

5- إماتة الأم بتحويلها إلى عمود ملح.

6- نسل لوط ملوث (الموآبيون، بنو عمون)، وهم خارج الدائرة.

إذاً هكذا رسم عزرا الصورة، وتابع ملاحقة النسل ففي سفر (نحميا 13/1- 2): " لا يدخل العمونيون ولا الموآبيون في جماعة الله إلى الأبد. لأنهم لم يتلقوا بني إسرائيل بالخبز والماء بل استأجروا عليهم بلعام ليلعنهم".

ولو عدنا إلى سفر التثنية (9/2) لوجدنا أن الرب يطلب من موسى: " لا تعاد موآب ولا تثر عليهم حرباً لأني لا أعطيك من أرضهم ميراثاً. لأني لبني لوط قد أعطيت عار ميراثاً ". وعار هي مدينة موآب.

ولكن في (تثنية 3/23-4): " ولا يدخل عمونيّ ولا موآبيّ في جماعة الرب ولو في الجيل العاشر لا يدخل أحد منهم في جماعة الرب إلى الأبد. لأنهم لم يتلقوكم بالخبز والماء في الطريق عند خروجكم من مصر ولأنهم استأجروا عليكم بلعام بن بعور من فتور في آرام النهرين ليلعنكم".

فنص نحميا هو تكرار لنص عزرا المنسوب إلى موسى. فلنسل لوط منطقة لا يحق لموسى أن يحتلها تكريماً للوط. وفي الوقت نفسه نسله لا يدخل في دائرة الرب لأنهم لم يستقبلوا أبناء الله بالخبز والماء!

وفي حكاية لوط تأتي نظرة عزرا المتهافتة حول أمومية الهوية اليهودية. فقد فضل أن ترتكب ابنتا لوط الجريمة المثيرة للاشمئزاز مع أبيهما على الزواج من الآخرين من غير العشيرة!

فاليهودي يحق له الزواج من غير اليهود. ولكن لا يحق لليهودية أن تتزوج غير يهودي. وهي إن فعلت ذاك فأولادها شرعيون. بينما اليهودي المتزوج غير يهودية أولاده غير شرعيين!

ولكن تتغير هذه النظرة مع أسباط يعقوب كما قلنا سابقاً.

ويبقى السؤال لِمَ لَمْ يجعل عزرا لوطاً وابنتيه يذهبون إلى إبراهيم أو إلى أور كلدان للمحافظة على دم العشيرة ؟!

إنه بلا شك يعبر عن سيكولوجية اليهودي المتدين بالعنصرية وهي تحقيق الغاية مهما كانت الوسائل منحطة وسافلة. فهنا الغاية حفظ دم العشيرة من التلوث والضياع - وإن كانت خارج المسرح - وهذا هو أهم من كل القيم. وبالتالي لا قيمة للطريقة كيفما كانت!

ومن المعروف قديماً زواج الملك من ابنته أو أخته للمحافظة على نقاوة الدم الملكي وصفائه.

يقول ديورانت حول تاريخ مصر القديمة: " وكثيراً ما كان الملك يتزوج أخته، بل كان يحدث أحياناً أن يتزوج ابنته، ليحتفظ بالدم الملكي نقياً خالصاً من الشوائب" (52).

فهل استند عزرا إلى ذاك التقليد ليسقطه على لوط، مثلما أخذ ذبح الملك ابنه وأسقطه على إبراهيم ؟!

إن الاحتمال وارد ولكن ليست المشكلة هنا، لأن ما كتبه عزرا صار ديناً إلهياً ينطق باسم المطلق!

فهنا جوهر الموضوع: سرقة حياة الآخرين وعاداتهم وإسقاط الثالوث عليها ثم رفع ذلك إلى المطلق.

فما تجده في حياة الشعوب، تستطيع أن تنتقده سواء أكان أفكاراً أم عادات وتقاليد... لكن عندما تأتي إلى الدين يقولون لك: قف! هذا دين مقدس!!

وحتى نحترم تلك المقولة؛ يجب ألا تتناقض مع الخير والحق والعدل، والأخلاق، والمنطق والعقل... فإن كان هناك تناقض، فهو ليس بدين إلهي. أو هو دين ولكنه من الشيطان، من الإنسان الشرير!

إن الكمال المطلق لا يتنافى ولا يتناقض مع العدل والقيم، وهو أيضاً واضح ولا يحتاج إلى تأويل لتخريج ما هو متناقض!

* * *

3- إسحق ويعقوب

لقد تزوج إسحقُ رفقة، وكانت عاقراً كحماتها، ثم حملت توءمين نتيجة الدعاء والصلاة.

ويكرر إسحق ما فعله أبوه في جرار؛ فهو يدعي بأن امرأته هي أخته تكوين (7/26): " وسأله أهل الموضع (جرار) عن امرأته فقال: هي أختي لأنه خاف أن يقول امرأتي، قال: لئلا يقتلني أهل المكان بسبب رفقة لأنها كانت جميلة المنظر".

وطالت إقامته في جرار، وذات يوم نظر ملك جرار أبيمالك (53) من كوة البيت، فرأى إسحق يلاعب رفقة " فدعا أبيمالك (أبيملك) إسحق وقال: إنما هي امرأتك فلم قلت إنها أختي. فقال إسحق: لأني قلت لعلي أهلك بسببها ". (تكوين 9/26).

فقال الملك أبيمالك له: " ماذا صنعت بنا لولا قليل لضاجع أحد قومنا امرأتك فجلبت علينا إثماً ". (تكوين 10/26).

فهل ملك جرار أبيمالك ضاجع زوجة إسحق، خاصة وهي جميلة وشابة وليس كحماتها العجوز سارة ؟!

النص لم يقل ضمها إلى حريمه. كما أن الموسوعة الكتابية تتدعي بأن أبيمالك هذا غير أبيمالك سارة، وتقول بينهما مئة عام!

ولكنها تصف إسحق بالخداع: " لم يتردد هو أيضاً في أن يقول لرجال جرار إن زوجته هي أخته لكي ينقذ حياته، ولكن لم يكن له في الحقيقة نفس المبرر كما كان لإبراهيم". وتتابع الحديث عن اكتشاف ملك جرار " لهذه الخدعة ".

إن هناك عدة احتمالات: أن تكون حكاية سارة ورفقة واحدة. أو خاصة برفقة فاستنسخت حكاية سارة لتبرير ما فعلته رفقة. واحتمال أن يكون هدف عزرا تشريع تأجير الزوجة للمنفعة ولا سيما أيام القحط والفقر أو لتحقيق هدف ما!

واحتمال أن يكون أبيمالك هو نفسه، وليس شخصين بينهما مئة عام.

فقد ورد في (تكوين 22/21): " وكان في ذلك الزمان أن أبيملك وفيكول رئيس جيشه كلما إبراهيم...". وفي التكوين (26/26): " فذهب إليه من جرار أبيملك وأحزات من أصحابه وفيكول قائد جيشه".

فالآية الأولى تتعلق بإبراهيم، والثانية تتعلق بإسحق: اسم الملك واحد واسم قائد الجيش واحد. والفترة الزمنية قريبة. فلِمَ تريد الموسوعة الكتابية جعلهما اثنين وبينهما مئة عام ؟!

لنقل كان أبيمالك شاباً في عهد إبراهيم، وقد شاخ في عهد إسحق. وقد أثارته رفقة بجمالها، وهو الذي أثارته سارة العجوز يوم كان شاباً!!

كما أن الموسوعة أعطت مبرراً لكذب إبراهيم وحجبت المبرر عن إسحق مع أن إبراهيم لا مبرر له للكذب لأنه كان قوياً ويمتلك ثلاثمئة عبد خاض معهم معركة وانتصر فيها. بينما لم تذكر التوراة عبيداً لإسحق، وقد ذكرت أنه امتلك العبيد والمواشي بعد الحادثة.

ولكن نلاحظ أن ملك جرار طرد إسحق خشية منافسته له. بل أقام معه عهداً على عدم الغدر به والخيانة كما صنع مع إبراهيم. فكيف يعقد ملك مع فرد ضعيف خائف، معاهدة ليأمن غدره وعدوانيته ؟!

المهم كلاهما كاذب وهما قدما زوجتيهما لملك جرار من أجل المنفعة لا غير. ولندع التواريخ التوراتية فلا قيمة لها، وكذا استنتاجات المؤرخين لتحديدها!

والسؤال إذا كانت الموسوعة تقر بكذب إسحق وخداعه ودون وجود مبرر، فلم لا تضع إشارة استفهام حول أحد الآباء المقدسين وهو رجل الله والنبي والقدوة ؟!

والسؤال الأهم: ألم يسمع إسحق بعادات جرار، ألم يخبره أبوه أو أمه عنها ؟! وبعد أن علم عنها فلِمَ أطال البقاء فيها ؟! ثم أين ما ورثه من ممتلكات أبيه التي لا حصر لها ؟!

فبعد الحادثة تلك يعمل إسحق في الزراعة، مما يدل على أن غنى إبراهيم كذب، وأن إسحق لم يرث سوى الفقر!

وهذا يعني أن حلم الأرض، إنما هو حلم الفقير الأنانيّ والجشع!

إذاً أخذ إسحق يعمل في الزراعة وأثمر زرعه " وعظم شأن الرجل وكان يزيد عظمة إلى أن صار عظيماً جداً. وصارت له ماشية غنم وماشية بقر وعبيد كثيرون فحسده الفلسطينيون". (تكوين 26/13-14).

وكنتيجة للحسد طرده الملك، وخوفاً من ازدياد قوته ونفوذه ومنافسته عقد معه أهل جرار - فيما بعد - اتفاقية حسن جوار: " ألا تصنع بنا شراً كما لم نمسك وكما لم نصنع بك إلا خيراً، وصرفناك بسلام". (تكوين 26/29).

لقد أراد عزرا أن يصوّر عبقرية ابن الله في تحصيل الثروات، وفي التحول من رجل خائف وكاذب، إلى منافس لملك وشعب. وإلى خضوع الملك وشعبه له واستجدائهم معاهدة الأمن والسلام منه!!

* * *

وتلد رفقة توءمين وهما عيسو الذي خرج إلى الدنيا أولاً بلونه الأحمر " كله كفروة شعر"، ثم يعقوب وهو قابض على عقب عيسو محاولاً الخروج قبل أخيه ليكون البكر! (تكوين 25/25-26).

وكعادة أهل العشيرة يحب الأب إسحقُ ابنه البكر عيسو، بينما الأم رفقة تحب الثاني يعقوب المكافح، والذي وهو في بطن أمه، يحاول الخروج أولاً وإبعاد أخيه عن البكورية!!

وعندما يكبران يشتري يعقوب البكورية من أخيه عيسو الجائع مقابل صحن من العدس! (تكوين 31/25 وما بعد).

ولإبقاء النسل مستمراً عبر يعقوب، يقرر الكاتب أن يزوج عيسو حثية (يهوديت ابنة بيري الحثي، وبسمة ابنة أيلون الحثي). (تكوين 34/26).

فعزرا سلب البكورية من عيسو وهي الحق الشرعي العشائري في الميراث. ثم زوّجه وثنية من غير العشيرة. والزواج وإن ولّد المرارة في نفسي أبويه لكن المسار مُعدّ مسبقاً!

فلماذا جعل عيسو يخرج أولاً، ثم يبيع ثمن خروجه بصحن من العدس، ولماذا جعلهما توءمين طالما سيُخرج عيسو من مسرح القداسة ؟!

بينما في حكاية إسماعيل وإسحق لم تكن هناك مشكلة، لأن إسماعيل أمه مصرية وثنية، وهل يتساوى العبيد والسادة في مجتمع الرق ؟!

ولعل هذا يدل على وجود حكاية، قام عزرا بتعديلها فقط، ليحل إشكالية الشخص المطلوب في البكورية والقداسة!

وعلى الرغم من أن عيسو تزوج ابنة عمه (محلة) بنت إسماعيل، إضافة إلى الوثنية مما قربه من دم العشيرة. لكن ذلك لم يفده، لأن ترتيب الأمور قد تم!

وحتى يؤكد عزرا تمام الأمور روى حكاية البركة الممنوحة ليعقوب وهي الفاصلة في مسار أبناء اللّه!

فقد طلب إسحق من ابنه عيسو أن يأتيه بطعام صيد ليباركه قبل أن يموت فقد شاخ وكلّ بصره. وتعلم الزوجة رفقة بالأمر. فترسل يعقوب مع الطعام إلى أبيه ليسبق أخاه في استحقاق البركة.

وتصنع للابن ثوباً من جلد الماعز ليكسو عنقه ويديه؛ لأن عيسو كان شعرانياً، بينما يعقوب كان أملس الجلد (أمرد).

وتنطلي الحيلة والخدعة على إسحق الضعيف البصر! فيظن أن يعقوب هو عيسو، فيمنحه البركة.

ويعود عيسو بصيده، ويجهزه طعاماً لأبيه. ثم يأتيه، فيصطدم بخداع أمه وأخيه. ولكنه يستجدي البركة من أبيه أسوة بأخيه الذي سرقها منه. إلا أن الأب يرفض ويقول: " قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك". (تكوين 35/27).

وأكثر من هذا قال له: "هأنذا قد جعلته سيداً لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً ". (تكوين 37/27).

ويبكي عيسو متألماً إلا أن الأب / المقدس/ يزداد إمعاناً في تجاهله والغبن والخداع، وجعله رجل عصابات: " بسيفك تعيش، وتخدم أخاك (لأخيك تستعبد)، ويكون أنك إذا قويت تكسر نيره عن عنقك". (تكوين 40/27).

ويحقد عيسو على يعقوب ويقرر قتله. فتقوم الأم بحيلة جديدة؛ وهي إبعاده إلى أخيها لابان، بحجة الزواج من العشيرة حتى لا يتزوج كنعانية وثنية. فيوافق الأب.

إن كل تلك الحيل والخداع هدفها إسقاط حق عيسو لصالح يعقوب. وقد جاء في (المزمور 4/135): " لأن الرب قد اختار يعقوب لذاته وإسرائيل لخاصته".

وهذا الاختيار يعني أن الرب / يهوه/ عزرا، يريد القوي، المخادع، الشرير، الخبيث.. أي البراجماتي والميكافيلي، وهذه سمة الشخصيات جميعاً كما رسمها عزرا والكتبة وقد نجحوا في ذلك!

فالجوهر في دين عزرا ليس المثل والقيم والقدوة المقدسة، إنما الوصولية والانتهازية.

والأم رفقة زوجة إسحق هي نموذج للمرأة الخبيثة والداهية والعريقة بالمكر والخداع. وهذا ما يريده عزرا لأن مثالية ابن اللّه، لن تحقق شيئاً، فهو بحاجة إلى خبث ودهاء المرأة! وهذا يمكن استيعابه لأن هناك نوعيات متعددة من النساء. ولكن ما لا يمكن استيعابه؛ كيف يعدّونها امرأة مقدسة ؟!

أوليس عيسو من لحمها ودمها، ومن المفترض - كأم - أن تكون مشاعرها واحدة تجاه ولديها، أم هي مجردة من عاطفة الأمومة ؟!

لماذا تريد تحطيم عيسو ابنها ؟ ألا نجد أنفسنا أمام إبراهيم وسارة بموقفهما تجاه إسماعيل ؟!

الجوهر واحد! فسيكولوجية اليهودي المؤمن بعزرا يجب أن تضع المصلحة والمنفعة فوق أي اعتبار! ولا قيمة للمشاعر أو الأحاسيس أو الأخلاق. فالمطلوب هو يعقوب إذاً تبدأ الإرهاصات التي يسقطها عزرا منذ اللحظات الأولى: التسمية، محاولة يعقوب أن يمسك بعقب أخيه ليدفعه إلى الوراء وليتقدمه في الخروج وكسب البكورية!

وهل الجنين يفكر بالبكورية والسبق، أم أن عزرا يريد بطله خبيثاً وهو في بطن أمه ؟!

* * *

لقد بارك إسحق يعقوب وقال له: " لا تأخذ امرأة من بنات كنعان، قم فامض إلى فدان آرام إلى بيت بتوئيل أبي أمك، وتزوج بامرأة من هناك من بنات لابان خالك". (تكوين 28/1-2).

وينطلق يعقوب من بئر السبع إلى حاران هرباً من وجه أخيه حتى يهدأ أو ينسى كما قالت الأم. وليأتي بزوجة يحافظ بها على نقاوة دم العشيرة وصفائها.

وفي الطريق ومع مغيب الشمس ينام. فيحلم بسلم ممتد بين السماء والأرض، والملائكة هابطة صاعدة، والرب واقف على السلم يخاطبه: " أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحق. الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك". (تكوين 28/13).

ولما هبّ من نومه قال في نفسه: إن الرب في هذا المكان: " فخاف وقال ما أهول هذا الموضع ما هذا إلا بيت اللّه هذا باب السماء". (تكوين 28/17). وسمى ذاك المكان بيت إيل وكان اسمه (لوز). وإيل إله كنعاني!

ويقرر يعقوب في نفسه إن أطعمه الرب وألبسه وحفظه حتى يرجع بسلام، فإن ذاك الرب سيكون إلهه، والمكان سيكون بيتاً للرب.

وخطاب الرب له من "سلم يعقوب" حول منحه أرض كنعان يرافق حياته كما رافق مَنْ قبله، وسيرافق من بعده. وهذا هو الشريان الحقيقي الذي يتشعب في الأسفار كلها.

وتتكرر حكاية البئر/ نبع الماء، والاستسقاء حيث يلتقي راحيلَ ابنة خاله لابان، ويتم التعارف. وتمضي إلى أبيها لتخبره عن ابن عمتها. فيأتي الخال لاستقباله ويمضون معاً إلى بيت خاله.

وبعد مضي شهر في ضيافته، يتم الاتفاق على أن يخدم يعقوب خاله سبع سنين مقابل تزويجه راحيل ابنته الصغرى. وهذا ما سنراه مكرراً في حكاية موسى مع فروقات ضئيلة.

وتنتهي مدة الاتفاق، فيقيم الخال وليمة عرس. ولكنه يخدع يعقوبَ حيث يُدخله على ابنته الكبرى ليئة.

وفي الصباح يكتشف يعقوب بأنه ضاجع ليئة وليس راحيل التي أحب! ولكن راحيل عندما عاتبته فيما بعد كيف لم يميز جسدها من جسد أختها إضافة إلى الإحساس والشعور، ادعى بأن العتمة هي السبب!

ويبرر الخال تزويجه ليئة بالعادات التي لا تسمح بزواج الصغرى قبل الكبرى ويعرض عليه أن يبقى أسبوعاً معها، ثم يزوجه راحيل مقابل خدمته سبع سنين أخرى. فيوافق يعقوب. وهكذا يتزوج الأختين معاً ليئة وراحيل.

والغريب أن شريعة موسى كما ورد في (لاويين 18/18): " ولا تأخذ امرأة على أختها للضر، لتكشف عورتها معها في حياتها".

فكيف صنع عزرا هذا ؟ ولعل الإجابة على أية إشكالية مفتعلة، أو نتيجة تداخل سياق حكايتين في حكاية واحدة، باتت واضحة. فالمصلحة والمنفعة فوق كل شيء حتى الشريعة نفسها. وهنا ستحاك (الدزينة) أولاد يعقوب الاثنا عشر (الأسباط).

ولعلنا نجد سخرية مكتومة من يعقوب في سفر (هوشع 12/12): " وهرب يعقوب إلى صحراء آرام، وخدم إسرائيل لأجل امرأة، ولأجل امرأة رعى"!

وتتكرر حكاية العقم؛ فراحيل عاقر، بينما أختها ليئة ولودة كتعويض عن بشاعتها أو لأنها مكروهة.

فتلد: رأوبين، شمعون، لاوي، يهوذا. ثم تتوقف عن الولادة (تكوين 29/ 32-35).

وتغار راحيل - وكما حدث مع سارة - فتدفع يعقوب لمضاجعة جاريتها بلهة، فتحمل وتلد: دان، نفتالي.

وتغار ليئة، فتدفع يعقوب لمضاجعة جاريتها زلفة، فتحمل وتلد: جاد، أشير.

وذات ليلة يكون السرير لراحيل، فتبيع ليلتها لأختها ليئة مقابل وشاح (لفاح) وجده في الصحراء رأوبين بن ليئة. وقد أعجبت راحيل باللفاح. وكان ثمن الحصول عليه، المقايضة بيعقوب وتخليها عن ليلتها لأختها. (تكوين 15/30).

ويعود يعقوب ليلاً من العمل إلى راحيل لكن ليئة تعترض طريقه وتقول: " استأجرتك بلفاح ابني. فنام عندها تلك الليلة ". (تكوين 16/30).

ويعود الخصب لليئة فتلد: يساكر، زبولون، ودينة (أنثى). فدبت الغيرة في نفس راحيل وتألمت وبكت فـ " ذكر الله راحيل وسمع الله لها وفتح رحمها". (تكوين 22/30).

فحملت وولدت: يوسف. ومعه انتهت السنوات السبع. فطالب يعقوب خاله بأن يسمح له بالرحيل.

ويتفقان على الأجر، وهو أن يأخذ يعقوب الغنم والمعز المرقط الذي سيولد خلال السنوات الست القادمة!

ويقوم يعقوب بخدعة خرافية تدور حول وضع قضبان مقشرة أمام الأغنام عند مجيئها للشرب أيام الحمل، فتتوحم على اللون المرقط، فتلد في الربيع المرقط والأبلق!! (تكوين 38/30).

وهذه الحيلة وإن كانت خرافية لكنها تجعل يعقوب ابن أمه!

ولم يكتف عزرا بحدود هذه الخرافة، إنما أقحم الله فهو الذي هداه إلى تلك الحيلة!

ومعنى ذلك أن هدفية المنفعة ليست فقط تبرر الوسيلة بل هي تخطيط ربانيّ، وما فعله يعقوب إنما هو تنفيذ لإرادة الله.

ومن هنا يصير يعقوب رجل الله لأنه بار ينفذ مشيئة الله.

ولا يحق لأحد الاعتراض أو النقد، لأن يعقوب غير مسؤول عن أفعاله فهو مجرد أداة، والأمر وإن بدا لا منطقياً، لا أخلاقياً... لكن لا يستطيع العقل البشري المحدود أن يستوعب الحكمة الإلهية البعيدة المنال!!

ولو قرأ ميكافيلي العهد القديم جيداً قبل أن يؤلف كتابه " الأمير"، لوجد أن جوهر كتابه هو نفسه جوهر العهد القديم، ولكن بفارق ضئيل؛ وهو أن كتابه ينقصه الختم الإلهي. ولعله كتبه بوحي من الكتاب المقدس نفسه!!

ويقول الرب ليعقوب اذهب إلى " أرض آبائك وعشيرتك". (تكوين 3/31). وفي الآية الحادية عشرة يخاطبه ملاك الرب في المنام إلى أن يقول له: " أنا إله بيت إيل" (الآية 13).

والذي يبدو أن ملاك الرب هو نفسه إله بيت إيل!

ويطلب منه أن يخرج من الأرض التي هو فيها إلى الأرض التي ولد فيها. ومعنى الآية لا يستقيم: أنا الله رب بيت الله أو أنا إله بيت الإله. والمتكلم كان الملاك في المنام. ولم يتغير الفاعل أو الضمير أو أي شيء يشير إلى الانتقال في الصياغة!

المهم انتهت السنوات الست وانطلق يعقوب وأسرته ومعه كل ما امتلكه من مواش وأموال باتجاه أرض كنعان. ولم يخبر خاله خوفاً من وضع عراقيل جديدة أمامه " وخدع يعقوب قلب لابان الآرامي". (تكوين 20/31). كما أن راحيل سرقت أصنام أبيها (تكوين 19/31).

ويعلم لابان بعد ثلاثة أيام بفرار يعقوب، فيلحق به مع إخوته، فيدركه بعد سبعة أيام. ولكن الله جاء لابان في منامه وهدّده: " إياك أن تكلم يعقوب بخير أو شر". (تكوين 24/31).

وبذاك التخويف المسبق يلتقي لابان يعقوبَ، فيعاتبه برقة ثم يسأله عن أصنامه ويفتش عنها. ولما دخل خباء راحيل لم تقف لاستقباله بحجة عادة النساء الدورية، في الوقت الذي خبأت فيه أصنام أبيها تحتها وقد جلست فوقها!

ويعاتب يعقوب لابانَ عندما لم يهتدِ إلى أصنامه: " لي عشرون سنة معك في بيتك خدمتك أربع عشرة سنة ببنتيك وست سنين بغنمك، وغيّرت معي في أجرتي عشر مرات". (تكوين 41/31).

وتم الصلح بينهما وتعاهدا على عدم الاعتداء على بعضهما. قال لابان ليعقوب: " إله إبراهيم وآلهة ناحور آلهة أبيهما يقضون بيننا. وحلف يعقوب بهيبة أبيه إسحق". (تكوين 53/31).

فالوثني يحلف بالإله، والموحد - توراتياً - يحلف بأبيه!!

وعاد لابان إلى أرضه وتابع يعقوب مساره نحو أرض كنعان.

وفي الطريق يسمع بأن أخاه عيسو قادم نحوه ومعه أربعمئة رجل، فظن أن أخاه يريد قتله، فقسم قافلته إلى قسمين، حتى إذا ما صادف أخوه قسماً وقضى عليه، نجا القسم الآخر!

ويقلقه الخوف فيطلب من الله أن ينقذه: " فأنقذني من يد أخي عيسو فإني أخاف منه". (تكوين 11/32).

ويرسل إلى أخيه هدايا من (عنز وتيوس ونعاج وكباش ونوق مع أولادها، وبقر وثيران وحمير...). ويطلب من عبيده أن يقولوا لأخيه إن سألهم عنها إنها " لعبدك يعقوب هو هدية مرسلة إلى سيدي عيسو وها هو ذا أيضاً وراءنا". (تكوين 8/32). هنا نكتشف زيف العلاقة بين يعقوب والله. فلو كانت له علاقة وهو متيقن من ذلك، لما أرسل الهدايا رشوة لشراء مرضاة أخيه، ولما اهتم أبداً.

ولأنه ضعيف أمام أخيه يتذلل ويتمسكن ويتصاغر (لعبدك.. لسيدي) كجده إبراهيم أيام محنه!

فأين الثقة بالله ورعايته وحمايته. وكيف ينسى الكاتب عزرا أن وجود الله نفسه كان من أجلهم، وهم المحور في الوجود والحياة.

ويأتي الخوف ليقلب كل المقولات، ألم يدفع أباه وجده إلى بيع شرفهما!

فادعاء الارتباط مجرد وهم وزيف ودجل. لأنهم أمام الواقع المشحون بالخوف، يجدون في المكر والاحتيال والنفاق والتزلف لدرجة الذل، المخرج. ثم إن لم يحدث لهم مكروه يقولون: أنقذهم يهوه!!

وفي الوقت نفسه تختفي وراء تلك المظاهر، الروح العدوانية المتعطشة لسحق الخصم والقضاء عليه، ونهب كل ممتلكاته.

والخوف الشديد من عيسو، ويقينه بأن الله لن يقف إلى جانبه، أدى إلى حقده الدفين على الله والذي تجلى في صراع معه (تكوين 24/32 وما بعد). فقد تصارع مع رجل حتى الفجر، وفي نهاية صراعه تبين أنه الله على صورة إنسان: " لأني نظرت الله وجهاً لوجه". (تكوين 30/32). وفي الترجمة الكاثوليكية: " إني رأيت الله وجهاً إلى وجه".

وفي سفر هوشع (3/12): " وجاهد مع الملاك وغلب". فهوشع يرى أن يعقوب صارع ملاكاً. ورأيه خاطئ فالنص واضح إلا إن كانت لديه نسخة أخرى أضاعها الزمن!

ويؤكد يعقوب الكلام فيما بعد وهو يتحدث إلى أخيه عيسو: " فإني رأيت وجهك كما يرى وجه الله". (تكوين 10/33).

ونجد في معجم اللاهوت الكتابي: " وعلى يعقوب أن يتصارع مع هذا الإله القدير، وفي نهاية المصارعة يباركه الله ويطلق عليه اسم " إسرائيل".(54).

إن اللا شعور الممتلئ بالخوف، وفي الوقت نفسه شعوره بوهم العلاقة مع الله، انعكس في حلم يقظة، يصارع فيه مَنْ خذله أو من يتوقع بأنه سيخذله، وكان يتوهم أنه معه ولعله صارع عيسو في حلمه!

يقول يونغ: " الأحلام هي صوت المجهول، الذي يتهددنا أبداً بخطط جديدة، بأخطار جديدة، بتضحيات وحروب وغير ذلك من المنغصات" (55).

ويقول أيضاً: " هناك عدد كبير من العقائد والمراسيم ما كانت لتوجد لولا ابتغاء خط دفاعي يصد الاتجاهات المفاجئة والخطرة التي تصدر عن الخافية " (56).

فيعقوب كان يصارع الله أو عيسو في حلمه سواء أكان حلم منام أم حلم يقظة.

لأن " الحلم يعطينا صورة واضحة عن الحالة الذاتية أو الشخصية، بينما يرفض العقل الواعي أن يعترف بوجود هذه الحالة " (57).

والأحلام عند إيرك فروم " لا تتبع قوانين المنطق التي تسود فكرنا اليقظ، فمقولتا المكان والزمان مهملتان فيها" (58).
كما يرى أن الأحلام أشبه بالأساطير: " ومهما يكن، فالأساطير سواء أكانت محطّ تجاهل أم احتقار أم احترام فالمعتقد أنها تنتمي إلى عالم غريب كل الغربة عن تفكيرنا. ومع ذلك، تظل الحقيقة هي أن الكثير من أحلامنا هو في الأسلوب والمضمون أشبه بالأساطير" (59).
فالأحلام التي نراها في الأسفار كلها هي التي تكشف عن ذاك العالم المخبوء في الأعماق، ولا سيما أعماق الكتبة أنفسهم. لأن " الأحلام تمدنا بمعلومات عن أسرار الحياة الداخلية وتكشف لصاحب الحلم عن العوامل الخبيئة، والملونة لشخصيته" (60).
إذاً صارع يعقوب ربه أو أخاه وهذا الصراع عكس خوفه في اللاشعور، والذي رافقه عشرين سنة منذ اعتدى على حقوق البكورية والبركة اللتين لأخيه.
وعندما كان في مضارب خيام خاله خف توتره وقلقه وكادا أن يتلاشيا. ولكن بعودته استعاد مباشرة خوفه ودونيته.
ولقد أرسل هداياه إليه وهو ينظر إليه كمصدر للرعب وهو السيد، ولربما الإله!!
وينظر إلى مرآة ذاته فيجد نفسه عبداً ذليلاً يرتجف أمام ذكر عيسو، وربه لم يوآزره.
والحلم خلق تعويضاً، تعادلاً يريحه طالما هو في نشوة حلمه!

* * *

ونتيجة الصراع يخبره يهوه: " لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل". (تكوين 28/32). وإسرائيل تعني رجل الله، عبد الله. ولها معان أخرى مثل: صارع الله، كافح الله...
وسمّى يعقوب حلبة الصراع فنوئيل (فنيئيل) أي وجه الله.
وتغيير الأسماء له مدلوله كما قلنا، فهو إما نتيجة دمج حكايتي شخصيتين مختلفتين لتصيرا شخصية واحدة. أو لتحمل الشخصية بالاسم الجديد مفاهيم جديدة. أو تعديلات مقحمة على الشخصية الواحدة بهدف إسقاطات معينة.
ونلاحظ مع يعقوب بقاء اسمه في السفر، لكن النسبة إلى إسرائيل هي التي تستمر مع عشيرة موسى وما بعد!
كما نلاحظ أن السلالة تنسب إلى الأب / رجل الله/ أما الأم فلا قيمة لها. فثلث الأسباط من أمتين وثنيتين كانتا لخاله، وقد أهداهما لابنتيه عندما تزوجتا يعقوب.
وسنرى أن أولاد يعقوب سيتزوجون من وثنيات المنطقة ولا يذهبون إلى أرض عشيرة آبائهم كما فعل إسحق ويعقوب.
والأولاد نسل شرعي كما يرى عزرا في هذه المرحلة. وهدفه تبرير كثرة النسل القادم فيما بعد!

* * *

وأخيراً يلتقي الأخوان، فيسجد يعقوب أمام عيسو سبع مرات (تكوين 3/33). ولكن عيسو يركض نحوه ويعانقه ويقبله، فيبكيان معاً!
ويقدم يعقوب أسرته إلى أخيه فيسجدون له، ويقول: " الأولاد الذين أنعم الله بهم على عبدك". (تكوين 5/33).
ثم يفترق الأخوان على أن يلحق يعقوب بأخيه في سعير حيث يقطن عيسو(61).

لكن يعقوب يكذب ويذهب إلى سُكُّوت ثم يتابع فينزل مقابل مدينة شليم التي يقطنها حمور وابنه شكيم (تكوين 18/33). ويشتري قطعة أرض ليقيم عليها، وينصب خيامه. ثم يقيم مذبحاً للرب ودعاه " إيل إله إسرائيل". (تكوين 20/33). والآية واضحة الدلالة. فإله إسرائيل هو إيل إله الكنعانيين(62).

لقد سامح عيسو أخاه يعقوب على ما اقترفه بحقه من سرقة البكورة والمباركة، لكن يعقوب بقي في شك وريبة من أخيه، لذلك أخذ الحيطة والحذر. فالقاعدة - عند عزرا - أن ينتقم المعتدى عليه، لكن إن سامح فهذا يدعو إلى الاستغراب لأنه أمر شاذ ولذا يجب عدم القبول والرضوخ لتلك المثالية /التي لا معنى لها/ الفارغة!

كيف التعامل مع شخصية، إن هي أخطأت بحقك وإن صفحتَ وعفوتَ، تبق في شك وريبة منك.

وإن أنت أخطأت بحقها فالويل لك إلى الأبد. ولن يفيدك الاعتذار ولا التعويض، لأن الحقد لا يشفيه أي علاج!

إنه لا يعرف التسامح ولا الصفح ولا العفو. وصاحب تلك السيكولوجية المريضة شاذ وهذا ما ستوضحه حكاية دينة بنة ليئة:

فقد خرجت دينة ذات يوم لتتأمل بنات الأرض، فشاهدها شكيم بن حمور فأحبها ومارس الجنس معها. ثم طلب من أبيه أن يخطبها له ليتزوجها.

فقابل الأب حمورُ يعقوبَ أبا دينة، وطلب ابنته عروساً لابنه شكيم. وتم الاتفاق على الزواج لكن بشرط أن يختتن شكيم وكل قومه. ومن ثم يصير التزاوج بين الفريقين عادياً لأنهما سيصيران شعباً واحداً (تكوين 15/34-16).

ولكن هذا الكلام يعني أن يدخل شكيم وقومه في دين يعقوب! ويوافق حمور وشكيم. ويختتن أفراد القبيلة كلهم لأنهم يحبون شكيم ويتعاطفون مع حبه لابنة يعقوب.

لكن شرط الاختتان كان " كيد ومكروا بهما لأنه دنس دينة أختهم". (تكوين 13/34).

فبنو يعقوب كانوا يتفقون على شيء وفي الوقت نفسه يضمرون المكر والكيد لبني شكيم!

ففي اليوم الثالث، والقبيلة ما زالت تعاني من آلام الختان، انقض عليهم شمعون ولاوي من أبناء يعقوب، وقتلوا بالسيف كل ذكر في القبيلة بما في ذلك حمور وشكيم. ثم نهبوا القبيلة / المدينة، القرية من ممتلكات وحيوانات، وسبوا الأطفال والنساء. (تكوين 25/34 وما بعد..).

وكل هذا "من أجل تدنيس أختهم"!

وهذا الغدر يعبر عن الخسة واللؤم؛ فشكيم وقومه وافقوا على شروط بني يعقوب والتي صاغها الأب يعقوب حتماً!

إنها العنصرية والمحافظة على سلامة النسل ونقاء الدم كما يرى عزرا. وهذا الأمر يضيع من ذاكرته مع أولاد يعقوب. فالذكر يحق له أن يتزوج من بنات الأرض، لأن نسبة الولد إليه. بينما لا يحق للأنثى أن تتزوج من أبناء الأرض، لأن نسبة ولدها سيكون لابن الأرض. وبالتالي ستنجس النسل المقدس. والكلمة التي يستخدمها عزرا (النجاسة)، تصير مباركة للوثنية التي يتزوجها ابن الله!! فهنا مباركة وهناك نجاسة!

إن المؤمن بعنصرية عزرا سيتبنى هذه الأفكار كدين. ولكن الجوهر ليس بدين، إنه عنصرية المحافظة على نقاء الدم! ولا علاقة للتوحيد أو الوثنية بالموضوع، لا من قريب ولا من بعيد. لأن شكيم وقبيلته دخلوا ملة يعقوب واختتنوا!

فكيف تقبل الكتبة تهود الناس خلال السبي. ثم في عهد المكابيين بالسيف، وأجبروا المتهودين على الاختتان... وآل شكيم جاؤوهم طوعاً ومحبة، فرفضوهم!؟

علماً بأن المتهود من غير اليهود، يصير من حقه أن يتزوج اليهودية ولا ينجسها.

ولعلنا ابتعدنا كثيراً فلنقف على الآية الفصل والتي توضح الأمر على أنه يتعلق بشرف القبيلة: " فقالا أكزانية يتخذ أختنا". (تكوين 31/34).

وهذا أمر طبيعي في الحياة القبلية كعادات وتقاليد، ولكنه لا علاقة له بالإيمان والوثنية. ومن جانب آخر للقبائل شرفها القائم على الكلمة والاتفاق. وهذا لم تلتزم به قبيلة / أسرة/ يعقوب.

وبعد الجريمة تلك يخاف يعقوب من النتائج الوخيمة أمام شعب كنعان. فيقرر مغادرة المكان، ولكن يسقط ذاك على الله الذي يقول له: " قم فاصعد إلى بيت إيل". (تكوين 1/35).

ثم فيما بعد يعده بالأرض وكثرة النسل. وهذا تعويض عن الخوف والقلق تجاه شعب كنعان.

ومن بيت إيل يرحل يعقوب إلى أفراتة. وفي الطريق تلد راحيل آخر الأسباط وتموت. وأفراتة هي بيت لحم أو قربها.

ويستقر اسم الوليد الجديد بعد تغيير، على بنيامين وهو الاسم الذي اختاره يعقوب.

وفي هذه الفترة يعتدي رأوبين بن يعقوب على سرية أبيه بلهة (أمة راحيل) والتي أنجبت دانا ونفتالي.

وهذا ما سيكرره فيما بعد أبشالوم بن داود مع سراري أبيه!

ويسمع الجميع بما فعله رأوبين حتى يعقوب وكأن شيئاً لم يحدث!

والحادثة تبين التناقض بين التعصب للأخت (رأوبين أخو دينة)، وهو التعصب لدم العشيرة /القبيلة/ العائلة، وبين اغتصابه لسرية أبيه.

فالتعصب للأخت ليس التعصب للقيم والأخلاق كما يدّعي اللاهوتيون وليس للدين المنتهك، وليس لغضب يهوه.

إنه مجرد تفاهات عقول في أسرة متخلفة. وكما مر كانت تنافسات في الولادة وغيرة بين الأختين ليئة وراحيل، ويهوه دخل كطرف فيها. ولعل راحيل شمتت بعار دينة ابنة أختها. فدفعت ليئة ابنها رأوبين لمضاجعة عبدة أختها، وهذا إذلال لها ولراحيل سيدتها!

فالغيرة النسائية والمناكفة هما المحرك. ولا ننسى غيرة سارة التي أدت إلى طرد هاجر وابنها وبتدخل من يهوه!

فإذا أضفنا نزوة بدوي جاهل غَلِم، تتضح طبيعة هذه الأسرة الجاهلة، والتي عدّها اللاهوتيون أسرة الآباء المقدسة!!

واختارها عزرا لتكون أصل الشعب المختار والمميز!!

وتلك الغُلمة المسيطرة والمهيمنة على أولئك البدو رافقت الأسفار حتى الزعماء كداود وسليمان!

ويتابع يعقوب مساره إلى حبرون، حيث يلتقي أباه إسحق وقد شاخ. ثم يموت إسحق ويدفنه ولداه يعقوب وعيسو (تكوين 29/35).

ويفترق الأخوان لأن الأرض لا تتسع لممتلكاتهما معاً كما حدث بين لوط وإبراهيم.

ويذهب عيسو إلى جبل سعير حيث تستمر سلالته " أدوم". (تكوين 8/36). وزعماء سلالته ما هم إلا أسماء مدن وقرى...

وفي سفر (تثنية 4/2): " أنتم مارون بتخم إخوتكم بني عيسو الساكنين في سعير". وفي (5/2) " لعيسو قد أعطيت جبل سعير ميراثاً ". ويتم إخراج عيسو من مسرح أبناء الله، كما أخرج عزرا لوطاً وإسماعيل من قبل.

وهذا ليستمر النسل المقدس في بني يعقوب الاثني عشر.

ويسكن يعقوب " في أرض غربة أبيه في أرض كنعان". (تكوين 1/37).

* * *

ويتزوج يهوذا بن يعقوب فتاة كنعانية. أو بالأحرى لا يتزوجها كما في نسخة الملك جيمس. وفي النسخة البروتستانتية " فأخذها ودخل عليها". (تكوين 2/38).

وتلد له: عير ثم أونان ثم شيلة.

ويتزوج عير فتاة اسمها ثامار. وكان شريراً فأماته الرب. فطلب يهوذا من أونان أن يتزوج امرأة أخيه الميت ليحفظ له نسله ويعلم أونان أن النسل لن يكون له وإنما لأخيه، لذا كان يفرغ ماءه على الأرض بدلاً من رحم ثامار!

وقبح فعله في نفس الرب فأماته. ولا ندري إن كان الرب هنا هو يعقوب نفسه أو الأب يهوذا، لأنه لا يعقل أن يتدخل يهوه شخصياً في هكذا أمر منحط، وإن كانت له سوابق في التدخل في قضية المنافسة الإنجابية بين ليئة وراحيل!

ويأمر يهوذا ثامارَ أن تعود إلى بيت أهلها حتى يكبر ابنه شيلة كي يتزوجها.

وتمر السنون ويكبر شيلة وثامار في الانتظار، والأب يهوذا ينسى وعده!

فقررت ثامار أن تنتقم فتنكرت بزي مومس، واعترضت طريق يهوذا وهو ذاهب ليجز غنمه، فضاجعها على أنها مومس ولم يدر بأنها كنته! (تكوين 16/38).

وتحمل منه، ويعلم الجميع بحملها وتُتهم بالزنى، فيأمر يهوذا بحرقها، ولكنها تقدم الدليل /الرهن/ على أن حملها من حميها يهوذا، فيعفو عنها وتلد توءمين.

هذه الحكاية الدخيلة على سياق قصة يوسف، سردناها لأنها تدل على عدة أمور:

1- لم يعد الزواج من كنعانيات وثنيات / بنات البشر/ جريمة تلوث النسل المقدس لأبناء الله. فالمرأة أداة تفريخ لا أكثر إن كانت من بنات البشر.

وهذا ليس تحولاً في ذهن عزرا وليس تواضعاً أو تناقضاً. وإنما هو ميكافيلية بحتة. لأن نسل يعقوب يُعد على الأصابع وهو بحاجة إلى تبرير النسل الكثير الذي سينسبه إلى زمن موسى. والمخرج من هذا هو فتح المجال - وللضرورة - للزواج من بنات البشر. والأولاد تكون نسبتهم للأب. ورافق هذا طي الزمن أربعة قرون كما ورد في (تكوين 13/15).

2- يحق لابن الله المختار، الزنى كما فعل يهوذا ومن قبله رأوبين، حتى وإن كان مع مومس. ولم يستنكر الأمر أحد من السلالة المقدسة! فالزنى مسموح له بأية فتاة غير يهودية كما يرى عزرا. ومن هنا يقول ميمانود: " إن لليهود الحق في اغتصاب الغير مؤمنات. أي غير اليهوديات" (63).

ويقول الحاخام تام أكثر من ذلك: " إن الزنا بغير اليهود ذكوراً كانوا أو إناثاً لا عقاب عليه، لأن الأجانب من نسل الحيوانات" (63).

ولكن لا يحق لليهودي الزنى بابنة العشيرة إلا لأهداف خاصة، وإلا فالموت هو العقاب. وكذلك المرأة اليهودية لا يحق لها الزنى إلا لمصلحة وإلا فالحرق والموت!

3- إن دنس ابن الأرض ابنة أبناء الآلهة، يقتل هو وعشيرته لأنه تطاول على نسل يهوه المحترم. وهذا ما فعلوه مع شكيم وعشيرته.

4- العنصرية والمكيالان يدلان على العقلية البدوية الهمجية المتخلفة، فكيف يعدّ اللاهوتيون أولئك مقدسين ؟!

إذاً خرق قاعدة الأم اليهودية يكون في حالة قلة النسل، ويعود العمل بالقاعدة عندما يكون النسل مقبولاً.

فأين نقاء العرق في مثل هذا الواقع، وما قيمة ادعاء عزرا والصهاينة بنقاء عرقهم ؟!

* * *

4- يوسف

ذكرنا ولادة يوسف وقد وردت في (تكوين 22/30). وحكايته في (تكوين 2/37 وما بعد.).

كان أبوه يعقوب " يحب يوسف أكثر من سائر بنيه". مما جعل إخوته يكرهونه غيرة وحسداً. وكانت له أحلامه وطموحاته السيادية والزعامية!

وقد زجره الأب على حلمه برؤية الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدين له، وقال له: " ما هذا الحلم الذي رأيته أترانا نجيء أنا وأمك وإخوتك فنسجد لك إلى الأرض". (تكوين 10/37).

وذات مرة أرسله أبوه ليطمئن على إخوته وهم يرعون الأغنام. فمضى إليهم، ولما رأوه قادماً من بعيد، تآمروا على قتله ورميه في البئر. ولكن رأوبين اقترح أن يرموه في البئر فقط، فوافقوا!

ومرت قافلة إسماعيلية، فقال يهوذا تعالوا لنبيعه لها. وذهب رأوبين إلى البئر لإخراج يوسف، فلم يجده.

ففي تلك الأثناء مر تجار مدينيون وأخرجوا يوسف من البئر، ثم باعوه فيما بعد للتجار الإسماعيليين. (تكوين 28/37). وهؤلاء باعوه في مصر لفوطيفار رئيس شرط فرعون.

ولكن في (تكوين 36/37) تقول الآية باعه المدينيون في مصر لفوطيفار بينما الآية (1/39) تقول: اشتراه فوطيفار من الإسماعيليين الذين نزلوا هناك.

أما في (تكوين 4/45) يقول يوسف لإخوته: " أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر".

ولا قيمة لتضارب المعلومات هذه سواء أكان البيع بفعل الإخوة مباشرة أم عن طريق المدينيين أم الإسماعيليين، فعزرا المتخبط جرّم الجميع.

المهم أن الإخوة تخلصوا من أخيهم، وهذا ما كانوا يسعون إليه. وقد بيع بعشرين من الفضة كما باع يهوذا المسيحَ وخانه بثلاثين من الفضة!

وعاد إخوة يوسف إلى أبيهم حاملين قميصه بعد أن غمسوه بدم تيس ذبحوه. وادعوا أن وحشاً افترسه!
إن تفضيل يعقوب يوسفَ على إخوته أدى إلى زرع الكراهية له. وتفضيل ولد على ولد سمة عامة متكررة في الأسفار، وهذا يتعارض مع أصول التربية في علم النفس، فكيف تكون الشخصية قدوة وهي جاهلة أصول التربية ولا سيما والأمر يرتبط بالأخلاق والمشاعر؟! إن التفضيل لا يدل على سلامة المشاعر الإنسانية الأبوية ولا على رجاحة العقل.
وعندما يصل الإخوة إلى هذا الحد من التفكير في قتل أخيهم، لا يكون الاستنتاج بأنه عمل يدل على انهيار القيم الأخلاقية، فكل التوراة منهارة أخلاقياً. إنما الاستنتاج هو كيف تخضع العقول الساذجة لما يفرضه عزرا من أنها شخصيات مقدسة وأن ذاك دين إلهي!

* * *

وفي مصر يحقق يوسف النجاح لما يظهره من صدق وإخلاص. وتغرم بجماله امرأة فوطيفار إلى درجة أن تعرض عليه جسدها " ضاجعني". (تكوين 7/39).
ولعفته تنكسر كرامتها الأنثوية، فتدفعه إلى السجن بتهمة محاولة اغتصابها كما ادعت أمام زوجها (64).

* * *

وترد الآية في (تكوين 17/39) " العبد العبراني" لتدل على الجنس /الإثنية/ الشعب... وكما ذكرنا تحولت الصفة إلى إثنية على يد عزرا، وقد غيّب النسبة الآرامية، كمرحلة انتقالية ليثبت بالتناوب: عبرانيّ، إسرائيليّ ثم ثبت: إسرائيليّ، مع التمهيد للفظ يهوديّ إلي أن ينتهي إلى إقرار لفظ اليهوديّ.
آراميّ - عبرانيّ - إسرائيليّ – يهوديّ. والمصطلح الأول وحده يدل على الإثنية /العرق/ الشعب. أما العبرانيّ والإسرائيلي فهما صفتان عامتان تنطبقان على إثنيات متعددة، لكن إسرائيلي قد تخص عَبَدة إيل الكنعاني.
والمصطلح الأخير: يهودي، يدل على المنتمي إلى الديانة اليهودية ولا علاقة له بالإثنية.
ولكن بما أن عزرا والكتبة دمجوا المصطلحات "عبراني وإسرائيلي ويهودي" معاً، وثبت اليهود عبر التاريخ تلك المصطلحات لتكون خاصة بهم، صار من المستحيل إلغاء الزيف والخداع. وعلى كل لا يبقى المصطلح ثابت الدلالة عبر التاريخ. فهناك كثير من المصطلحات تبدل مدلولها. والواقع يقول تلك المصطلحات فقدت تاريخيتها القديمة، باستخدام التوراة لها، ودون وجود منافس لها في استخدامها.
والتاريخ والواقع يقولان أيضاً: اليهودية دين وليست بإثنية أو عرق! وكنتيجة حاسمه نقول: سواء أقال الإنسان " يهوديّ، أو عبريّ، أو إسرائيليّ " فإن ذلك لا يعني إلا الديانة فقط.
لكن إن تحدث عن تلك المصطلحات في فلسطين فنضيف إليها كلمة المستعمر. وبالتالي نقول: المستعمر الذي ديانته اليهودية وجنسيته... (من الشرق أو الغرب.) أو المستعمر الإسرائيلي أو الصهيوني... الذي جنسيته... (من الشرق... أو الغرب...).

* * *

وفي السجن يشتهر يوسف بتفسيره للأحلام. وبعد مرور سنتين يحلم الملك فرعون بحلم مزعج(65)، ولم يستطع أحد أن يفسره له. إلا أن ساقيه الخاص تذكر مقدرة يوسف، عندما كان شريكه في السجن، على تفسير الأحلام. وكيف صدق بتفسيره حلمه بخروجه من السجن وعودته إلى منصبه السابق كرئيس لسقاة الملك.

فذكر الساقي ذلك للملك، فجيء بيوسف من السجن ليفسر حلم الملك. ولما قدم يوسف ومثل أمام الملك واستمع إلى حلمه أخذ يفسره له: " سبع سنين فيها شبع عظيم" ثم " سبع سنين جوع". (تكوين 41/29-30).

وينصح فرعونَ بأن يأخذ خُمس غلة أرض مصر في سني الشبع ويخزنه احتياطاً كذخيرة لسني الجوع.

وسرّ فرعون من يوسف واستمع إلى حكاية سجنه وأعاد إليه اعتباره وقربه منه، وأوكله على شؤون المال وسماه " مُخلِّص العالم" (66).

ثم زوّجه مصرية وثنية وقد أنجبت له: منسَّى ثم أفرايم (أفرائيم). وهنا يبقى يوسف من أبناء الله والعشيرة وكذا ولداه، ولا تحدث نجاسة من الزواج بمصرية وثنية!

وكما قلنا لقد بدأت مع يعقوب مرحلة جديدة فلم يعد يرسل أبناءه إلى فدان آرام للزواج من العشيرة. مما يدل على أن القضية ليست قضية إيمان ووثنية ولم تعد الآن قضية حفظ السلالة النقية الدم.

إن القضية قضية أرض يخطط عزرا والكتبة للاستيلاء عليها. وبما أن الأرض مسكونة وعامرة بأهلها الشرعيين، فلا بد من إكثار النسل لحكايات سرقوها، ونسلها يُعدّ على الأصابع، ليكونوا هم النتاج الطبيعي لتلك السلالة الصغيرة. لذا فتح عزرا الباب للزواج من الوثنيات والشعوب الأخرى. فالمهم هو الأب أما الأم فهي أداة تفريخ!!

* * *

وابتدأت سنوات القحط تعم مصر وأرض كنعان - كما في النص - فأرسل يعقوب أولاده العشرة /عدا الصغير/ إلى مصر ليشتروا القمح.

ولما وصلوا ورآهم يوسف عرفهم لكنه قال لهم: " أنتم جواسيس جئتم لتروا عورة الأرض". (تكوين 42/9). وأقسم بحياة فرعون " لا تخرجون من ههنا إلا بمجيء أخيكم الصغير هنا". (تكوين 42/15). وأبقى شمعون رهينة عنده حتى يأتوه بأخيه الصغير.

وتمر الآية (تكوين 42/23): " ولم يكونوا يعلمون أن يوسف يفهم ذلك لأنه جعل ترجماناً بينه وبينهم".

فلغة يوسف وإخوته هي الآرامية كما يفترض بحسب النص، أما لغة مصر والتي تعلمها يوسف خلال وجوده فيها، فهي لغة أخرى. ولا ندري ما هي! أهي إحدى اللهجات العربية أم المصرية الهيروغليفية ؟!

ويعود الإخوة بعد نفاد القمح ومعهم الأخ الأصغر بنيامين، بعد أن أقنعوا الأب يعقوب بسلامة نواياهم.

ويجتمع يوسف معهم ويكشف لهم شخصيته الحقيقية: " فقال أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر". (تكوين 45/4).

ويقول أيضاً: " ليس أنتم أرسلتموني إلى هنا بل الله". (تكوين 45/8). و" فقد أرسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض". (تكوين 45/7).

ويعلم فرعون بأمر يوسف وإخوته، فيطلب من يوسف إحضار أهله كلهم من أرض كنعان " لأن خيرات جميع أرض مصر لكم". (تكوين 20/45).

وهكذا تشدّ العائلة الرحال إلى مصر. وفي الطريق وعند بئر السبع يقوم يعقوب بـ " ذبح ذبائح لإله أبيه إسحق". (تكوين 1/46).

ونلاحظ استخدام: إله أبيه. ونرى دائماً إله أبيك، إلهك، إله إبراهيم... ولا نقرأ: إله البشر، العالمين، الكون، الآخرين، مما يؤكد خصوصية الإله اليهودي، إله القبيلة.. وهذه هي الوثنية عينها!

ولأن يعقوب خائف من هذه المغامرة التي يقودها أبناؤه الذين يشك فيهم وفي مقاصدهم، يأتيه الله في المنام: " أنا الله إله أبيك. لا تخف من النزول إلى مصر لأني أجعلك أمة عظيمة هناك". (تكوين 3/46).

إن الخوف الدائم من الترحال، دفعه إلى الاستقرار بعد أن اشترى حقلاً في أرض حمور، لكنه فر منها بعد المجزرة التي قام بها ولداه، واستقر في حبرون.

والخوف كان ملازماً له طيلة حياته - كما مر - لما كان يحمله من نوايا شريرة.

ويصل يعقوب وأسرته إلى مصر وعددهم: " جميع النفوس التي أتت إلى مصر الخارجة من صلبه ما عدا نساء بنيه، جميع النفوس ست وستون نفساً ". (تكوين 26/46).

ويتم اللقاء، ويقدمهم يوسف إلى فرعون " والرجال رعاة غنم". (تكوين 32/46). و" عبيدك أهل مواش منذ صبانا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعاً ". (تكوين 34/46).

فهم رعاة متنقلون هم وآباؤهم. وكان المصريون يعتمدون على الزراعة وينظرون إلى الرعاة نظرة دونية بل ويعدونهم رجساً. وهذه النظرة تحمل خلفيات اجتماعية واقتصادية. فأهل مصر حضريون يعملون في الزراعة ولهم استقرارهم وحضارتهم ورقيهم وتطورهم. أما الرعاة البدو فهم متخلفون وجهلة ويعتمدون على التجارة بالمواشي ومشتقات الألبان، وهذه تعكس أخلاقيتها في البيع والشراء، لأنها قائمة على الربح، وهذا يعني كسب المزيد من الثروات؛ أي عطاء قليل مقابل الأخذ الكثير.

ومن جانب آخر لا يرتبطون بأرض ما. فعلاقتهم بالأرض علاقة عابرة ترتبط بالرعي والتجارة. ومن هنا يمكن الاستنتاج بأن وعود يهوه لما يسمى بالآباء كلها إسقاطات من عزرا والكتبة، وإلا كيف نفسر تخلي يعقوب عن الأرض الوعد وهو مستقر فيها، ليذهب إلى مصر هو وأسرته وممتلكاته ؟!

وتستقر الأسرة في أرض جاسان في مصر إلى أن يرتب يوسف لهم الوضع النهائي في أفضل مكان في تلك المنطقة من جاسان وهي: " أرض رعمسيس" وبناء على أوامر فرعون!

وكنتيجة للقحط استطاع يوسف أن يحول شعب مصر الحر إلى عبيد لفرعون، بعد أن جردهم من ممتلكاتهم كلها لقاء حصولهم على القمح. فقد باعهم القمح بالفضة أولاً حتى نفدت الفضة من بين أيديهم. ثم باعهم القمح بالمواشي حتى استملكها جميعاً. ولما نفد القمح وجاؤوا باعهم القمح مقابل أراضيهم ونفوسهم. (تكوين 14/47-23). " فصارت الأرض لفرعون". " إني قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون". (23/47).

وفي الوقت الذي استعبد فيه يوسف الشعبَ المصري، كانت أسرته تمتلك أرض رعمسيس. ونموا وكثروا جداً وازدادت ثرواتهم!

وبعد سبع عشرة سنة من مجيء أهله إلى مصر شعر يعقوب بدنو أجله، فأخذ يملي وصاياه ونصائحه.

وقد اعترف بشرعية ولديّ يوسف (منسّى، أفرايم) وباركهما.

ومع أنه يخطئ - لثقل بصره - في البكر بينهما ويعدّ البكر أفرايم ويباركه على ذاك الأساس، وينبهه يوسف على خطئه لأن البكر هو منسّى، إلا أنه لا يلتفت إلى ملاحظة يوسف، فقد انتهى الأمر. والأمر نفسه حدث مع أبيه إسحق كما نذكر فعلى الرغم من معرفة الحقيقة يرفض تصحيح الخطأ، ويقر الخداع الذي قام به يعقوب بمؤازرة أمه!

لقد قرر عزرا مسار الآباء الوراثي وأخرج من الدائرة من لا يريده والمسار لا علاقة له بالتوحيد أو بالزواج من وثنيات.

ثم يخبر الأب يعقوبُ يوسفَ عن الأرض الوعد: "ها أنا أموت ولكن اللّه سيكون معكم ويردكم إلى أرض آبائكم". (تكوين 21/48). ويمنح يوسفَ حصة في أرض كنعان: " وأنا قد أعطيتك سهماً علاوة على إخوتك، وهو الذي أخذته من يد الأموريين بسيفي وقوسي". (تكوين 22/48).

ولم يخبرنا عزرا متى كان ذلك. فهو لم يقدم لنا يعقوب إلا جباناً مخادعاً يقتله الخوف والذل!!

ولكنه تحدث عن شراء قطعة أرض من حمور والتي نصب عليها خيامه ثم تركها هارباً بعد الجريمة التي اقترفها ولداه!

ويتابع يعقوب كلامه واصفاً سمات كل واحد منهم ومفضلاً يوسف ويهوذا على الآخرين.

والمتتبع للأسفار يجد أن سلالة يوسف ويهوذا ستندمجان معاً ويصير يهوذا اسماً للملكة المنشقة وتارة يعمم ليطلق على المملكة اليهودية المزعومة.

وكانت الوصية الأخيرة أن يدفنوه إلى جانب زوجته راحيل في مدفن العائلة في مغارة المكفيلة. ثم يقوم يوسف بتنفيذ الوصية.

ومن ثم يموت يوسف بعد أن يعظ ويوصي: " أنا أموت ولكن اللّه سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب". (تكوين 24/50).

وحنطوه ولم يدفنوه مباشرة في أرض كنعان كأبيه إلى أن أخرجه موسى من مصر بعد أربعة قرون (الخروج 9/13). وتذكر الآية أنهم أخرجوا عظامه. ومعنى ذلك لم يكن محنطاً (مومياء).

والسؤال لِمَ لَمْ يدفنوه مباشرة في المقبرة ولا سيما أن المسافة التوراتية بين مصر وأرض كنعان لا تتجاوز بضع ساعات!؟

ثم لِمَ لَمْ تعد الأسرة بعد وفاة يعقوب أو يوسف إلى الأرض الموعودة، وبقيت في مصر؟!

لقد أراد عزرا والكتبة خلق صلة بين الآباء الأولين، وبين موسى عبر جثة يوسف! ومن خلال سلالات الأسباط.

* * *

إن النقطة الرئيسة في يوسف هي استلامه لشؤون مصر تحت إمرة فرعون. ومرتبته تلي مرتبة فرعون مباشرة أي الشخصية الثانية في هرم السلطة.

ولقد جمع الكميات الهائلة من القمح في سنوات الخير. ولما حل القحط كان السيد المطلق، وسيد الموقف!

فالجميع لجأ إليه لأن بيديه خبز حياتهم فقد احتكر القمح وحده.

ومواهبه في الاستغلال والجشع تجلّت في تجريد شعب مصر من الأموال، ثم المواشي، ثم الأرض، ثم أجبرهم على بيع نفوسهم حتى لا يموتوا جوعاً!!

لقد استغل القحط لنهب مال الشعب وممتلكاته ثم جعلهم عبيداً لفرعون.

والمضحك هو احتجاج بني إسرائيل على العبودية في مصر (سفر الخروج)، في الوقت الذي استعبد فيه يوسف شعب مصر كله، وعدّوه عبقرية!! أو ليست التجارة الحرة الجشعة والاحتكارية، تلتقي رجل الاقتصاد يوسف ؟!

أوليس الاحتكار قائماً على إلغاء المنافس، والسعي إلى مركزة المال ؟!

إن يوسف المفسر للأحلام، لم تكن أحلام طفولته إلا انعكاساً لحب سيطرته على إخوته، وقد استطاع أن يفوز بقلب أبيه متجاوزاً عشرة أمامه، ورامياً حكاية البكر خلف ظهر أبيه!

يقول إريك فروم: " وما من ريب أن هذا الحلم تعبير عن طموح يوسف ولعله لولاه لما توصل إلى المكانة الرفيعة التي أحرزها " (67).

والحلم كما يراه فروم " نوع من النشاط الذهني في حالة النوم" (68).

واستمر مفهوم الحلم السلطوي والسياديّ مرافقاً لحياته. ولم يوظف مهارته في تفسير الأحلام وكذلك قدراته الاقتصادية في سبيل الإنسانية، في سبيل الشعب المصري. بل لم يفكر بتنبيه المصريين إلى أخذ الاحتياط من القحط المقبل عليهم.

فقد أبقى الأمر سراً بينه وبين فرعون والسلطة. وأخذ يخطط لاستعباد الشعب الذي آواه هو وأهله!

وقد دفع الشعب المسكين الثمن لدهاء يوسف وخبثه!

أين الضمير الذي هو أحد أشكال التعبير عن الوعي الأخلاقي، أم لا توجد محاكمة ذاتية أخلاقية في الأساس ؟!

وبما أن الإنسان مسؤول عن اختياره للقيم، نستطيع أن نصف ضمير يوسف بالضمير الميت!

إن الأخلاق ليست أفكاراً معلقة في الهواء، إنما هي نتاج العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وموقع الإنسان من تلك الجدلية لكن عزرا واللاهوتيين جعلوا الأخلاق مرتبطة بيهوه، وعزلوها عن العلاقات الاجتماعية الاقتصادية، وبالتالي صار الارتباط بيهوه الخاص جداً هو الأخلاق والدين وقيمة القيم. وهذا الأمر الخاطئ واللا أخلاقي أنتج الشعب المختار. وكل القيم خارج تلك المقولة لا قيمة لها بنظرهم. ومن هنا لا قيمة لتقييم السلوك الإنساني اليهودي من قبل مجتمع الغير /الأجانب/ الغوييم/...!!

* * *

إن حياة تلك الأسرة البدوية والتي بدأت من إبراهيم فإسحق فيعقوب ثم بنيه الاثني عشر، اعتمدت على الرعي والتجارة بالماشية.

وما تنقلاتها إلا للبحث عن الماء والكلأ أو التجارة. وهذا الأمر يفرض عليها الاحتكاك بالآخرين ودخول المدن أو القرى.

لقد كانت المنطقة حضارية وتعتمد على الزراعة والصناعة والمهن المختلفة وكانوا ينظرون إلى الرعاة نظرة عطف ورثاء، وفي مصر نظروا إليهم - وكما في النص التوراتي - كرجس بسبب مهنتهم وسلوكهم.

فحياة البدو في الصحراء القاسية، والتعرض لأهوالها ولقطاع الطرق، والمخاوف الناجمة عن لياليها الموحشة... أكسبتهم الخشونة والقسوة والقلق والغيرة والحسد... وكتجار اكتسبوا أخلاقية المهنة من كذب ومكر وخداع واستغباء الآخرين.

وكقبيلة غارقة في قبليتها، يصير دم العشيرة مقدساً يجب الحفاظ عليه. وللزعامة مكانة مقدسة، وكذلك الابن البكر فهو الوريث الشرعي للزعيم وهو ولي العهد القادم.

وهنا وكما في أية حياة قبلية يمكن للزعيم، الأب الروحي، أن يفضل ابناً على ابن وأن يجعل الزعامة فيمن يشاء من أبنائه.

وكل تلك المفاهيم القبلية وبكل أبعادها وضمن سياق التاريخ والتطور والحضارة، عادية جداً.

وعلى ضوء ذلك يجب فهم حقيقة أولئك الآباء. ولكن التوراة قدمت تاريخاً ميثولوجياً، استطاعت فيه أن توظف ما سرقته من تراث المنطقة ليخدم فكرة الاستيلاء على أرض الغير /كنعان/.

ولأجل خدمة ذاك الهدف قام عزرا والكتبة بالتحوير والتعديل والتغيير والتزوير... لحشو الإسقاطات التي يريدونها. ولكنهم أخفقوا في خلق نسيج متناسق ومنظم دونما تناقض أو تنافر أو تعارض.

والشجرة العائلية التي ذكرتها التوراة، والأنساب التي سلسلتها بدءاً من آدم وانتهاء بآخر زعمائها جاءت على نمط الأساطير التي كانت تهتم بسلالات الملوك والآلهة والصلة بينهما.

وحياة العائلة كانت بعيدة كل البعد عن فكرة الأرض الميعاد المركبة قسراً عليها. وكذلك قضية دم العشيرة والتوحيد والوثنية كانت متناقضة ولا منطقية...

إن الخطوط العريضة التي تم استنتاجها من خلال التحليل:

1- آدم جسد العلاقة الأولى بيهوه، وفرز ابن الله عن ابن البشر. وجعل اليهودي /الراعي/ ابن الله، والفلاح /المزارع/ ابن كنعان، المجرم والقاتل.

2- نوح آدم الثاني، أبو البشرية ومصنفها، بارك ولديه سام ويافث ومنهما النسل الآسيويّ والأوروبيّ. أما حام فمنه النسل الإفريقيّ ولم يمسه باللعن، إلا كنعان ابن حام لعنه وجعله عبداً لإخوته. فهو بمعنى آخر بارك البشرية كلها عدا شعب كنعان!!

3- مسار الزعامة عبر أب واحد مختار أدى إلى إخراج ما عداه من الدائرة المقدسة كلوط وإسماعيل وعيسو. ثم مع يعقوب تتغير الصورة لأهداف ستأتي فيما بعد.

4- السلالة القائمة على نقاوة الدم امتدت من إبراهيم وحتى يعقوب فالأب والأم ينتميان إلى العشيرة الآرامية. ومع أسباط يعقوب يتبدل المفهوم باتجاه الأب /البطريركية/، نتيجة الاختلاط والتزاوج من شعوب المنطقة.

5- إبراهيم وإسحق ويعقوب، والأسباط وعلى رأسهم يوسف جسّدوا قضيتين:

1- الشعب المختار: وهذا يعني أن اليهود هم شعب الله، وغيرهم /الناس/ شعب الأرض/ الغوييم(69)... وإرهاصات هذه القضية تعود إلى آدم ونوح.

2- الأرض الوعد الممنوحة من يهوه الخاص بهم.

وأولئك الآباء هم الفكرة، المفهوم الأساس في جوهر ديانة عزرا والكتبة.

وسيأتي في الفصل القادم موسى ويشوع ليمثلا الجانب العملي /التطبيقي/ للفكرة.

* * *

إن حركة إبراهيم كبدوي تاجر، كانت ترسم حدود الدولة التي كان يحلم بها عزرا والكتبة، ومن النيل إلى الفرات.

وشراؤه مغارة المكفيلة كمدفن للعائلة، ما هو إلا اللبنة الأولى في التملك، ولحقت بها قطعة الأرض التي اشتراها يعقوب. فكانتا في تصور عزرا بداية الشرعية. علماً بأن سكان كنعان فتحوا أذرعتهم لأولئك الآباء كغرباء مساكين وضعفاء وقليلي العدد.

وبما أن حلم عزرا لن يتحقق من خلال أولئك الآباء القلائل، لذا اكتفى منهم بالاستفادة من شرعية الوعد الإلهي والأصل العشائري. إضافة إلى نشر مبادئه الميكافيلية والبراجماتية.

فثالوث عزرا " يهوه، الأرض، الشعب" والطرق المؤدية إلى هدفه الاستعماري، كل ذلك مبثوث في سفر التكوين، وسيأخذ أبعاده في بقية الأسفار ليعني تماماً: الوثنية - العنصرية – الاستعمار. ولكي يحمي جماعته القليلة والضعيفة - ربطها بالانعزالية العنصرية، مما أدى إلى شعورها بالخوف والقلق، ودفعها باتجاه الكذب والخداع والمكر.

وأمّن لها إلهاً خاصاً يعدها بالحماية والرعاية وتحقيق الأماني، ليمنحها الاطمئنان وما هو إلا تعويض عن العجز والضعف.

وجعلهم محور الوجود، فهم المركز وما عداهم هامش يعبرونه إلى هامش آخر... مما أدى إلى خلق النرجسية والأنانية فيهم.

وجعلهم في مواقع الكسب دون العطاء. فليس المطلوب منهم تقديم أيّ شيء، بل يأخذون كل شيء دون أيّ عناء.

* * *

هوامش الفصل الثاني: الشخصيات الأول

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة - المجلد الأول - الجزء الثاني – ص 368.

(2) ميرساد إلياد: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية - الجزء الأول، الفصل السابع - ص 206.

(3) الكتاب المقدس - الطبعة الكاثوليكية – الحواشي - ص 2.

(4) معجم اللاهوت الكتابي - ص 312.

(5) ندرة اليازجي: ردّ على التوراة - (المعرفة والسقوط) - ص 169.

(6) راجع كتابيّ فرويد: قلق في الحضارة - مستقبل وهم.

(7) في كتاب (مستقبل وهم) لفرويد يطرح تفسيراً آخر لنشوء الدين يختلف عما طرحه في (الطوطم والتابو). فهو يقول: إن عجز الإنسان أمام قوى الطبيعة وجهله بها وبقوانينها، يدفعه للتزلف إليها، وذلك ليحمي نفسه منها، نتيجة خوفه من أذاها وبطشها.

(8) محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب - ص99 وما بعد.

(9) الكتاب المقدس - الطبعة الكاثوليكية - الحواشي ص 2.

(10) تكرر الكتب التاريخية العربية القديمة التواريخ التوراتية إضافة إلى روايات تنفرد بها. والطبري هو المصدر الأول. ومن الروايات التي يذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق - الجزء الأول - ص 30 وما بعد: بين آدم ونوح عشرة آباء، وكذلك بين نوح وإبراهيم لكن بين إبراهيم وموسى سبعة آباء. وعدد السنوات ما بين آدم وعيسى 5432 سنة. وغيره أوصلها إلى سبعة آلاف سنة.

لقد اهتم التراث القديم عند الشعوب بقضية السلالات والتي أوصلوها إلى الإله. وما عزرا إلا استمرار لهؤلاء.

(11) في التكوين تفاصيل صنع السفينة وعدد أيام الطوفان. وهي مسروقة من ملحمة جلجامش وقد أجرينا موازنة بين بعض آيات الطوفان وملحمة جلجامش في كتاب (نقد الدين اليهودي).

(12) ول ديورانت: قصة الحضارة - المجلد الأول - الجزء الثاني ص 16. وفي ص 217 يتحدث عن الخلق والطوفان البابليّ.

وهناك كتب كثيرة تحدثت عن الأساطير القديمة ومقارنة الأساطير بنصوص التوراة. راجع على سبيل المثال: كنوز الأعماق - قراءة في ملحمة جلجامش، ومغامرة العقل الأولى: لفراس السواح. ويذكر المؤرخون أن فيضاناً دمر بلاد ما بين النهرين عام 2700 ق.م تقريباً.

(13) المذبح مكان لتقديم القرابين. وكانت المذابح القديمة تقام على نصب مرتفعة مربعة أو مستطيلة، وتقدم عليها الضحايا (من بشر ثم فيما بعد من الحيوانات). راجع كتاب " المعتقدات الكنعانية" ص260 لخزعل الماجدي.

(14) يتحدث يونغ عن اللاشعور في كتابه " الدين في ضوء علم النفس" ص15، فيقول: " يمكننا الافتراض بأن الشخصية الإنسانية مكونة من شيئين: أولهما، الواعية (الشعور) وما تشتمل عليه. والثاني نفس خافية (اللاشعور)،

خلفية، واسعة بلا حدود. أما الأولى فيمكننا حدّها وتعيينها في شيء من الوضوح، وأما مجمل الشخصية الإنسانية فينبغي أن نسلم باستحالة وصفها أو حدها تماماً. بكلمة أخرى، هناك إضافة على كل شخصية لا تقبل التعيين ولا الحد. وهذه الشخصية مكونة من جزء شعوري تتناوله الملاحظة، ولا يشتمل على عوامل معينة نضطر إلى افتراضها لكي نفسر وقائع ملاحظة بعينها، ومن جزء غير شعوري يشتمل على عوامل مجهولة تشكل ما نسميه " الخافية (اللا شعور)".

ملاحظة: الشعور، اللا شعور: اللذان بين القوسين إضافة من عندي ولم تردا في الترجمة. وهما المصطلحان الشائعان.

(15) تاريخ اليعقوبي: ج1، ص15.

(16) خزعل الماجدي: المعتقدات الكنعانية – ص203.

(17) تاريخ ابن خلدون - المجلد الأول – ص105.

(18) المصدر السابق – ص106.

(19) المصدر السابق – ص107.

(20) وردت سلالة سام وحام ويافث في التكوين - الإصحاح العاشر. وبعد أن تذكر التوراة سلالة كنعان تقول: " وبعد ذلك تفرقت عشائر (قبائل) الكنعانيّ. (تكوين 81/01). وتحدد التوراة منطقة كنعان (تكوين 91/01). " من صيدون باتجاه الجنوب نحو جرار وغزة جنوباً. وشرقاً نحو سدوم وعمورة. وأدمة وصبوييم إلى لاشع".

وتناقل المؤرخون العرب تلك السلالات وسادت رواية وهب بن منبه " إن سام بن نوح أبو العرب وفارس والروم، وإن حام أبو السودان، وإن يافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج".

وأولئك المؤرخون حملوا على كنعان كما فعلت التوراة. فاليعقوبي في تاريخه (ج1، ص17). يبرر اضطهاد بني كنعان وقتلهم، لأن كنعان أول من عمل الملاهي والغناء والمزامير بل و" أطاع الشيطان في اللعب والباطل". ويقول (ص19): " وأفسد ولد كنعان". ثم يتابع ويقول: إن عابر بن شالح.. حذر بني سام أن يختلطوا بولد كنعان المغيّر لدين آبائه والمرتكب للمعاصي.

ويروي ابن عساكر في تاريخ دمشق (ج1، ص 8): " ولحق قوم من بني كنعان بن حام بالشام. فسميت بالشام حيث تشآموا إليها وكانت الشام يقال لها أرض بني كنعان. ثم جاءت بنو إسرائيل فقتلوهم بها ونفوهم عنها. فكانت الشام لبني إسرائيل". ويذكر ابن عساكر في كتابه السابق (ج1، ص10) أن سام بالسريانية شام. راجع كتاب المعتقدات الكنعانية: د. خزعل الماجدي، حيث يرى أن أرض كنعان فلسطين كان اسمها قبل مجيء العبرانيين: مريام أو مريم بالاستناد إلى ملحمة اللالي (الملك الكبير): " شعب مريام الشمالية" (ص 21).

المهم هو أن المؤرخين العرب القدماء تأثروا بالتوراة واعتمدوا عليها في تأريخهم لشخصيات التوراة وأحداثها. (راجع كتاب " الإسرائيليات" لأحمد بهاء الدين).

(21) فراس السواح: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم – ص250.

(22) يذكر المؤرخون أن إبراهيم ولد في القرن التاسع عشر قبل الميلاد (1850 ق.م تقريباً). وفي عهد نمرود الذي كان "جباراً في الأرض". (تكوين 8/01). ويقدرون عدد السنين بين ولادته وزمن موسى بستمئة سنة. ومن المؤرخين من يذكر روايات متعددة منها أن بين إبراهيم وموسى ألف سنة. (راجع كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. ج1، ص331 - لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي). ونسبه كما ترويه التوراة (تكوين 11/11) وما بعد: سام - أرفشكاد - شالح - عابر - فالج - رعو - سروج - ناحور - تارح - (أبرام، ناحور، هاران). وهاران - (لوط، ملكة، يسكة).

والمؤرخون العرب يذكرون تلك السلالة: إبراهيم بن تارخ بن ناخور بن ساروج بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ... وأحياناً نجد إضافة جد كما في الكامل في التاريخ لابن الأثير:.... شالخ بن قينان بن أرفخشذ. وقينان عند الطبري هو نفسه آزر. والملاحظ وجود تسعة آباء أو عشرة بين إبراهيم وسام، بينما بين نمرود وسام ثلاثة! (تكوين 10/6-8): نمرود بن كوش بن حام (بن سام)!

(23) تاريخ ابن خلدون - المجلد الثاني – ص80.

(24) مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين - الجزء الأول - القسم الأول - ص 414.

(25) محمد عزة دروزة: تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم – ص30. وهو يرى أن اليهود عرب ولكنهم فرع فاسد وشرير إلى الأبد!!

والجدير بالذكر أن التوراة ركزت على آرامية إبراهيم ونسله حتى يعقوب كما في (تكوين: 3/24-10، 20/25، 43/27، 2/28-5، 20/31). وتذكر أن آرام أحد أبناء سام بن نوح. كما يرد كأحد أبناء قموئيل بن ناحور أخي إبراهيم. ودولة الآراميين شملت جنوبي سورية وقسماً من فلسطين والأردن. واللغة الآرامية سرقها اليهود وسموها بالعبرية. وليست المشكلة مشكلة أنساب، وأصل إبراهيم، فالتوراة اعتمدت على تراث المنطقة وسرقته. والمهم كما يقول د. أحمد داود في كتابه " تاريخ سوريا القديم": هو غربلة الإضافة اليهودية على تراث المنطقة، من تعديل وتشويه وتزوير. ولكن الأهم هو الغربال!!

(26) لقد دعت كثير من الشعوب القديمة إلهها أباً لأن الصفة الأبوية كما يقول (المعجم اللاهوتي الكتابي) في بحث سمو الأبوة الإلهية (ص21) " تتضمن في الإله مهمة الحماية والسيادة وغالباً، الخلق". وإن إيل الإله الكنعاني سمي بـ (الملك الأب شونم). ثم يستنتج المعجم دخول هذا المفهوم إلى الدين " دخلت فكرة الأبوة الإلهية الكتاب المقدس".

(27) تقول الموسوعة الكتابية: أور كلدان: يعتقد أنها جبل المكبر وتبعد 12كم عن الناصرية على نهر الفرات جنوبي العراق.

(28) الموسوعة الكتابية. وحاران حالياً تخضع للسلطة التركية.

(29) يقر المؤرخون العرب بكذبة إبراهيم ولكنهم يقولون: أختي في الإسلام جاعلين الكناية مخرجاً للكذب كما يذكر الطبري. ولكن أليست الكناية تحايلاً وخداعاً واستخفافاً بعقل الآخر؟! والتوراة (تكوين 12/20) تقول هي أخته من أم ثانية! ونحن نجد في الشعر المصري القديم معنى أخ وأخت كمعنى حبيب وحبيبة (راجع قصة الحضارة - المجلد

الأول - الجزء الثاني ص95). ولكن إبراهيم لم يتحدث بلغة الفراعنة ولم يتحدث بلغة شعرائهم. لقد أراده عزرا أن يكذب ليؤدلج للميكافيلية والبراجماتية!

والمؤرخون العرب جعلوا المصريين عرباً، وأسماء ملوكهم عربية مثل: الوليد بن مصعب - الريان ابن الوليد... ولسنا في إطار مناقشة حقيقة مصر، أهي المعروفة الآن بهذا الاسم، أم تلك التي تحدث عنها كمال الصليبي وأحمد داود في غرب الجزيرة العربية. ولقد ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق - الجزء السادس - ص 192، أن إبراهيم خرج من كوثي (مكان ولادته) سرياني اللسان (آرامي)، فلما عبر الفرات من حران (حاران) غير الله لسانه فقيل عبراني حيث عبر الفرات!

ومعنى ذلك بحسب رؤية المؤرخين العرب، كانت لغة إبراهيم مفهومة في مصر ولا توجد أية كناية!

(30) يذكر ابن الأثير في كتابه " الكامل في التاريخ" (م1 ص77): أن فرعون قال لإبراهيم: " زينها وأرسلها إليَّ ". فنفذ إبراهيم ذلك.

(31) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1 ج2 – ص329.

(32) د. جورجي كنعان: أمجاد إسرائيل في أرض فلسطين - ص 47.

(33) الملوك هنا ما هم إلا رؤوساء قبائل أو مدن أو قرى/ دولة المدينة، دولة القرية/. وفي الحكاية يصل إبراهيم إلى حوبة يسار دمشق، وبعد أن استعاد الممتلكات المستلبة والسبي عاد!! فهذه التنقلات السريعة إحدى المرتكزات التي استند إليها د. أحمد داود في جغرافية التوراة الجديدة في جزيرة العرب.

(34) معجم اللاهوت الكتابي(ملكيصادق) ص 774. وراجع ما كتبه عنه سهيل ديب في كتابه " التوراة بين الوثنية والتوحيد" – ص 34 وما بعد.

(35) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة - ص 178.

(36) بما أن إبراهيم ليس لديه النسل الكافي للاستيلاء على أرض كنعان يقحم المؤلف آية غريبة عن السياق (تكوين 13/15): " فقال /الرب/ لأبرام اعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم، فيذلونهم أربع مئة سنة. ثم الأمة التي يستعبدون لها أنا أدينها، وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة". ثم يعلل (المؤلف) العودة بعد هذه المدة (تكوين 16/15): " وفي الجيل الرابع يرجعون إلى هاهنا. لأن ذنب الأموريين ليس الآن كاملاً ".

وتلفيق هذه القرون المغيبة والمسقطة قسراً على السياق ما هو إلا لتبرير إكثار النسل من جانب، ومن جانب آخر لربط جماعة موسى بنسل إبراهيم حيث يستقر أسباط يعقوب في مصر.

(37) إحدى الروايات - كما عند ابن خلدون - تقول: إن ملك الأردن هو الذي أهدى سارةَ هاجرَ، وقد كانت هاجر أمة لبعض ملوك القبط ! وبناء على هذه الرواية نسأل: ما علاقة ملك الأردن بسارة ؟! راجع تاريخ ابن خلدون م2 ص39.

(38) إيل أي الله وفي نسخة الملك جيمس ونحن ننقل المصطلحات: الله، يهوه، الرب، إيل، كما وردت في النص العربي أو الإنكليزي. ولكن لا نعرف المصطلح نفسه كيف ورد في النصوص القديمة سواء اليونانية أو العبرية فلفظة يهوه أكثر الأسماء تمييزاً لإله اليهود. وإلوهيم المشتقة من إيل هي أكثر الأسماء لله المستخدمة في الكتاب المقدس كما

تذكر الموسوعة الكتابية فقد وردت 2555 مرة. وفي سفر التكوين وحده وردت 200 مرة. فالذين ترجموا العهد القديم إلى العربية أو الإنكليزية لم يتقيدوا بترجمة تلك الألفاظ بدقة فقد تكون في الأصل إيل ونجدها في الترجمة الله أو الرب. لذلك نشك باستخدام كلمة الله ونعدها غير صحيحة.

(39) راجع قصة الحضارة لول ديورانت - م1 ج2 – ص 345-346.

(40) العُصاب: اضطراب وظيفي في النفس (يونغ: علم النفس التحليلي - ص94). والفوبيا: مرض الخوف (الخواف).

(41) ابن الأثير: الكامل في التاريخ - م1 – ص79. والمؤرخون يذكرون هذا الكلام بما في ذلك ابن خلدون.

(42) في الطبعة الكاثوليكية " ونزل إبراهيم أرض فلسطين أياماً كثيرة "، وفي نسخة الملك جيمس: The Philistines' land.

والمعروف تاريخياً أن فلسطين في ذلك التاريخ لم يكن اسمها فلسطين ولا في زمن عزرا. وهذا ما يجعلنا في شك حقيقي حول الزمن الذي كتبت فيه الأسفار. والذي نظنه قد بدأ من القرن الثالث قبل الميلاد أو الثاني وامتد حتى بعد الميلاد.

إن كتب التاريخ الدائرة في فلك التوراة تقول: إن الفلست Peleset شعب من كريت وغيرها من المدن اليونانية وقد نزلوا على الساحل في غزة سنة 1184 ق.م. وامتد نفوذهم الساحلي حتى صيدا. وهؤلاء ومع مجيء القرن الرابع قبل الميلاد ذابوا في السكان وشعوب المنطقة وانتهى أمرهم. وقد أحيا الرومان كلمة فلسطين فكانت تطلق على الساحل، وهي بمعنى: (الغرباء، المهاجرون). وفي القرن الرابع الميلادي عمّ استخدام كلمة فلسطين كما يقول مصطفى مراد الدباغ في كتابه (بلادنا فلسطين م1 ص542).

وفي اللغة الإنكليزية تستخدم كلمة فلسطين Philistine بمعنى: الفلسطيني القديم: شخص ماديّ النزعة - محافظ - متعلق بكل ما هو قديم - اللامثقف أو اللامبالي بالثقافة - عدو التقدم - غير مثقف، غير مستنير. وقد انتقل هذا الأمر إلى القواميس (الإنكليزية العربية) كما في طبعات المورد القديمة لمنير البعلبكي. أما في الطبعات الحديثة فقد اقتصر المورد على: شخص ماديّ النزعة - محافظ - متعلق بكل ما هو قديم.

(43) تحليل نفساني لتاريخ الصهيونية: غونين - عرض: د. صفية سعادة - شؤون فلسطينية - العدد (76) ص 171.

(44) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1- ج2- ص 29.

(45) د. خزعل الماجدي: المعتقدات الكنعانية – ص 117.

(46) فريزر: الغصن الذهبي – ص 217-218.

(47) ذكر المؤرخون العرب القدماء أن الذبيح هو إسماعيل لأنه البكر وليس إسحق. فالطبري يذكر الروايتين ويميل إلى إسماعيل. وتبعه بقية المؤرخين. راجع على سبيل المثال كتاب أبي الفداء: البداية والنهاية ج1 ص 191، فهو يعد الرواية الصحيحة التي تتحدث عن إسماعيل. وكذلك ابن خلدون في تاريخه م2 – ص 42.

لكن ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، تتساوى عنده الروايات المتعارضة. راجع م1 ص 83 وما بعد.

(48) تاريخ الطبري - ج1 ص 185. والملفت للنظر أن المؤرخين العرب القدماء لم يرق لهم أن يتزوج إسحق ثم يعقوب من العشيرة الوثنية، لذلك جعلوا أهل زوجتيهما مؤمنين. فابن الأثير في كتابه: الكامل في التاريخ - م1 ص 76-77 يقول: إن الذين آمنوا مع إبراهيم هم لوط بن هاران (ورجال من قومه)، وسارة ابنة عم إبراهيم، وناحور أبو بتوئيل، وبتوئيل أبو لابان، وربقا (زوجة إسحاق)، ولابان أبو ليئة، وراحيل (زوجتي يعقوب).

والتوراة ذكرت أن قطورة كنعانية وثنية، فكيف تزوجها إبراهيم ؟

(49) فراس السواح: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم – ص 196.

(50) ندرة اليازجي: رد على التوراة – ص 163 – الحاشية رقم (9).

(51) المرجع السابق – الحاشية رقم (8). فاليازجي يرى أن إبراهيم ليس شخصاً واقعياً. وهو رمز لكلمات مترادفة: السابع، زحل، يهوه، إبراهيم. (الكتاب المرجع ص 150). ولكن يعود اليازجي ليذكر أن إبراهيم عبد إله الرعي يهوه، وبالتالي يصير العابد والمعبود. وعلى كل لا تهمنا حقيقة إبراهيم، لأن ما يهمنا هو كيف قدمه لنا عزرا، وماذا أسقط عليه من عقله وفكره ومفاهيمه.

(52) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1 ج2 ص 95.

(53) في النسخة الكاثوليكية " أبيملك ملك فلسطين". (تكوين 8/26).

(54) معجم اللاهوت الكتابي - مادة قدرة – ص613.

(55) يونغ: الدين في ضوء علم النفس - ص 26.

(56) المرجع السابق - ص 27.

(57) يونغ: علم النفس التحليلي – ص43.

(58) إريك فروم: اللغة المنسية - ص 28.

(59) المرجع السابق ص30.

(60) يونغ: علم النفس التحليلي – ص54. وهنا يجب أن نلاحظ أن يونغ لا يعدّ المكبوتات من رغبات وغيرها العاملَ الوحيد في الحلم. فهناك أمور أخرى قد تكون وراثية تنزل في اللاشعور. (راجع الدين في ضوء علم النفس ص20). لكن قضية يعقوب هي الخوف من الموت لا غير. يقول د. أحمد عبد الخالق في كتابه " قلق الموت" (ص42- 43) ، متحدثاً عن أثر الخوف على صاحبه: (هذا الخوف أو القلق يحرك كثيراً من سلوك الإنسان بشكل مباشر أو غير مباشر. فمن ناحية يرى "مايز" أن الخوف من الموت أساس العصاب (الاضطراب النفسي)، وهو كذلك أصل الذهان (المرض العقلي) كما يرى "بيكر").

(61) جبل سعير في سلسلة جبال آدوم إلى الشرق من وادي عربة وتكاد توازيه، وتمتد جنوب وادي أرنون إلى أن تصل قريباً من العقبة (الموسوعة الكتابية).

(62) لقد سرق اليهود إله كنعان ونسبوه إلى أنفسهم: إيل، إيلوهيم وأيضاً يهوه. وهم تعلموا التوحيد من المنطقة. راجع كتاب ثريا منقوش (التوحيد في تطوره التاريخي - التوحيد يمان). وكذلك راجع لغز عشتار لفراس السواح.

(63) الإنترنيت - موقع الشبكة الإسلامية - مقالة: نساء بني إسرائيل: الشيخ محمد التميمي.

(64) يذكر الطبري في تاريخه (ج1 ص 203) أن اسمها راعيل وهي "حسناء ناعمة ". وفي (ص 204): " استلقت له وجلس بين رجليها ينزع ثيابه". والكامل في التاريخ (م1 ص107) يقول: " وذهب ليحل سراويله...".

(65) يذكر الطبري في تاريخه - ج1 ص210، أن فرعون مصر زمن يوسف هو الريّان بن الوليد. وعلى منواله يدرج المؤرخون - راجع المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - ج1 ص311.

(66) في نسخة الملك جيمس: Zaphnat phaameah - وفي النسخة البروتستانتية: صفنات فعنيح ودون ترجمة. أما النسخة الكاثوليكية فقد ترجمتها بـ " مخلّص العالم". (تكوين 45/41). وإلى هذا تذهب الموسوعة الكتابية.

(67) إريك فروم: اللغة المنسية – ص 68.

(68) المرجع السابق – ص 77.

(69) الغوييم: مفردها غوي. ومعناها الحرفي: غير اليهود، الغرباء ولكن لها مدلولات قبيحة: العدو العالمي المكروه - السعادين الحليقة المحتقرة - قطيع الغوييم الغبي - الحبيبات البشرية - الإرث الذي وعد يهوه به اليهود، أي أرض الآخرين... راجع كتاب: التوراة تاريخها وغاياتها لسهيل ديب – ص24. وفي الموسوعة الكتابية: جوييم: كلمة عبرية معناها " أمم". أي شعوب وثنية. ولعلها مأخوذة من جايوم الأكادية ومعناها قبيلة.

* * *

الفصل الثالث: عصر العنف والعدوانية

تمهيد:

هناك انقطاع زمني بين يوسف وموسى. وقد وردت إشارة إليه في سفر (تكوين 13/15) في حكاية إبراهيم. وفي (خروج 40/12) يذكر الكاتب أن إقامة بني إسرائيل في مصر " أربع مئة وثلاثين سنة " فهي تزيد ثلاثين سنة عن الآية السابقة.

وعلل الكاتب الفترة الزمنية الطويلة " إذ لم يكمل إثم الأموريين إلى الآن ". (تكوين 16/15).

وهذا يعني أنه بعد أربعة قرون تنضج ذنوب الأموريين وآثامهم، فيحرمهم الله الأرض ويعطيها لأبنائه البررة !

وهذا الكلام يتناقض مع إسقاطات عزرا التمهيدية. لذا لا يصلح كتبرير لفترة الانقطاع. وقراءة النص تضعنا أمام احتمالات توراتية الطابع. والاحتمالات هي:

1- لا رابط بين عصر الآباء الأولين وبين عصر موسى. والرابطة المختلقة صنعها عزرا والكتبة لاكتساب الانتماء إلى الآراميين.

2- أسرة يعقوب تلاشت واندثرت أو اندمجت في شعوب المنطقة.

3- عشيرة موسى لا تمت بصلة إلى أسباط يعقوب ولا إلى مصر.

4- بما أن يوسف استعبد الشعب المصري. ثار المصريون فيما بعد واستعبدوا " بني إسرائيل بعنف " (خروج 31/1). وفي الطبعة الكاثوليكية: " استخدم المصريون بني إسرائيل بقسوة ".

فقد انتقم المصريون مما فعله يوسف وأسرته. وبما أن يوسف مكانته بعد فرعون، فمن البديهي أن يسلم إخوته مناصب هامة في الدولة.

وهذا التحول دفع أولئك إلى الهرب من مصر أو بالأحرى طردهم المصريون. فقد جاء في (خروج 39/12): " لأنهم طردوا من مصر".

5- وجود رابط ولكن الانقطاع الزمني غير صحيح. وقد استخدمه عزرا ليبرر عدد بني إسرائيل الهائل والذي كما يدعي عزرا فاق عدد سكان مصر. فقد جاء في سفر الخروج أن ملكاً جديداً استلم السلطة ولم يكن يعرف يوسف، فقال: " إن شعب بني إسرائيل أكثر وأعظم منّا ".· (خروج 9/1). ونزعة المبالغة هذه سمة عامة في الأساطير لا قيمة لها. وأرقام التوراة كلها لا تستحق أن يأخذها القارئ بعين الاعتبار. فهل يعقل أن يتجاوز عدد الإسرائيليين عدد سكان مصر!؟

وتلك الآية تنقضها حكاية بلعام فقد وصف بني إسرائيل بـ : " شعب يسكن وحده، وبين الشعوب لا يحسب". (العدد 9/23).

فهذه الآية تدل على قلة عددهم فهم أقل من أي شعب آخر ولا وزن لهم ولا حساب. فأين مئات الألوف التي ذكرتها التوراة ؟!

إن الذين جاؤوا إلى مصر " ست وستون نفساً ". (تكوين 26/46). وفي (خروج 5/1) نجدهم " سبعين نفساً ".
المهم لم يتجاوز عدد القادمين إلى مصر السبعين فرداً. وبين جيل الأسباط وجيل موسى ثلاثة آباء " موسى بن عمرام بن قهات بن لاوي". ولاوي أحد الأسباط (1).
وتقول التوراة إنهم سيرجعون في الجيل الرابع. وبعملية حسابية صغيرة يتضح زيف أرقام التوراة.
لقد اختار عزرا مصر كمركز لكثرة النسل خارج مسرح الأحداث، وغيّب الزمن أربعة قرون ليكمل الحلقة ظناً منه أن مئات ألوفه مقبولة عقلياً.
إذاً لا انقطاع، وهم قلة خرجوا من مصر باتجاه أرض كنعان كعشيرة بدوية متنقلة كغيرها من البدو الرحل.

* * *

واستناداً إلى التاريخ العلمي نقول: إن أرض كنعان دار في فلكها وفلك مصر: المصريون، الهكسوس، الآشوريون، البابليون، الفرس، اليونان، وأخيراً الرومان.
ولم يثبت التاريخ صحة وجود بني إسرائيل في مصر، أو الخروج، أو الدخول إلى أرض كنعان.
يتحدث فراس السواح عن رواية الخروج فيقول: " وفي الحقيقة، فإن رواية الخروج من مصر من بدايتها في مدينة رعمسيس إلى نهايتها عند شاطئ نهر الأردن لم تجد لها سنداً حتى الآن من شاهد تاريخي أو أركيولوجي" (2).
فالقضية اختلقها عزرا والكتبة وعيونهم تلهث وتلتهم أرض كنعان، طمعاً وجشعاً. وأمام الحلم يشطح الخيال.

* * *

1- موسى

يخبرنا سفر الخروج (6/1) أن يوسف وإخوته وجميع ذلك الجيل قد مات. ومن ثم يقفز السفر إلى جيل موسى. ويحدثنا عن سلالة الأسباط وحتى موسى (خروج 14/6 وما بعد).

وحكاية ولادة موسى مقتبسة من أسطورة سومرية تدور حول سرجون الأعظم(3). كما تتقاطع حكاية فرعون وأمره بقتل كل مولود ذكر مع مثيلتها في حكاية مولد إبراهيم، وكلتاهما تلتقيان الأسطورة (4).

وتقفز التوراة من طفولة موسى إلى شبابه حيث يشاهد رجلاً مصرياً " يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته" فتقدم موسى منه و " التفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً فقتل المصري وطمره في الرمل". (خروج 11/2-12). فموسى قتل المصري عامداً متعمداً لأنه نظر يميناً وشمالاً فلم ير أحداً فقتله. وتقول الموسوعة الكتابية: " ولم يكن هذا عملاً طائشاً عن غير وعي، لأنه قبل أن يقتل المصري (التفت إلى هنا وهناك. ورأى أن ليس أحد) ".

وقد كان عمر موسى أربعين سنة، ومعنى ذلك أنه يعرف تماماً ماذا يريد. وسنرى وحشيته في القتل وسفك الدماء فيما بعد.

وفي اليوم التالي عندما رأى عبرانياً يعتدي على عبراني، سأله - حاشراً أنفه - لماذا تعتدي عليه ؟ فقال له: " أتريد أن تقتلني كما قتلت المصري". (خروج 14/2).

فعرف موسى أن قتله المصري قد شاع فخاف. وفي الوقت نفسه سمع فرعون بالخبر فأمر بقتل موسى. فهرب إلى مدين (مديان). (خروج 15/2). وفي مدين وعند بئرها، جاءت بنات كاهن مدين للاستسقاء، وأقبل رعاة فطردوهن. فتدخل موسى وتصدّى لهم وأبعدهم مطرودين. ثم سقى للبنات السبع (خروج 17/2).

ويتم الشكر والتعارف ومن ثم يتعرف إلى أبيهن رعوئيل فيما بعد(5).

ثم زوّجه الأبُ ابنتَه صفورة مقابل الإقامة عنده وخدمته كما جرى مع يعقوب، لكن دون تلاعب وخداع من حميه.

وقد ولدت زوجته له طفلين. (خروج 22/2).

ويزيد المصريون قمعهم واضطهادهم لبني إسرائيل " فتذكر اللّه ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب". (خروج 24/2).

ولا ندري لِمَ كان غافلاً عن الميثاق وآلام بني إسرائيل. كما لا ندري لِمَ كان موسى غافلاً عنهم وهو ابن القصر. وقتله المصري لا يعبر عن موقف تجاه آلاف مؤلفة تحت نير العبودية والتعذيب. فهي قضية عرضية تكشف عنجهيته وشراسته. وكان من الممكن في اليوم التالي أن يقتل ابن جلدته لو لم يدب الخوف في نفسه من انتشار خبر جريمته السابقة!

وكنتيجة لتذكر يهوه شعبه، لاحق بنفسه الموضوع. فأرسل ملاكه ليقابل موسى في جبل اللّه حوريب (خروج 2/3). حيث تجلّى من وسط عليقة تتأجج ناراً دونما أن تحترق.

وبدافع الفضول لهذه الظاهرة يقترب موسى، فيكلمه يهوه من وسط العليقة (خروج 4/3).

ومن ضمن كلام يهوه: " إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر، وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم. إني علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين، وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً. إلى مكان الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين". (خروج 3/7-8).

وهذه الآية وبحسب تسلسل الأسفار توضح البعد الاستعماري للإرهاصات الأولى:

1- شعب يهوه يعاني الذل والعبودية.

2- الإنقاذ مما هم فيه يعني إخراجهم من أرض المذلة.

3- الانتقال بهم إلى أرض خيّرة ومعطاءة.

4- أرض كنعان هي بيت القصيد!

إن موسى بحسب النص لا ينتمي لأولئك المذلين المهانين، وإلا لكان بينهم يخطط لإخراجهم. فهو قد هرب بعيداً عنهم واستقر في مدين مما يعني أنه لا تهمه قضية المضطهدين أولئك.

والسؤال هو لماذا أخرجه عزرا من مصر إلى مدين ثم أعاده إليها ؟

لقد خرج موسى وهو لا يعرف التوحيد، وعاد موحداً. وترى ثريا منقوش أن اليمن عرفت الإله يهوه، وقد انتقل من اليمن إلى مدين. وموسى أخذه من هناك (أو ربما أخذه من مدين): " ومن جملة الآلهة التي عبدت في منطقة ثمود إله عرف من النصوص الثمودية بالإله (يهو) ولم تقتصر عبادته عند الثموديين بل تغلغلت إلى صحراء مصر الشرقية وصحراء سيناء" (6).

فالإله يهوه كان معروفاً في غرب الجزيرة العربية وبمحاذاة سلسلة جبل السراة. لكن أصله كنعاني كما سيأتي.

فراس السواح يقول: " ولم يكن إله موسى التوراتي سوى إيل كنعان وإيل إبراهيم" (7).

ويمكن الاستنتاج أن مصر - وبحسب نص التوراة - كانت وثنية، ومجيء موسى إلى مدين كان ليتعلم التوحيد.

وهذا يعني أن موسى لم تكن له أية علاقة بالإسرائيليين في مصر قبل هروبه إلى مدين. فإن كانت له علاقة، وهم موحدون - كما يقول النص - فلا مبرر لإقحام مدين في الموضوع.

والهرب بسبب القتل غير مقنع لأنه ابن القصر، ومتى كان ابن السلطة يخشى من قتل رجل من عامة الشعب ؟!

* * *

وأمر الرب موسى أن يذهب إلى مصر ليُخرج بني إسرائيل منها.

فسأله موسى: من أنت، ما اسمك ؟! (تكوين 13/3): " فإن قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم".

فأجابه يهوه: " أهيه الذي أهيه. وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه أرسلني إليكم". (خروج 14/3).(8)

وفي الطبعة الكاثوليكية: " أنا هو الكائن. وقال كذا قل لبني إسرائيل الكائن أرسلني إليكم". وفي دائرة المعارف الكتابية " أنا الذي أنا ". وفي (خروج 15/3): " وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم هذا اسمي إلى الأبد". فالإله هنا خاص جداً وكلمة الإله أو الله هي يهوه. فيهوه هو

اسم إله اليهود الأبدي أي هو اسم العلم الشخصي، ويقابله بعل وإيل عند الكنعانيين، وكموش عند الموآبيين، وداجون عند الفلسطينيين. إلا أن إيل إله عام والتعميم هو التوحيد.

واليهود يكتبونه " يهوه" ويلفظونه " أدوناي" كما تقول الموسوعة الكتابية.

يقول ديورانت: " من بين الآثار التي وجدت في كنعان (عام 1931) قطع من الخزف من بقايا عصر البرونز (3000 ق.م) عليها اسم إله كنعاني يسمى ياه أو ياهو" (9).

ويقول د. خزعل الماجدي عن يهوه واليهود: " وهم ببساطة شعب إلههم القومي القديم يهوا وهو إله عاصفة لا يختلف في صفاته عن بعل وحدد وانيل وغيره من آلهة الطقس التي كونت بصورة عامة فكرة التفريد لا التوحيد" (10).

* * *

ويعلم الرب موسى أن ينهب المصريين عند خروجهم من مصر: " فإذا انصرفتم فلا تنصرفون فارغين. بل تطلب المرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وذهب وثياباً تجعلونها على بنيكم وبناتكم وتسلبون المصريين". (خروج 3/21-22).

ولكي يمتلك موسى قدرة الإقناع منحه ربه خوارق للطبيعة (العصا، بياض اليد، الماء المتحول إلى دم...).

ولأن موسى عيي اللسان يقول له الله: " وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به". (خروج 4/12).

ويماحك موسى ربه، فيتقد غضبه ويقرر أن يعينه بأخيه: " وأنا أكون مع فمك وفمه". " وهو يكون لك فماً وأنت تكون له إلهاً". (خروج 4/15-16).(11)

ويتضح هذا الأمر في (خروج 7/1): " أنا جعلتك إلهاً لفرعون، وهرون يكون نبيك".

والإله هنا بمعنى السيد، وموسى غالباً ما يستخدم الرب بمعنى السيد. ومثلها أدون وأدوناي والذي أطلقه الكنعانيون على الإله تموز (أدون - أدونيس).

فموسى تعامل مع يهوه كسيد له، وليس كإله كوني خالق وواحد!

وفي النهاية يطلب يهوه من موسى الانطلاق إلى مصر لأن فرعون الذي كان يطلبه قد مات(12).

وكون فرعون الذي كان يطلب دم موسى لقتله المصري، قد مات فهذا يعني سقوط الحكم عن موسى في الشريعة اليهودية. ففي (خروج 21/12-13): " من ضرب إنساناً فمات فليقتل قتلاً. ولكن الذي لم يتعمد بل أوقعه الله في يده، فأنا أجعل لك مكاناً يهرب إليه".

فالقاتل غير المتعمد يفر إلى مدينة لا سلطة للحاكم عليها، ويبقى هناك إلى أن يموت ذاك الحاكم وعندها يسقط الحكم. وفي تشريعه حدد موسى ست مدن ليهرب إليها القاتل سهواً حتى يموت الكاهن العظيم الذي في زمنه ارتكبت الجريمة.

ولكن موسى قتل - كما ذكرنا - عامداً متعمداً، وبالتالي لا تنطبق عليه الآية. فهنا تناقض إلا إذا عرفنا مقصد عزرا وهو أن دم غير اليهودي لا قيمة له!!

وينطلق موسى مع عائلته نحو مصر. وفي الطريق وبناء على توجيه من يهوه، تقوم زوجته بختن ابنهما وبحجر الصوان: " عريس دم من أجل الختان". (خروج 4/26).

ونفهم من النص أن يهوه أراد القتل فأسرعت صفورة زوجة موسى إلى ابنها وقطعت قلفته /ختنته/ لتفديه من القتل. فتراجع يهوه وكفّ عنه. والدم عهد كما هو الختان. وقد ذكرنا سابقاً أن الاختتان كان عملية افتداء بدلاً من تقديم الإنسان نفسه قرباناً لإرضاء الآلهة.

كما أن الشعوب التي كانت تضحي بفتاة قرباناً للآلهة، تلبسها ثوب العرس!

فهنا نحن أمام الأسطورة مباشرة: يهوه يريد قتل الطفل لأنه يجب أن يكون قرباناً له، فتسرع الأم إلى الختان، فيرضى الإله بالختان كبديل عن القربان البشري!

* * *

ويدخل موسى إلى مصر ثم يطلب من فرعون السماح للإسرائيليين بالخروج من مصر. وتبدأ سلسلة من السجالات تتخللها عجائب موسى التي تنزل على فرعون وقومه كالأفاعي والدم والضفادع والبعوض والذباب والجراد والظلام الدائم... وكل هذا للضغط على فرعون ليوافق على خروج الإسرائيليين.

ومع كل أعجوبة يوافق فرعون مرغماً، ثم يتراجع عند توقف المصيبة، وهكذا دواليك!

وفي النهاية يوافق فرعون. ويخرج موسى مع جماعته بعد أن استعاروا من المصريين أشياء كثيرة ليسرقوها كما أمرهم يهوه. (خروج 36/12).

وترد آية في (خروج39/12): " لأنهم طردوا من مصر". والمعنى واضح فالمصريون طردوا الإسرائيليين. وهذا يسقط عجائب موسى التي كانت بهدف إجبار فرعون على السماح لهم بالخروج.

بينما الآيات السابقة حاولت إقناعنا بأن موافقة فرعون ورضوخه جاءت نتيجة ضغط عجائب موسى!!

وكان عدد الخارجين - بحسب النص - ستمئة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد، ومعهم الأغنام والأبقار (المواشي) وما سرقوه من المصريين.

لقد تحدث الكثيرون عن ذلك الخروج الأسطوري والذي لم يذكره التاريخ العلمي مما يعني عدم صحته. ومنهم من قام بعمليات حسابية تثبت خرافية أرقام التوراة(13).

المؤرخون اليونان والرومان يقولون: موسى كاهن مصري كان يبشر بين المجذومين، وكان مصاباً بالبرص لذا كان يخفي وجهه.

ونقل ديورانت عن جارستانج عضو بعثة مارستن التابعة لجامعة لفربول قوله: إن موسى أنجبته الأميرة حتشبسوت وإنه تربى في بلاطها (1527 ق.م). ثم فر من مصر حين جلس على العرش عدوه تحتمس الثالث(14).

وهناك رأي لفرويد يرى فيه أن أخناتون (أمنحوتب الرابع 1380 ق.م) استلم عرش مصر وفرض ديانة التوحيد وعبادة آتون. فتآمر الكهنة عليه لإبطاله عبادة أمون. وكان أخناتون يكره الحروب مما أدى إلى انكماش رقعة إمبراطوريته. وقامت ثورات ضده. ومات صغيراً في الثلاثين من عمره (1362 ق.م). واستلم بعد سنتين توت عنج أمون الذي أبطل عبادة آتون ولاحق المؤمنين به، وأعاد عبادة أمون. وكان موسى من أتباع أخناتون فهرب هو وأتباعه خوفاً من قمع توت عنج أمون(15).

إن توحيد أخناتون مثبت تاريخياً(16). لكن ارتباط موسى به هو من وحي الخيال. وسفر الخروج كله ملحمي كسفر التكوين كما يقول فراس السواح فهو: " مليء بالتهويلات الملحمية، كقصة ولادة موسى وحياته، والأوبئة العشرة التي حلت بفرعون وأهل بيته وكل شعبه، وعبور البحر، وقتال العماليق، وبقاء ثياب الهاربين جديدة لا تبلى، وغير ذلك من الأحداث" (17).

ويعبر موسى وجماعته بحر سوف(18)، حيث يتحول قسم منه إلى يابسة (الإصحاح الرابع عشر). ويلحق بهم فرعون وجنوده، لأنهم ندموا على تركهم يرحلون فقد خسروا اليد العاملة المسخرة!

لكن البحر يعود إلى طبيعته فيغرق فرعون وجماعته جميعاً.

ومن الطرف الشرقي للبحر تفرح جماعة موسى وتغني لأن يهوه أنقذهم وحارب عنهم وهم لم يفعلوا شيئاً: " الرب يحارب عنكم وأنتم صامتون" (خروج 14/14).

ومن ضمن غنائهم: " الرب رجل حرب"!! (خروج 3/15) (19). وتتابع وصف يهوه كقائد عسكري محارب لا أكثر!

وتبدأ مسيرة موسى مع جماعته في الصحراء، وهم يتذمرون باستمرار.

واستمرت رحلتهم الصحراوية أربعين سنة: " وأكل بنو إسرائيل المنَّ أربعين سنة حتى جاؤوا إلى أرض عامرة، أكلوا المنَّ حتى جاؤوا إلى طرف أرض كنعان". (خروج 35/16).

إن تلك العشيرة لم يكن هدفها أرض كنعان مما يعني أن ذلك إسقاط من عزرا والكتبة. فقد استمرت المسيرة أربعين سنة: " وعرف مسيرك في هذه البرية الشاسعة فهذه أربعون سنة". (تثنية 7/2)، ولو كانت كنعان غايتهم لتوجهوا شمالاً مباشرة. لكن المتتبع لخارطة مسيرتهم في الأطالس اللاهوتية، يجد أن الرحلة قد: ابتدأت من جاسان ورعمسيس على حدود صحراء سيناء واتجهت نحو الجنوب وعلى امتداد شرقي خليج السويس حتى وصلت إلى أقصى الجنوب. ثم سارت شمالاً وعلى امتداد غربي خليج العقبة، وداروا حول جبل سعير ثم اتجهوا جنوباً نحو العقبة / إيلات/. ثم عادت المسيرة للسير نحو الشمال إلى (قادش برنيع) مقابل جبل سعير وتابعوا مسارهم نحو البحر الميت، إلى أن استقرت المسيرة شمالي شرق البحر الميت عند جبل نبو في الأردن مقابل أريحا!!

وهذه الرحلة المكوكية ولمدة أربعين سنة حتى وصلوا إلى الاستقرار لا تفسير لها سوى أنها رحلة بدو رعاة لم يكن هدفها لحظة الانطلاق، أرض كنعان!

أوهم مسّاحون كإبراهيم يخطون الحدود الجنوبية والشرقية لأرض كنعان بحسب تصور عزرا.

* * *

ومع وصولهم إلى طرف أرض كنعان، هاجم يشوع العماليق وهزمهم بحد السيف وقال لهم ربهم: " فإني سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء"٠ (خروج 13/17).

وبعد عودة الجيش بقيادة يشوع، أقام موسى مذبحاً للرب وسماه: " يهوه نسي". (خروج 15/17). ومعنى ذلك: يهوه رايتي!

وتصل المسيرة إلى مدين (مديان). فيخرج حمو موسى لاستقبالهم، ويبارك موسى ويهنئه بالسلامة.

وبعد أن يحدثه موسى عما جرى معه، يعلمه حموه يثرون تنظيم قومه وتقسيمهم إلى مجموعات لكل منها رئيسها. كما يعلمه تشريعات تتعلق بالقضاء بينهم.

وفيما بعد يصعد موسى وهرون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل إلى الجبل: " ورأوا إله إسرائيل". (خروج 10-9/14).

فالآية تدل على رؤية يهوه ومثلها آية أخرى " فرأوا اللّه". بينما في سفر (التثنية 15/4) نفي لذلك: " فإنكم لم تروا صورة ما يوم كلمكم الرب في حوريب من وسط النار".

كما أن موسى يطلب من ربه رؤيته فيقول له ربه: " لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش". (خروج 20/33).

وهذه التناقضات طبيعة أي عمل أسطوري، لكن اللاهوتيين لهم تأويلاتهم اللا عقلانية لذا سنتجاوزها!

ويعلم يهوه موسى صناعة التابوت (الصندوق) لحفظ الشريعة والوصايا كما يعلمه صنع الشمعدان ذي الشعب وخيمة الاجتماع والمذبح، واللباس الكهنوتي الخاص باللاويين. وكذلك يعلمه شجرة السلالات وحفظها.

وخلال وجود موسى في الجبل وحده لتلقي الشريعة ولمدة أربعين يوماً وليلة، يطلب الإسرائيليون من هرون أن يصنع لهم آلهة. فيجمع منهم الذهب ويصنع لهم عجلاً ذهبياً ليكون لهم إلهاً.

وعبادة العجل كانت معروفة قديماً. وقد قدس المصريون المعز والعجل وكانوا: " يعدونهما رمز القدرة الجنسية الخالقة. ولم يكونا مجرد رمزين لأوزير (س) بل كانا تجسيداً له" (20).

ويمكن أن نضيف هنا بأن ربهم الحقيقي هو إله الذهب، فقد عبدوا الذهب/ المال!

ويغضب يهوه ويخبر موسى بما فعلوه، ويأمره بالنزول إلى الشعب العنيد والقاسي الرقبة لأنه يريد إفناءه.

فيتوسل موسى إلى ربه: " لِمَ يضطرم غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر". (خروج 11/32).

وينصح ربه: " ارجع عن شدة غضبك، واندم على الشر بشعبك". (خروج 12/32).

ويذكره بوعوده لإبراهيم وإسحق ويعقوب بإعطائهم الأرض، وبكثرة النسل. فيتذكر يهوه وبالتالي: " فندم الرب على الشر الذي قال: إنه يفعله بشعبه". (خروج 14/32).

هنا نتذكر غضب إبراهيم في حادثة سدوم وعمورة وكيف أملى على ربه النصح والإرشاد!

وهنا موسى ينصح ويرشد، بينما يهوه منفعل، متوتر وقد فقد أعصابه. والمعروف أن موسى انفعالي وهرون هادئ متزن، فيمكن إسقاط خطاب التهديد على موسى، وخطاب التهدئة والنصح على هرون دون أية إشكالية!

ثم ما ذاك الإله الذي يغضب، ويستعيد ذاكرته المفقودة، ثم يندم ويتراجع أمام تنبيه ونصح عبده ؟!

أوليس خطاب الذات تجسد كخطاب وثني ؟!

واليهود لم يعرفوا اللّه أبداً، وإلا كيف سنفسر هذا التحول السريع، ومئة وثمانين درجة، باتجاه عبادة العجل والذهب ؟!

ولو لم يكن ليهواهم تشابهاً بينه وبين عجلهم لما كان الانتقال السريع. وهرون الكاهن الأكبر والذي سلالته سلالة الكهنة، لم يجد أية غضاضة في سبك العجل الذهبي لهم!

وينزل موسى من الجبل مسرعاً ليرى شعبه يغني ويرقص عارياً، فيغضب ويرمي اللوحين ويكسرهما مع أن الرب كتب عليهما بأصابعه، ويعاتب هرونَ، ويحطم العجل، ويطلب من بني لاوي أن يقتل: " كل واحد أخاه وصاحبه وقريبه". (خروج 27/32).

وكان عدد القتلى ثلاثة آلاف رجل! ولكن كم عدد الإخوة والأصحاب والأقارب في مئات الألوف ؟!

ويعود موسى إلى الجبل لينذر الربَ بأن يغفر لهم وإلا فليمحُ اسمه من كتابه. فيقرر يهوه أن يمحو اسم المخطئ من كتابه. فيطلب موسى رؤية ربه!

وكأنما شعر بأن العجل المحسوس أقرب إلى الإيمان من المجرد. فقال له يهوه: " لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش". (خروج 20/33).

ويطلب من موسى أن ينحت حجرين ليكتب عليهما الشريعة. وكما في المرة السابقة يبقى أربعين يوماً وليلة ثم ينزل من على الجبل ليبلغ شعبه كلمات يهوه وما أمره به.

* * *

ويبدأ موسى استعداداته لغزو شعب كنعان الآمن. فيعد الجاهزين للقتال ممن أعمارهم عشرون سنة فما فوق فيجدهم: " ست مئة ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين". (العدد 46/1).

ويهبط العدد إلى: " ست مئة ألف وألف وسبع مئة وثلاثون". (العدد 26/ 51)، نتيجة ضربات يهوه لهم على آثامهم.

ويتفرغ سبط لاوي: هرون وسلالته، للشؤون الدينية والتابوت وخيمة العهد...

ويتابع موسى مساره الصحراوي في سيناء، وجماعته تتذمر باستمرار من الجوع والعطش والتعب. ودائماً يحنون إلى العودة إلى مصر مما يجعل الرب يغضب عليهم ثم يستكين ويهدأ أمام شكوى موسى وعجزه...

ويطعمهم ربهم اللحم لمدة شهر حتى: " يخرج من مناخركم". (العدد 11/ 20). ويوزع موسى القيادة على سبعين شيخاً ليساعدوه في قيادة تلك الجموع كما علمه حموه.

والشيوخ يتحولون إلى أنبياء لأن الرب جعل روحه عليهم (25/11) إلا أنهم لم يستمروا في تنبوئهم عدا اثنين منهم.

ويرسل موسى جواسيس ليستطلعوا أرض كنعان وعلى رأسهم هوشع بن نون خادم موسى والذي يصير اسمه يشوع بعد أن غيّره موسى (العدد 17/13).

وذهب الجواسيس " فصعدوا وتجسسوا الأرض من برية صين إلى رحوب في مدخل حماة ". (العدد 22/13).(21)

وعاد الجواسيس بعد أربعين يوماً ومعهم المعلومات، التي أخافت بني إسرائيل، من قوة شعب كنعان فتمنوا العودة إلى مصر، مما أغضب يهوه فقال لموسى: "حتى متى يهينني هذا الشعب، وحتى متى لا يصدقونني بجميع الآيات التي عملت في وسطهم". (العدد 11/14).

وقرر الرب أن يعاقبهم إلا أن موسى حذره من مغبة ذلك حيث سيفسر شعبه سبب العقاب هو نتيجة عجزه عن تحقيق وعده: " لأن الرب لم يقدر أن يدخل هذا الشعب إلى الأرض التي حلف لهم، قتلهم في القفر". (العدد 16/14).

ويأخذ الرب بنصيحة موسى ويصفح عن شعبه: " قد صفحت بحسب قولك ". (العدد 20/14). إلا أنه يبدي ضجره منهم: " حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة عليّ ". (عدد 27/14).

ويعلم موسى بأن الذين رأوا مجده وآياته وجرّبوه عشر مرات، لن يروا الأرض. وكذلك كل من استهان به (عدد 23/14).

ويطفح الكيل فيعاقبهم يهوه بيد العمالقة والكنعانيين. ونتيجة الضربات يعود التذمر وتمني العودة إلى مصر. ويقمع موسى المعارضين. (عدد 31/16-33).

وكما القربان غافر لكل الذنوب والآثام، كذلك الضربات فهي كما يرى عزرا غافرة للخطايا. وكأنما لسان حاله يقول: افعل ما شئت أيها اليهودي فمنفعتك فوق كل شيء حتى معصية يهوه، لأنه سيغفر لك لأنك يهودي، ولا يستطيع أن يستغني عنك، فحاجته لشعبه أكبر من حاجة شعبه له!

وما يحل باليهود من نكبات ومصائب، إنما هي كفارة لذنوبهم. ولكن ما يلبث يهوه أن يندم على معاقبة شعبه، فيكف عن ذلك.

ومن جانب آخر نرى في تلك الضربات التي تلقوها من العمالقة والكنعانيين، نضال شعب كنعان ضد الغزاة المعتدين، فقد صدوا الهجمات الوحشية التي قام بها أولئك المحتلون، وألحقوا بهم تلك الهزائم.

فعزرا يسميها ضربات يهوه للغفران، ونحن نسميها انتصارات شعب كنعان على المغيرين الذين يريدون استعمار أرضه.

* * *

ويقيم موسى عند قادش شمالي سيناء. ويرفض ملك أدوم السماح له بالمرور عبر أراضيه (عدد 18/20): " لا تمر بي لئلا أخرج للقائك بالسيف".

ويموت هرون وقد ماتت قبله أخته مريم. ويُتهم موسى بقتله. ومبررات القتل ممكنة فقد تمرد على موسى وصنع لهم عجلاً ذهبياً ليعبدوه بدلاً من يهوه موسى. وقد عزله موسى عن السلطة الدينية ووضع ابنه العازر مكانه. وكانت هناك منافسة بين السلطة الدينية المتمثلة بهرون وبنيه من بعده، وبين السلطة السياسية (القيادة العسكرية، الزعامة...). وفي عصر المكابيين استطاعت السلطة الدينية أن تقيم حكومتها الدينية / الثيوقراطية/.

ويذكر الطبري في تاريخه أن الإسرائيليين اتهموا موسى بقتل هرون فأنكر ذلك فـ : " قالوا: كذبت ولكنك قتلته لحبنا إياه. وكان محبباً في بني إسرائيل"(22).

وخلال شهر الحداد، يهاجمهم ملك عراد ويسبي منهم (عدد 1/21). وينوح الإسرائيليون كعادتهم ويضجرون ويخاطبون موسى أو ربه: " لماذا أصعدتنا من مصر لنموت في البرية". (عدد 5/21).

ويغضب الرب من تذمرهم ويعاقبهم بلدغات الأفاعي فيموت الكثيرون مسمومين. فيتوسلون إلى موسى ليرفع عنهم يهوه عقابه. فيصنع موسى لهم حية من نحاس تشفي الملدوغ إذا نظر إليها. (العدد 9/21).

وهذه الأفعى النحاسية عبدها اليهود إلى زمن الملك حزقيا الذي حطمها: " وسحق حية النحاس التي كان موسى صنعها لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها". (ملوك (2) 4/18).

يقول ديورانت: " وفي تاريخ اليهود الباكر شواهد كثيرة، تدل على أنهم عبدوا الأفعى...". " وكانت الأفعى تبدو حيواناً مقدساً لليهود كما كانت تبدو لشعوب كثيرة عداهم، وذلك لأنها رمز للذكورة المخصبة من جهة، ولأنها من جهة أخرى تمثل الحكمة والدهاء والخلود - فضلاً عن أنها تستطيع أن تجعل طرفيها يلتقيان".(23)

والحية كنوع من الفتش (Fetish)، تولعت به بعض الشعوب البدائية لإيمانها بقدرتها الخارقة/ السحرية، على حماية أصحابها أو مساعدتهم.

واستناداً إلى تواريخ الدائرين في فلك التوراة فإن اليهود عبدوا الحية النحاسية منذ (1215 ق.م) وحتى زمن حزقيا (720 ق.م) أي ما يقارب الخمسمئة سنة!

وبما أن الحية هي الشيطان في حكاية آدم وحواء، فاليهود عبدوا الشيطان نفسه، فأين التوحيد ؟!

* * *

ويتجول موسى على امتداد حدود كنعان باحثاً عن ثغرة ينفذ منها، إلى أن يصل إلى تخوم ملك الأموريين (سيحون)، فيرسل إليه مستجدياً بأن يسمح له بالمرور عبر أراضي مملكته. فيرفض الملك طلبَ موسى. فيقاتله موسى وينتصر الإسرائيليون، ويمتلكون أرضه وحتى منطقة بني عمون.

وهكذا يقيم موسى وجماعته في أرض الأموريين (حشبون وتوابعها). (العدد 31/21).(24)

ثم هاجموا عوج ملك باشان وقضوا عليه وورثوا أرضه (العدد21 /5).

ونزل موسى وجماعته في صحراء موآب. فخاف ملك موآب واسمه بالاق بن صفور، من وحشية الإسرائيليين، فأقام حلفاً مع مدين. ثم استنجد ببلعام ليلعن بني إسرائيل لأن دعوته كانت مستجابة!

* * *

حكاية بلعام بن بعور:

هو من " فاتور التي على النهر في أرض بني شعبه". (العدد 5/22). وفاتور أو فتور غربي نهر الفرات كما في الموسوعة الكتابية.

كان نبياً موحداً مشهوراً بدعائه المستجاب كما ورد في النص. فأرسل بالاق ملك موآب شيوخ موآب ومدين لإحضار بلعام ليلعن بني إسرائيل. فيأتي رب الإسرائيليين إلى بلعام ليلاً ليطلب منه: " لا تلعن الشعب لأنه مبارك". (العدد 12/22).

فالرب يطلب منه ألاّ يلعن لأن دعوته مستجابة! ويا ترى من الذي يستجيب لدعائه، أهو إله آخر أعلى سلطة من يهوه وأقوى منه ؟! ويرفض بلعام الذهاب مع أولئك الشيوخ، فيرسل بالاق شخصيات أخرى أرفع مقاماً وأجلّ من السابقين.

ويأمر الرب بلعام أن يمضي معهم على أن يوجهه ويرشده هو. فيذهب بلعام معهم.

وينطلق صباح اليوم التالي على أتانه ومعه خادمان متوجهاً إلى بالاق: " فحمي غضب الله لأنه منطلق. ووقف ملاك الرب في الطريق". (العدد 22/22).

ولا ندري لِمَ غضب الرب مع أنه هو الذي طلب منه المضي مع رسل بالاق! وتشاهد الأتانُ ملاكَ الرب فتكف عن المشي، بينما بلعام لا يراه، فيضربها لتتابع السير، فتتكلم مستنكرة: " ماذا صنعت بك حتى ضربتني". (عدد 28/22).

ثم يظهر ملاك الرب شاهراً سيفه، ويملي على بلعام الوصايا.

ويصل بلعام إلى بالاق الذي يستقبله ويكرمه، وفي اليوم التالي يخرج معه إلى مكان اللعن. لكن بلعام يقول له: " كيف ألعن من لم يلعنه الله، وكيف أشتم من لم يشتمه الرب". (عدد 8/23).

ونلاحظ في الآية عنصرية الدين والإله. فجماعة موسى رغم عبادة العجل والحية، ورغم التذمر والاحتجاج والضجر من يهوه بل والاستهانة به، لم يلعنهم ولم يشتمهم!

أما كنعان المسكين! فقد نزلت عليه لعنة الله الأبدية لأن أباه حام رأى عورة أبيه نوح!!

أو ليست اللعنة تعكس إخفاق موسى في اقتحام أرض كنعان أو إخفاق عزرا والكتبة في تحقيق حلمهم ؟!

إن قضية موسى وعشيرته هي البحث عن موطئ قدم لهم في أرض كنعان. ومن هنا يمكن التكهن حول الوعد والتفضيل كتعويض نقص أمام شعب كنعان القوي والمتطور والمتقدم. أي الشعب الحضاري مقابل الرعاة الهمج!

إذاً رفض بلعام أن يلعن بني إسرائيل لأن الله هو الذي يتكلم بلسانه: " الكلام الذي يضعه الله في فمي به أتكلم". (العدد 38/22). وبدلاً من اللعن يبارك الإسرائيليين لأنهم: " شعب يسكن وحده، وبين الشعوب لا يحسب". (9/23).

وهذا الأمر أثار حفيظة بالاق فدافع بلعام عن نفسه بأن الرب: " لم يبصر إثماً في يعقوب، ولا رأى إصراً في إسرائيل، الرب إلهه معه". (عدد 21/23).

ثم يصف شعب إسرائيل: " هو ذا شعب كلبؤة يقوم، وكأسد ينهض. لا يربض حتى يأكل فريسة ويشرب دم الصرعى /القتلى/". (عدد 24/23).

والآيتان متناقضتان فالأولى تجعلهم ملائكة وهم الأبالسة، والثانية تجعلهم وحوشاً سفاكي دماء!

وتكتمل هذه الصورة بـ : " أخرجه الله من مصر وله سرعة الرئم يفترس أعداءه من الأمم ويقضم عظامهم وبسهامه يثخنهم. جثا وربض كأسد ولبؤة، فمن ذا يثيره. مباركوك يباركون ولاعنوك يلعنون". (عدد 24/8-9).

ويحاول بالاق تغيير مكان اللعن عسى أن يتغير رأى بلعام. لكن بلعام حلت عليه روح الله (عدد 2/24). ويخفق بالاق في محاولته ثلاث مرات فيحسم بلعام الأمر: " يتسلط الذي من يعقوب". (عدد 19/24). ونتيجة ضغط بالاق والشيوخ، يجد بلعام حيلة؛ وهي إفساد بني إسرائيل ليغضب الله عليهم، وعندها يمكن الانتصار عليهم. واقترح إرسال نساء موآب إليهم لجرهم إلى الرذيلة.

وتنجح الخطة ويقع أبناء الله الملائكة في فخ الفجور ويزنون ببنات موآب. وأكثر من هذا ينسون أنهم أبناء الله فيعبدون آلهة موآب ويسجدون لها مقدمين الذبائح القرابين، ورامين موسى وربه خلف ظهورهم!!

" وتعلق إسرائيل ببعل". (3/25). فغضب رب موسى فكانت نتيجة غضبه قتل أربعة وعشرين ألف إسرائيلي من العصاة!

ثم يتلاشى غضب الرب لأن فينحاس بن العازر بن هرون، قتل إسرائيلياً وهو يزني بامرأة مدينية، وقتلها هي الأخرى معه. وهذا يعني أنه " غار لله". " ردّ سخطي عن بني إسرائيل بغيرته لي". (عدد 11/25).

ثم يقاتل موسى مدين ويفتك بهم، ومن ثمَّ يقتل بلعام.

ما يمكن أن نستنتجه هو أن بلعام كان موحداً في الوقت الذي كان التوحيد فيه شائعاً في المنطقة.

والمضحك ما ترويه التوراة عن مجيء الرب إلى بلعام ليطلب منه ألا يلعن لأن لعنته مستجابة!

فمن الذي سيحقق دعوته ولعنته، أليس من المفترض أنه الرب الذي جاءه. فهل يقول له: لا تلعن لأنني مجبر على استجابة لعنتك ؟!

أم هناك ربّان: رب لموسى ورب لبلعام، فجاء رب موسى إلى بلعام راجياً ألا يلعن قومه. وهذا يعني أن موسى نفسه كان يخشى لعنة بلعام عليه وكان يؤمن بأن رب بلعام أقوى من ربه، وإلا أين دور ربه في درء اللعنة !؟

والسؤال: لِمَ انقلب بلعام ؟!

التوراة تقول: بسبب ضغط بالاق والشيوخ. والموسوعة الكتابية تسميه النبي الكذّاب. والمؤرخون العرب يقولون: لقد ضل(25).

ولكن من خلال السياق نتبين أن الهدف هو تشويه توحيد بلعام وتشويه سمعة الموآبيين، ولتعليل إخفاق موسى بسبب المعصية التي أوقعهم فيها بلعام.

لقد جاء في سفر (نحميا 1/13): " لا يدخل العمونيون ولا الموآبيون في جماعة الله إلى الأبد".

والسبب: " لأنهم لم يتلقوا بني إسرائيل بالخبز والماء، بل استأجروا عليهم بلعام ليلعنهم". (نحميا 2/13).

فاللعن ليس هو المشكلة، المشكلة هي في تصدي أولئك للغزاة المعتدين.

يقول بن غوريون: " نحن اليهود قد اضطهدنا لفترة امتدت ألفي عام، وأخيراً لقد استعدنا هذه البقعة من الأرض في وطننا التاريخي، وكان ينبغي على العرب أن يستقبلونا بحرارة، باعتبارنا أبناء عمومة، ولكنهم على العكس، فإنهم يحاولون أن يخلقوا لنا جيتو آخر عن طريق المقاطعة والحصار" (1).

ما نسيه موسى أو عزرا وبن جوريون هو أنهما جاءا إلى أرض كنعان كلصين ومجرمين ومستعمرين؛ قتلا صاحب الأرض ليسرقاها.

والفرق بينهما هو الفرق بين مستعمر ومجرم قديم، ومستعمر ومجرم حديث. ومطلبهما هو الاستسلام للمستعمر!!

ولم تكن فلسطين في يوم ما لهم حتى يقول بن غوريون " استعدنا". وكان عليه أن يقول: اغتصبنا، استعمرنا، اعتدينا... أما عن القرابة المزعومة فهو لا يمت بصلة إلى أبناء المنطقة ولا آباؤه ولا أجداده. وكذلك موسى وخالقو الوعد القديم.

إنها لغة المستعمر لا غير. اللغة القائمة على الدجل والكذب والخداع، لغة الميكافيلية والبراغماتية.

* * *

إذاً يغضب موسى على مدين لتحالفها مع موآب ضده، فيرسل جيشه إلى مدين ليرتكب مجازره!

فقد قتلوا كل ذكورها وملوكهم الخمسة وبلعام أيضاً، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا جميع البهائم والمواشي والأملاك، ثم أحرقوا المدينة (عدد 6/31-11).

ويعود الجيش بغنائمه إلى موسى عند عربات موآب (مقابل أريحا على الضفة الشرقية). فيطلب موسى منهم قتل كل طفل ذكر وكل امرأة ضاجعت رجلاً منهم. وأبقى الفتيات الصغيرات لهم للمستقبل!! (عدد 8/31).

واستقر الإسرائيليون في تلك البقعة حيث أعجبهم المكان، فطلبوا من موسى البقاء فيه والتخلي عن العبور إلى أرض كنعان.

فغضب الرب أو موسى / سيّان/، وأقسم أن كل ابن فوق العشرين سنة لن يرى أرض الميعاد، لأنهم لم يلتزموا بوصية الرب (عدد 11/32) ، ما عدا اثنين هما كالب ويشوع لأنهما أحسنا طاعة الرب أي كانا من أنصار العبور!

ونفذ يهوه وعيده (13/32): " واشتد غضب الرب على إسرائيل فأتاهم في البرية أربعين سنة حتى انقرض الجيل الذي فعل الشر في عيني الرب" (27).

والتيه هذا فسره كثيرون بأنه الفترة الزمنية التي احتاجها موسى لبناء جيشه وتعليمه أساليب القتال. فموسى كان أميراً / ضابطاً، في بلاط فرعون، وقد عجز عن اختراق حدود كنعان لدفاعهم القوي وتشبثهم بأرضهم، فقرر أن يبني جيشاً نظامياً مدرباً!

والسؤال: هل يحتاج تدريب جيش في تلك العصور إلى أربعين سنة ؟ إن معارك يشوع لم تدل على عقلية عسكرية، إنما كانت غزوات عشائرية همجية ويغلب عليها طابع الخرافة والضحك كما سنرى. وقراءة التوراة لا تعني الموافقة على جزء، ورفض جزء آخر. فالأرقام خرافية كلها وكذا الأحداث.(28)

إن التوراة تخبرنا بأن بني إسرائيل رغم عصيانهم وآثامهم وتمردهم كان لهم الدلال: المنّ والسلوى، الغيمة التي تحميهم من حدة الشمس الحارقة، وعمود النار الذي يضيء لهم ليلاً، وعمود الدخان الذي يهديهم في مسارهم، وينابيع المياه المتفجرة من الصخور...

وهناك آيات كثيرة تدل على متانة العلاقة بين يهوه وشعبه: " رأيت كيف حملك الرب إلهك كما يحمل الإنسان ابنه في كل الطريق التي سلكتموها حتى جئتم إلى هذا المكان". (تثنية 31/1).

" لأن الرب إلهك إله رحيم لا يتركك ولا يهلكك ولا ينسى عهد آبائك الذي أقسم لهم عليه". (تثنية 31/4).

" ولأجل أنه أحب آباءك واختار نسلهم من بعدهم". (تثنية 37/4).

" لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً / أمة/ أخص من جميع الشعوب / الأمم/ الذين على وجه الأرض". (تثنية 6/7).

" وواعدك الرب اليوم أن تكون له شعباً خاصاً ". (تثنية 18/26).

" وأن يجعلك مستعلياً على جميع القبائل... وأن تكون شعباً مقدساً للرب إلهك". (تثنية 19/26).

" من محبة الرب إياكم". (تثنية 8/7). " أولاد للرب إلهكم". (تثنية 1/14).

" ولكن الرب لزم آباءك فأحبهم واصطفى ذريتهم من بعدهم وحتى أنتم من بين الشعوب إلى يومنا هذا ". (تثنية 15/10).

وذاك الدلال وتلك العلاقة المميزة ارتبطا بالآيات التحريضية الكثيرة لاستعمار أرض كنعان:

" هذه هي الأرض التي تقع لكم نصيباً أرض كنعان بتخومها ". (عدد 2/34).

" تملكون الأرض، وتسكنون فيها لأني أعطيتكم الأرض لكي تملكوها ". (العدد 53/33). أو " وتملكون الأرض وتقيمون بها فإني قد أعطيتها لكم ميراثاً ". " ادخلوا وتملكوا الأرض التي أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم". (تثنية 8/1).

ومع ذاك الدلال والعلاقة المميزة والتحريض على استعمار فلسطين، كان اليهود يخفقون في اختراق حدود كنعان، وكانوا يتلقون الضربات القاسية والتي كان النص يفسرها بعقوبات تأديبية.

لكن يهوه كان دائماً: " يصفح عن أرضه عن شعبه". (تثنية 43/32).

والعقاب تأديب عارض: " كما يؤدب الإنسان ابنه قد أدبك الرب إلهك ". (تثنية 5/8).

و" لأن الرب يرجع ليفرح لك بالخير كما فرح لآبائك ". (تثنية 9/30).

ومع أن يهوه يعرف معدن شعبه: " إنهم أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم". (تثنية 28/32). و" قد كنتم تعصون الرب منذ يوم عرفتكم". (تثنية 24/9).

إلا أنه كان يصفح ويغفر ويندم على عقابه وتأديبه لأن أولئك كما يقول موسى: " شعبك وميراثك". (تثنية 29/9). ولأن يهوه، قطع معهم عهداً: " الرب إلهنا قطع معنا عهداً في حوريب ليس مع آبائنا قطع الرب هذا العهد. بل معنا نحن الذين هنا اليوم جميعاً أحياء". (تثنية 2/5-3).

ولأن الارتباط وحده، كاف وفوق كل الاعتبارات: " أي شعب هو عظيم له آلهة قريبة منه كالرب إلهنا في كل أدعيتنا إليه". (تثنية 7/4).

وفوق كل ما مر كان الرب على رأس جيشه: " الرب إلهكم السائر أمامكم، هو يحارب عنكم". (تثنية 30/1).

" لا تخافوا منهم، لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم". (تثنية 22/3).

إذاً الدلال والعلاقة المميزة والتحريض المستمر وخوض الرب المعارك بدلاً منهم...، كل ذلك لم يجد... وفجأة يتوقف التنفيذ لأربعين سنة كعقوبة لهم ؟!

فالرب نفسه أخفق في اختراق حدود كنعان، أوليس هو المحارب عنهم فلِمَ يحملهم وزر الإخفاق ؟!

إن محاولات موسى اللاهثة والمحمومة، ورغم التحريض، ورغم رفعه شأن عشيرته إلى الأوج، باءت بالفشل!

إن القراءة للوضع كما يذكر النص هي: عشيرة بدوية تعتمد على الرعي وتجارة المواشي، تتجول في الصحراء وعلى تخوم المدن. وتحاول الإغارة على بعضها فتخفق لمقاومة شعب كنعان لهم. وهذا الأمر شبه المتكرر أدى إلى إرهاق العشيرة وإنهاكها، وبث الرعب في نفوس أفرادها، فتوقفت عن المحاولات غير المجدية.

وآيات الوعد بالأرض والعلاقة المميزة والرب المحارب، كلها من وحي الخيال لرفع المعنويات الخائرة والرافضة لاستعمار أرض يدفعون حياتهم ثمناً دونما أية فائدة !

ولا ننسى أن موسى منذ أن خرج من مصر لم يكن هدفه أرض كنعان وقد استغرقت رحلته أربعين سنة حتى وصل إلى حدودها!!

فعزرا والكتبة أسقطوا على موسى حلم الأرض. ولم يخطر في بالهم تعديل مسار موسى ليتوجه من مصر مباشرة شمالاً إلى أرض كنعان ليوافق إسقاطاتهم. ثم التناقض بين وعد الله وتبنيه لشعبه ومحاربته عنهم، وبين الإخفاق، ثغرة تكشف زيف القضية برمتها!

والتلمود يدجل أيضاً! فهو يدعي أن سبب التيه وحرمان موسى من دخول أرض كنعان هو ادعاء موسى أمام بنات يثرون في مدين يوم هرب من مصر، بأنه مصري وليس عبرانياً!!

يقول د. أسعد رزوق: " كما أن التقليد التلمودي - على حد قول هس - ينحي باللائمة على كبير المشترعين موسى لأنه تظاهر بكونه مصرياً أمام بنات يثرون، وتخلى عن أصله العبراني! ولهذا السبب - يقول المدراش - رفض الرب الاستجابة لنداء موسى بدفنه في الأرض المقدسة" (29).

إن عشرات الآيات تنقض هذا الرأي والتي ذكرنا بعضاً منها عن العلاقة المميزة. فلا يمكن أن يكون العقاب بعد كل ذلك العشق والوله الذي لا حدود له بالحرمان من الأرض. والعقاب بحسب النص عقاب أبوي لا ينقض العهد والميثاق.

فكيف سيحرم موسى من الدخول لأنه تجاهل أصله أمام بنات يثرون ؟!

وإذا ما كانت تلك جريمة، فلم تتابعت بعدها الآيات والسرد باتجاه استعمار أرض كنعان ؟!

ثم هل تلك جريمة أقسى من قتله المصري، ومن عبادة العجل، ومن كسر الألواح وعليها كتابة يهوه بأصابعه، ومن صنع الحية، ومن الزواج بوثنية، و...

ثم ما يسمى بالضربات الربانية كعقوبات تأديبية، ألم تغفر وتمسح كل الآثام والذنوب - بحسب النص- ؟!
وإذا ما كانت هناك جريمة وهي السبب، فكيف دخل يشوع كما يدعي النص والشريعة تقول: " أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع من مبغضيّ ". (تثنية 9/5). ومتى استمر أولئك في الارتباط بيهوه، وهم في كل مرة يرمونه خلف ظهورهم ويتوجهون إلى آلهة الآخرين، فأين الحبّ ؟! وأين العلاقة المميزة ؟!

* * *

لقد أخفق موسى في اقتحام كنعان لأن أهلها صدوه بصمود وبسالة فتحطم قلبه لأنه كان يحلم بإقامة مملكة قوية بزعامته على غرار مصر. فقد قاد أتباعه - كما يقول فرويد - من شرق مصر الأقرب إلى أرض كنعان حاملاً أفكار أخناتون. إلا أننا نرفض تحليل فرويد المستند إلى التوراة كمسلمة، ونعدّ أخناتون - استناداً إلى التاريخ العلمي - موحداً، في الوقت الذي كان فيه موسى وثنياً كما صورته التوراة.
نعم! كان يحلم بإقامة مملكة بزعامته بعد استعمار أرض كنعان لكنه اقترب من الموت قبل تحقيق حلمه: " أموت أنا في هذه الأرض. لا أعبر الأردن. وأما أنتم فتعبرون وتمتلكون تلك الأرض الجيدة ". (تثنية 22/4).
وتزداد حسرته وغيظه فيصعد إلى جبل عباريم مقابل أريحا لينظر غرباً نحو الأفق البعيد حيث أرض كنعان شوكة دامية في قلبه، فيخاطبه يهوه: " انظر أرض كنعان التي أنا معطيها لبني إسرائيل ملكاً ". (تثنية 49/32).
ثم يقول له: " ولكنك لن تدخلها". (52/32).
ويموت موسى دون أن يتحقق حلمه: " ثم مُتْ في الجبل الذي أنت صاعد إليه". (50/32).(30)
وقد أنبأه يهوه سابقاً بأن يشوع هو الذي سيدخل إلى أرض كنعان: " يشوع بن نون الواقف أمامك هو يدخل إلى هناك ". (تثنية 38/1).
ومع أن موسى رجل الله " رجل الله، نبي إسرائيل". (تثنية 1/33). إلا أن غضب الرب على بني إسرائيل قد انعكس عليه: " وعليّ أيضاً غضب الرب بسببكم قائلاً: وأنت أيضاً لا تدخل إلى هناك". (تثنية 37/1).
وترد جملة: " خنتماني/ تعديتما عليّ ". (تثنية 51/32)، وهي تشمل موسى وهرون والخيانة بسبب: " ماء خصومة قادش في برية صين ولم تقدساني بين بني إسرائيل". وحكاية مياه الخصومة تتكرر في (تثنية 8/33).
وكذلك حكاية مياه الخصومة ليست مبرراً لعدم دخول أرض كنعان! ففي قادش ضرب موسى الصخرة مرتين فانفجر منها الماء، وشرب الإسرائيليون ومواشيهم. ولم يشكر موسى وهرونُ اللّهَ، فغضب يهوه وقتها عليهما فأمات هرون في جبل هور.
فقد جاء في سفر الخروج أن بني إسرائيل أصابهم الظمأ وضجوا حتى فجر لهم موسى الماء من الصخر وسمى ذلك المكان: " المحنة والخصومة بسبب مخاصمة بني إسرائيل وامتحانهم للرب قائلين أبيننا الرب أم لا ". (خروج 7/17).
ولم يحاول موسى أن يتصدى لتهكمهم ولم يدافع عن ربه. كما أنه لم يذكرهم فيما بعد بفضل ربه، بل نسب تفجر الماء لنفسه!
فالقضية مجرد تمرد واحتجاج لا تبرر عدم الدخول، فقد مرت أمور أسوأ منها وغفر يهوه وصفح!

ولا يبقى سوى ما ذكر وهو إخفاق موسى وموته ألماً لعدم قدرته على اختراق موانع شعب كنعان.

* * *

شريعة موسى:

لم يستطع موسى أن يقدم يهوه بصورة أفضل من صور الآلهة الوثنية. ومن هنا كانت التحولات السريعة من وإلى يهوه!

لقد قدم إلهاً مادياً صفاته بشرية، ولم يرتق إلى إله يمثل الحق والخير والعدل المطلق. فهو انفعالي يغضب ويندم ويعاقب ويتسرع... وأبقاه خاصاً بشعبه مما يعني الوثنية البحتة. وكونه يتعلق بشعب محدد جعله أقرب إلى ملك الشعب، قائد الشعب. وهنا اختلطت ماهيته بماهية موسى نفسه.

والشعوب القديمة عرفت مفهوم الملك الإله أو القائد الإله. فيهوه هو قائد عسكري يتقدم المحاربين، بل يقاتل عنهم. وهو الذي يخطط ويوجه ويخفق في المعارك وفي اختراق أرض كنعان، فيرمي إخفاقه على موسى أحياناً، وعلى شعبه أحياناً أخرى. متناقضاً مع ذاته بين وعوده وسلوكه مع أبنائه، وبين ما حلّ بأبنائه أمام صلابة كنعان ودفاعه النبيل عن أرضه.

يقول ديورانت: " ويبدو أن اليهود الفاتحين عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها، وجعلوا منه إلهاً صارماً، ذا نزعة حربية، صعب المراس..."... " ويلوح أنه كان في بداية الأمر إلهاً للرعد يسكن الجبال..."... " وحوّل كاتبو أسفار موسى الخمسة، وهم الذين كانوا يتخذون الدين أداة للسياسة، إله الرعد هذا إلى إله للحرب، فأصبح يهوه في أيديهم القوية إلهاً للجيوش ويدعو للفتح والاستعمار" (31).

ويستنتج ديورانت صفات يهوه بعد الذي ذكره: (لا يعلم بكل شيء - غير معصوم عن الخطأ - شرهاً - غضوباً - متعطشاً للدماء - متقلب الأطوار - نزقاً نكداً - راض عن يعقوب وما فعله من ختل وخداع - وضميره لا يقل مرونة عن ضمير الأسف - كثير الكلام - يحب إلقاء الخطب الطويلة...).

وتلك الصفات التي يذكرها ديورانت يمكن إسقاطها على موسى أو عزرا والكتبة أنفسهم.

* * *

أما الشريعة فهي سفر التثنية (سفر الشريعة)(32)، وقد كتبها موسى كما تقول التوراة. لكنها مسروقة من تراث المنطقة ولا سيما من شريعة حمورابي الذي عاش في منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

وهي تتناول الحياة الاجتماعية والاقتصادية لعشيرة بدوية بدائية بهدف تنظيم شؤونها. وهذا إضافة إلى أمور العبادة والطقوس.

ويرى موسى أن عظمة شعبه من عظمة شريعته: " وأي شعب هو عظيم له فرائض وأحكام عادلة مثل كل هذه الشريعة التي أنا واضع أمامكم". (تثنية 8/4).

لكن تلك الشريعة لا تعكس سوى البدائية والهمجية والعنصرية كجوهر لها فهي تقول كمثال: " وتكونون لي أناس مقدسين". (خروج 31/22). و " إني أنا الرب إلهكم فتتقدسون وتكونون قديسين لأني أنا قدوس". (لاويين 44/11). " أنا الرب إلهكم الذي ميزكم من الشعوب". (لاويين 24/20). " إله الآلهة الرب". (يشوع 22/22).

وعلى خلفية الشعب المميز والإله المميز قامت الشريعة. فهي تعكس تلك العلاقة بينها وبين الآخرين، والتي تختلف عن العلاقة بين اليهود أنفسهم، فالعلاقة مع الآخر عنصرية، وإن ظهرت آيات خلاف ذلك فهي كاذبة.

1- العلاقة مع الغريب: جاء في (العدد 16/15): " شريعة واحدة وحكم واحد يكون لكم وللغريب النازل عندكم".

" وإذا نزل عندك غريب في أرضكم فلا تظلموه. كالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم. وتحبه كنفسك لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر". (لاويين 19/33-34).

" ولا تضطهد الغريب ولا تضايقه، لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر". (خروج 22/21).

فعن أي غريب تتحدث تلك الآيات ؟! لقد غيبت الآيات الأخرى، الآخرَ/ نفته/ طمسته/ تجاهلته/ اغتصبت حقوقه. وهي وإن ذكرت الآخر إنما تذكره مهمشاً، مستعبداً، مذلاً !

فهو لا شيء في نظرها. لأن الشريعة لا ترى إلا اليهودي فهو محور الوجود كله. وهي تتعامل مع الآخر بشكل عنصري ومزرٍ وسنكتفي بمثالين: فعلى صعيد الربا: " للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بها ". (تثنية 23/20). فكيف تكون شريعة واحدة واستغلال الآخر قائم!؟

والرق فيه تمييز؛ فاليهودي إن استرق يهودياً فلبضع سنين فقط أما الرقيق الأجنبي فإلى الأبد. (خروج 21/2).

2- العلاقة مع الآخر في الحرب: وهنا تتجلى الوحشية بكل أبعادها:

" وتأكل كل الشعوب الذين يدفعهم إليك الرب إلهك، فلا تشفق عيناك عليهم". (تثنية 7/16).

" حين تقرب من مدينة لكي تحاربها، استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك. فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك". (تثنية 20/10-11).

فإن لم تصالح / تسالم/ أي لم تقبل أن تستسلم وتكون مستعبدة، فهذا يعني الحرب وبالتالي: " اضرب كل ذكر بحد السيف· وأما النساء والأطفال وذوات الأربع وجميع ما في المدينة من غنيمة فاغتنمها لنفسك". (تثنية 20/13-14).

3- العلاقة مع شعب كنعان: وهي ليست بعلاقة لأنها عملية إفناء: " واستأصل أمماً كثيرة من أمام وجهك: الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين. سبع أمم أعظم وأكثر منك". (تثنية 7/1)·

" فلا تستبق منها نسمة ". (تثنية 20/16).

" وإن لم تطردوا أهل الأرض من وجهكم، يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم، وحراب (مناخس) في جوانبكم، ويضايقونكم على الأرض التي أنتم مقيمون فيها". (عدد 33/55).

" كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان من النهر نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم". (تثنية 11/24).

" تتسلط على أمم كثيرة وهم عليك لا يتسلطون". (تثنية 15/6).

إن الشريعة جوهرها ثالوث عزرا، والثالوث ركنه الأساسي سرقة الأرض، فإن حذفنا الثالوث لن يتبقى شيء له أهمية!

* * *

وهناك طقوس باتت سمة مميزة لليهودية وهي السبت والختان والقرابين.

فالسبت: "علامة بيني وبينكم". (خروج 13/31). و" كل من عمل عملاً في يوم السبت يقتل قتلاً ". (15/31). والختان مر سابقاً.

أما القرابين فهي تكفير عن الذنوب: " لأن نفس الجسد هي في الدم فأنا أعطيكم إياه على المذبح للتكفير عن نفوسكم لأن الدم يكفر عن النفس". (لاويين 11/17).

ولربما تعكس القرابين حالة الجوع الشديدة، كما تعكس حب سفك الدماء. والإلحاح الدائم على الذبح يجعل يهوه إله لحّامين!

* * *

وفي الشريعة أيضاً المحللات والمحرمات. والنظام الجزائي (العقوبات): (القتل، الزنى، اللواط، السحاق، مضاجعة الحيوانات...) هو قائم على العنصرية والتمييز، فالزنى بأمة يكفر عنه بتقديم ذبيحة!!

* * *

وإذا كانت هناك بعض الآيات توحي بقيم، فيجب ألا نخرجها وحدها من السياق العام العنصري واللا أخلاقي.

ففي (تثنية 4/32): " إن جميع سبله عدل، إله أمانة لا جور فيه، صديق وعادل هو".

و " فاعلم أن الرب إلهك هو الله الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان". (تثنية 9/7).

و " ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل ما يخرج من فم الرب يحيا الإنسان". (تثنية 3/8).

فالعدل هنا ليس بالعدل المطلق، فهو ما يمس اليهود فقط، ولا قيمة له مع الآخرين وكذلك بقية القيم.

جاء في (تثنية 20/16): " العدل العدل تتبع لكي تحيا، وتمتلك الأرض التي يعطيك الرب إلهك".

فالعدل ضمن الدائرة اليهودية فقط. ونلاحظ العنصرية المقيتة: العدل الداخلي ينتج عنه اللاعدل الخارجي. عدل اليهودي نتيجته اللا عدل اليهويّ!!

فالآية تقول: كن أيها اليهودي عادلاً مع اليهودي، وبالتالي لا يتقيد ربك بالعدل، ويعطيك أرض الآخرين ويساندك في قتل أصحابها!!

ليست القضية انتقائية سواء على صعيد الشريعة أم صعيد الإله نفسه. فالعمل يُقرأ ككل لا يتجزأ، ويُبنى الحكم على أسس قيمية وعلى رأسها العدل المطلق والحقيقي ودونما تمييز!

فالشريعة لم تدع إلى العدل المطلق وكذلك يهوه وموسى. إن الآخر المغيّب، مباح دمه هو وأطفاله ونساؤه. وأرضه مستباحة.

فلا يهوه ولا موسى ولا الشريعة، ولا عزرا والكتبة يتسمون بالعدل، بل هم يتسمون بالعنصرية والجور والظلم المطلق.

وإذا ما نظرنا إلى هذه الآية المخادعة: " لأن الإنسان ينظر إلى العينين، وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب". (ملوك "1" 7/16) أو (صموئيل "1" 7/16)، نسأل ماذا نجد في قلب مَنْ مر معنا حتى الآن غير الحقد والحسد والشر والطمع والنرجسية والعدوانية والإجرام، والمؤامرات والسادية والخداع و... وما سيأتي أكثر!!

فهل ذاك القلب هو ما يريده يهوه ؟!

نعم! لأن أصحاب تلك الصفات كانوا أبناء يهوه وأحباءه وأنبياءه.

يتحدث ديورانت عن شريعة موسى فيقول: " وإذا شئنا أن نقول كلمة عامة عن قانون اليهود الجزائي، قلنا: إن هذا الجزء من القانون لا يفضل قانون حمورابي، وإن كان قد كتب بعده بألف وخمسمائة سنة على الأقل. أما من حيث تنظيم القضاء نفسه فإن فيه رجوعاً كثيراً إلى الوراء، لأنه يعود بهذا التنظيم إلى السيطرة الكهنوتية البدائية".(33)

* * *

شخصية موسى:

ذاك هو موسى وتلك هي مشاريعه وشريعته كما صاغها عزرا والكتبة. فكيف نقرأ تلك الشخصية ؟

لا شك أن موسى أهم شخصية في العهد القديم وإليه تنسب الديانة اليهودية ومن هنا أحيط بعناية أكثر من غيره ومنذ طفولته بل وأسقطوا عليه الكثير كأسطورة سرجون.

وسنتناول الخطوط العريضة التي تكشف جوانب تلك الشخصية مبتعدين قدر الإمكان عن الجوانب الخرافية!

لقد ترعرع موسى في القصر الذي سعى لقتل كل الأطفال الذكور وهذا في حد ذاته التحدي الأول لصانعي القرار. ولكن قتل الذكور سيؤدي - وبعمليات حسابية - إلى انقراض الإسرائيليين. بينما الأعداد الهائلة التي ذكرتها التوراة تنفي أسطورة قتل الأطفال!!

ومن طفولته وحتى سن الرجولة فترة مجهولة، ولكن الذي روى تفاصيل جلبه للقصر، يدل على أنه عليم بما يجري داخل القصر وخارجه، ولكن الصمت المطبق ذاك يدل على جهل الراوي وبالتالي أقحم حكاية في الحكاية التي يعرفها.

وينتقل بنا عزرا إلى حادثة القتل المتعمد وهرب موسى إلى مدين. ولِمَ الخوف وقد نشأ في القصر وهو ابنُ ابنةِ فرعون التي تبنته كولد لها. وبالتالي هو أمير له مكانته ولن يخشى من قتل رجل من الرعية من عامة الشعب. ومتى تساوى في التاريخ أمير برجل عادي من عوام الناس ؟!

وهنا إما إن حياته في القصر مزيفة لمنحه سمات الملوك، وما هو إلا إنسان عادي، وبالتالي هربه إلى مدين ينسجم مع الخوف من القصاص.

أو الهرب إلى مدين والخوف هما غير صحيحين. وبمعنى آخر توجد حكايتان متداخلتان متناقضتان.

والتوراة لا تقدم أدلة على علاقته بالمصريين أو الإسرائيليين سوى تلك الأسطورة.

وكذلك الانتقال من القصر المنيف والطبقة الحاكمة إلى الرعاع العبيد المضطهدين!

وفرويد جعله مصرياً صرفاً ليخرج من تلك الإشكالية. وبنى على ذلك تبعيته لأخناتون والتوحيد لأنه نسف قضية مدين.

لكن الهرب إلى مدين بناء على التكهن الآخر يجعل موسى جالباً للتوحيد والديانة من مدين.

وأياً كان الاحتمال فذاك يعني أن التوحيد ليس من بنات أفكار موسى فهو مصري المصدر أو مديانيّ.

والسؤال لماذا أراد موسى إخراج بني إسرائيل من مصر، وقد عبّروا خلال الرحلة عن ندمهم بترك مصر، وتفضيلهم البقاء فيها آمنين مطمئنين مما ينفي صحة الاستعباد والقهر!؟

وبما أن التاريخ ينفي الرواية كلها، لا نجد سوى البدء من الصحراء بديلاً. فهم عشيرة بدوية متنقلة في الصحراء يقودها موسى. ولم يكن هدفها أرض كنعان بحسب تتبع مسارها الأطلسيّ كما ذكر. وقد حلم موسى بعد عشرات السنين في الصحراء القاحلة باستعمار أرض بيوتها جاهزة لم يبنوها، وآبار لم يحفروها، وكرم زيتون لم يغرسوه (تثنية 11/6). و: " لأن الرب إلهك آت بك إلى أرض جيدة، أرض أنهار من عيون وغمار تنبع في البقاع والجبال. أرض حنطة وشعير وكرم وتين ورمان. أرض زيتون زيت وعسل". (تثنية 7/8-8).

وهذه الآية هي جوهر الأمر، فالأطماع الاستعمارية بأرض خيّرة معطاءة هو المحرك في الأسفار كلها سواء للشخصيات المرسومة في الأسفار. أو لعزرا والكتبة وسواء أكان هؤلاء في الأسر البابليّ - ولا دليل علمي عليه - أم أصحاب ما يسمى بالترجمة السبعينية أم عهد المكابيين!

وتلك الأرض التي استهدفها الكتبة الاستعماريون، كانت عامرة بشعبها الآمن والمسالم والذي يعمل ويكد ويتعب حتى استطاع أن يبني: " مدناً عظيمة ومحصنة إلى السماء". (تثنية 1/9)·

إذاً لا بد من القضاء على شعب كنعان للاستيلاء على خيراته. ولكن شعب كنعان يعرف كيف يدافع عن نفسه وأرضه وحضارته من غزوات العصابات واللصوص.

فكانت حروب موسى ومن بعده للحصول على الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً بدلاً من الصحراء الموحشة والجدباء.

وقضية يهوه والشعب المختار بُنيت كإيديولوجيا لاستعمار الأرض.

ولذلك كان يهوه إله حرب دموي ناري: " الرب إلهك هو العابر أمامك ناراً آكلة ". (تثنية 3/9).

وتعبئة العشيرة البدوية نفسياً بالعنصرية كشعب مميز فوق شعوب الأرض، وبالإله الوثني الخاص بهم يهوه، يساهم في خلق أدوات تنفيذ المشروع: " طوباك يا إسرائيل، من مثلك يا شعباً منصوراً بالرب. ترس عونك وسيف عظمتك. فيتذلل لك أعداؤك وأنت تطأ مرتفعاتهم". (تثنية 29/33).

إننا لسنا أمام دين وقيم، ولسنا أمام دعاة لهداية البشرية إلى الحق والخير والكمال. إننا أمام نصوص استعمارية وحشية همجية لا غير!

وعقلية موسى ليست سوى عقلية عسكرية انعكست على يهوه نفسه. ولو وازنا بين طموحات موسى وبنيته النفسية، وبين يهوه لما وجدنا أية فروقات!

إن موسى صارم، قاسي الملامح، خشن التعامل، عنيف، ميت المشاعر والأحاسيس، ميت الضمير... وكذلك يهوه!!

وموسى متعطش لنهب خيرات كنعان وسرقة أرضهم التي ورثوها أباً عن جدّ... وهو لم يتعب ولم ينزف قطرة عرق في صنعها. فهو مجرد طفيليّ يريد الجنة التي صنعها الآخرون، وكذلك هو يهوه!!

إنها النرجسية والأنانية والنفسية الوضيعة التي تقبل أن تكون عالة على الآخرين كعلقة تمتص دماءهم وجهدهم وعرقهم.

والمعارك التي خاضها جيش موسى ضد العماليق ومدين وغيرها... تبين الوحشية والشراسة والسادية.

لقد نسي عزرا أو موسى أن مدين آوته يوم هرب من مصر وأن زوجته من شعبها. ولم تمنعه المصاهرة من الفتك بمن فتحوا له قلوبهم!!

وقتل العجائز والأطفال، وحرق المدن، ونهب الخيرات، لا يدل إلا على العدوانية والإرهاب والهمجية المتعطشة للدماء، ويدل على الحقد والحسد والانتقام من شعب يفوقهم حضارة!

فما موسى إلا قائد عصابة، دموي النفس، مادي الرؤى، عصبي المزاج تسيطر عليه البراجماتية، فالمنفعة فوق أي اعتبار.

وتسيطر عليه أيضاً الميكافيلية، فأمام الهدف اللا أخلاقي تهون كل الوسائل اللا أخلاقية.

ولندع اللاهوتيين في قصورهم، وهم يفتقون عقولهم حول قضية الوثنية. فالنص يعترف بتوحيد شعب كنعان. والكتبة قدموا يهوه كإله وثني في الحضيض ولا يرتقي إلى مستوى أي إله وثني عرفته الشعوب الوثنية!

وعلى الرغم من ذلك نسأل اللاهوتيين: أين الآية التي تدل على محاولة هداية الوثنيين - كما يدعون - إلى الإيمان بيهوه ؟!

الآيات كلها تقول: اقتل، استعمر!

إنها شريعة ودين الاستعمار لا أكثر. وموسى نفسه أمام انفعالاته تعامل مع يهوه دون احترام بل كثيراً ما كان يهدده فيتراجع يهوه منكسراً أمامه. ولا ندري من هو الإله الآمر منهما!

إن قتل المصري وكسر الألواح وإيذاء هرون، وقتل الآلاف و... لا يدل إلا على شخص أهوج. وما حكاية العجل الذهبي إلا تمرد ضد موسى وإلهه الذي جسّد فيه طباعه وأطماعه.

ولعل اتهام موسى بقتل هرون لم يأت عبثاً، فهو الذي قاد التمرد. ومن هنا جاءت تنحيته ثم تصفيته وتصفية المعارضة.

ورغم تلك الطباع التي حملها موسى بقي عزرا يصفه قائلاً: " وأما الرجل موسى فكان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض". (العدد 3/12).

* * *

لقد ضاع موسى بين جنون العظمة، وجنون الاضطهاد الناتج عن خذلان جماعته لمشروعه الاستعماري، والمقاومة العنيفة التي أبداها شعب كنعان ضده· فتحطمت آماله!

ولم تُجده كلماته عن مكانة عشيرته وعلاقة يهوه بها وتحريضه على استعمار أرض كنعان.

لذا انفلت لسانه: " قد كنتم تعصون الرب منذ يوم عرفتكم". " إنهم أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم".

وهاتان الآيتان تتناقضان مع الآيات التي تتحدث عن متانة العلاقة بين الأب وأبنائه واختيارهم من بين الشعوب!

فإن كانوا عصاة ولا بصيرة لديهم، فلِمَ اختارهم يهوه ؟!

إن المعصية هنا عدم التجاوب مع مشروع موسى الاستعماري، وفقدان البصيرة عدم القدرة على رؤية السعادة التي ستتحقق بعد استعمار أرض الخيرات!!

وما ضربات يهوه التي تدل على البدائية والوحشية، إلا أداة التخويف والترهيب للانصياع للمشروع.

إن آيات والعنصرية تثبت حاجة يهوه لهم/ حاجة موسى لهم/ فهو مضطر لتحمل كل تصرفاتهم من أجل الهدف الاستعماري.

ورغم أنه جعلهم أبناء يهوه، وأعظم شعب، وبأنه وهبهم الأرض التي لم يبذلوا ذرة تعب فيها، لم تتحرك طموحاتهم، بل وجدوها لا معنى لها، مما جعله في النهاية يأسُه أن يشتمهم ويحرمهم منها أربعين سنة.

يقول سبينوزا: " إن اليهودي بمفرده، خارج عن المجتمع والدولة، لا يتميز عن الآخرين بأية هبة من اللّه، ومن ثم لا فرق بينه وبين غير اليهودي" (34).

ويقول أيضاً: " أما بالنسبة إلى الذهن والفضيلة، أي بالنسبة إلى السعادة والغبطة، فإن اللّه يرعى الجميع بقدر متساوٍ" (35).

وكلام سبينوزا صحيح تماماً بالنسبة للإله الحق الذي هو الكمال المطلق، ولكن إله اليهود يهوه ليس هو اللّه المطلق أبداً. إنه إله وثني. وهذا يعني أن سبينوزا ينقد ثالوث عزرا من جذوره: الإله الخاص، الشعب المميز، الأرض!

* * *

لقد وقف موسى أمام مرآة ذاته فوجد العظمة في أوج درجاتها، ورأى شعبه الذي يحبط طموحاته نتيجة انتصارات شعب كنعان عليه، فبدأ يشعر بالدونية التي ارتبطت بشيء من المازوخية فحاول عبثاً أن يعوض باللاشعور التوازن المطلوب، فمات غماً وحسرة وهو يتأمل أرض كنعان من الجبل!

يقول فراس السواح: " المقاومة المسلحة التي واجهها الإسرائيليون من قبل ملوك شرقي الأردن لا أساس لها من الصحة، لأن منطقة شرقي الأردن كانت خالية من المراكز الحضرية بين القرن السابع عشر والقرن العشرين قبل الميلاد. أما الاقتحام الصاعق للأراضي الكنعانية عبر الأردن، وتدمير وإحراق مدنها الرئيسية، فلم تقم عليه بينة تاريخية حتى الآن" (36).

إذاً لماذا هذه المسرحية التي قدمها الكتبة ؟!

قلنا: إننا نناقش نصاً دون النظر إلى صحته التاريخية أو عدم صحته. فنحن نناقش رؤى كتبة الأسفار، هؤلاء الكتبة الذين ربما عاشوا في القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد، وكانت لهم طموحاتهم الاستعمارية، فاستفادوا من تراث المنطقة ليسقطوا عليه تلك الطموحات مع ما يلزم ذلك من التلاعب بالنصوص الأصلية قدر قدراتهم العقلية والثقافية!!

لقد بدأوا بالإرهاصات الأولى مع بدء الخليقة ومروراً بنوح ثم عصر الآباء. وجعلوا كل ذلك الجانب النظري للثالوث الذي وضعه عزرا " يهوه - الشعب – الأرض".

وجعلوا موسى ومن بعده يمثل الجانب التطبيقي/ العملي للاستيلاء على أرض كنعان.

وسمات الآباء هي سمات التأسيس فهم أقلية وضعاف وعاجزون. أما سمات عصر موسى ومن بعده فهي سمات القوة والعنف والعدوانية فهم مرحلة بدء التنفيذ.

فلقد أسقط الكتبة رؤاهم الاستعمارية على خلفية تاريخية مزيفة ليخاطبوا يهود عصرهم بأن ذاك قد تحقق فعلاً في تلك الأزمان، - والتي نفاها التاريخ العلمي - وذلك لتكون أداة تحريض وتعبئة تستغل فكرة الدين والإله لما لهما من دور في تحريك المشاعر والأحاسيس.

* * *

إن موسى لم يقدم شيئاً للحضارة، وتلك الشريعة المسروقة والممسوخة لا تعكس حقيقة الله الذي هو الحق والخير والعدل والكمال المطلق.

والمؤرخون الغربيون لم يخرجوا من عباءة التأثير اللاهوتي والاستعماري. فهم وإن ادعوا العقلانية والموضوعية والعلم، نجدهم أمام اليهودية وأمام تاريخ فلسطين القديم، أبعد الناس عن العلم والموضوعية والعقلانية!

يقول ديورانت عن رجالات اليهود: " أورثوا العالم أدباً من أعظم آدابه، ودينين من أقوى أديانه، وعدداً عظيماً من أذكى رجاله وأعمقهم تفكيراً " (37).

أين هو ذاك الأدب، وأين هم أولئك الرجال ؟!

إن موسى لم يصل إلى مستوى أي زعيم في عصره؛ لا كقائد عسكري ولا كمفكر ومشرع. ولكنه وضع الأسس للعنصرية والعدوانية واللصوصية!

وحروبه هو وخليفته يشوع والمميزة بأبشع الجرائم، كانت بهدف استعمار أرض كنعان. ولم يكن هدفها نشر التعاليم الدينية التوحيدية كما يروج اللاهوتيون السذج!

لقد أعمتهم الرؤية الدينية عن رؤية الحقائق الإنسانية، وأعمتهم عن رؤية الأخلاق والحق والخير والمطلق!

فالحروب كانت استعمارية صرفاً، ولكنهم سموها حروباً دينية مقدسة!

المجازر الفظيعة التي يشمئز منها كل إنسان يمتلك ذرة ضمير ووجدان سموها حروباً دينية مقدسة!!

جاء في معجم اللاهوت الكتابي " إسرائيل في خدمة حروب الرب": " إن التطلعات التي أتاحها عهد سيناء، ليست تطلعات سلام وإنما تقوم على قتال: فالله يعطي شعبه وطناً، ولكن على هذا الشعب أن يغزوه غزواً". (خروج 27/23-33). إنها حرب هجومية، وهي مقدسة، ولها ما يبررها في تطلعات العهد القديم؛ كنعان بحضارته الفاسدة، المقرونة بعبادة القوى الطبيعية، يشكل فخاً لإسرائيل (تثنية 7/3-4)، ولذا يوافق الله على إفنائه (تثنية 7/1-2). وهكذا ستصبح حروب إسرائيل القومية "حروب الله" (38)!!

وفي المعجم نفسه: " فيحارب إسرائيل الكنعانيين لأنهم وثنيون... وفي الوقت عينه لكونهم يحتلون المكان، أي أرض الميعاد..." (39) !!

ألا يفكر الكتبة لحظة بما يكتبون ؟!

فشعب كنعان وثني، ومحاربته وإفناؤه أمر مقدس أقره الله. وشعب كنعان محتل، وأولئك الغرباء أتوا إلى أرضهم ليحرروها من المستعمر الكنعاني!!

لماذا لم يفكر يهوه بإفناء وثنيي العالم كله، لقد فكر فقط بوثنيي كنعان ؟!

ويجيب اللاهوتيون إنه: " مجانية الاختيار الإلهي، فقد اختار الله شعب إسرائيل، دون أي فضل من جانبهم" (40).
والوعد بإعطائهم أرض كنعان، وعد أبدي لا يتزعزع. إنها مزاجية الله في اختيار بني إسرائيل، ومزاجية في اختيار الأرض، ومزاجية في اختيار الشعب الذي يجب أن يدفع الثمن!
فاللاهوتيون يعلنون إيمانهم بإله مزاجيّ، دمويّ، لا يتسم بالعدل ولا يمثل الحق والخير والمنطق، ولا يمثل المحبة والسلام... فهنيئاً للاهوتيين المؤمنين بذاك الإله الذي هو في الحقيقة تجسيد لطموحات الكتبة الاستعماريين فهو إله الشر لا غير!
لقد فات اللاهوتيين أمر كما فات عزرا والكتبة. فهم يدعون بأن يهوه وعد إبراهيم ونسله بالأرض الكنعانية. وهم كما تذكر التوراة آراميون، فهل موسى ومَنْ هم بعده آراميون، وهل عزرا ويهود عصره آراميون، وهل يهود العالم كله آراميون ؟!
إذاً ما علاقة اليهود بأولئك ؟!
وهل وعد يهوه يتعلق بإثنية / عرق، أو يتعلق باليهودية كدين ؟!
اليهودية لم تكن زمن إبراهيم ونسله، وهم لم يكن لهم دين سوى يهوه والختان والقرابين والتمييز والأرض.
وموسى صاحب الديانة لم يكن يهودياً. وقد جاءت التسمية في عهد عزرا والسبي بحسب النص. وقد تحدثنا عن كل ذلك سابقاً وأوضحنا أن الكلمة قد شاعت في عهد المكابيين الاستعماريين.
إذاً الثالوث أُسقط الدين عليه، أو هو أُسقط على الدين.
وما يريده عزرا هو الوعد الإثني/ العرقي، لأن الدين لاحق جاء فيما بعد. لكنه ظن أن الدين هو الإثنية ولم يميز بينهما، وكذا فعل الكتبة فهم الذين خلطوا الدين بالإثنية دون فهم للفروقات بينهما!
لقد حرص عزرا على تتبع سلالة إبراهيم عبر إسحق ويعقوب مُخرجاً من المسرح أشخاصاً لهم صلة بأولئك، لأنه حدد مسار الأسرة المقدسة. لكن الخيوط أُفلتت من يده مع نسل يعقوب. وبعد أربعة قرون من الإفلات عاد ليجعلهم جميعاً من سلالة أبناء الله!!
وكان عليه أن يُعيد الاعتبار أولاً للوط ولإسماعيل ولعيسو ولسلالاتهم قبل فتح الأبواب على مصاريعها دون تحديد ودونما خطوط حمر ودوائر!! أو أن يفصل بين جماعة موسى، وبين أسباط يعقوب! وهذا التناقض والزيف ينسف المقولة بكاملها!
والأمر ذاك يوصلنا إلى أن الفكرة الاستعمارية والرؤية العنصرية جاءتا فيما بعد. ثم أخذ الكتبة بتوزيعهما على نصوص الأسفار، والتي مادتها الأساسية من تراث المنطقة كما تحدثنا سابقاً!
لقد أسقط الكتبة الثالوث على عدة مجموعات لا رابط بينها مطلقاً، وجعلوها متسلسلة وحتى ما بعد السبي!!
وتبني المؤرخين لتلك الخزعبلات منحها الديمومة والاستمرار. وكذلك تبني اللاهوتيين المسيحيين للعهد القديم منحه القدسية والبقاء.

فرؤية المستعمرين التي جعلها عزرا والكتبة وعداً إلهياً صارت في اللاهوت المسيحي مرسوماً تشريعياً. ففي مقدمة سفر يشوع: " وكالمصدر القانوني لحق إسرائيل في أرضه" (41).

فإذا كان الكتبة قد حصروا دائرة التقديس في اليهود، وأخرجوا ما عداهم منها، وكذلك جعلوا الأنبياء منهم فقط، كتعبير عن العنصرية وضيق الأفق والنرجسية. فما بال من يدعي الأفق الواسع والموضوعية والعقلانية!

يقول سبينوزا: " ومن ذلك يمكننا أن نستنتج أن هبة النبوة لم تكن وقفاً على اليهود وحدهم، بل مشتركة بين جميع الأمم" (42).

فسبينوزا هاجم الفريسيين الذين حصروا النبوة في اليهود ولم يرووا إلا بما يتعلق بهم. وهناك احتمال لوجود أنبياء لكل الأمم كما يرى.

فلِمَ لَمْ يدرس اللاهوتيون المسيحيون والمؤرخون بحيادية وموضوعية الطرف الآخر المغيّب تماماً، أن يدرسوه بعيداً عن رؤية الأسفار له لأنها هي التي شوهته وأساءت إليه !؟

* * *

2- يشوع بن نون

استلم السلطة بعد موت موسى، فخاطبه يهوه: " إن موسى عبدي قد مات والآن قم فاعبر هذا الأردنّ أنت وجميع هؤلاء الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لبني إسرائيل. كل مكان تطأه أخامص أرجلكم لكم أعطيته". (يشوع 2/1-3).

وهكذا يرسل يشوع (43) جاسوسين إلى أريحا. فيذهبان ويتعرفان إلى مومس اسمها راحاب. ويعلم الملك بأمرهما، فتخبئهما. وبعد زوال الخطر تهربهما من الكوة: " فأنزلتهما بحبل من الكوة ". (يشوع 15/2).

ويعودان ومعهما أخبار أريحا. وتهيأ يشوع مع جيشه لعبور نهر الأردن الذي: " ممتلئ إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد". (يشوع 15/3).(44)

فحوله يهوه إلى يابسة كما حدث مع موسى عندما عبر البحر الأحمر! وبعد العبور، طلب منه يهوه: " اصنع لك سكاكين من صوّان واختن بني إسرائيل". (يشوع 2/5).

وهذا الاختتان وإن عطله السفر بالأجيال الجديدة، إلا أنه من المفترض أن يختتن الطفل في اليوم الثامن لولادته، فلم التأخر لسنوات، لسن الشباب ؟!

فالختان هو العهد في الشريعة ومنذ إبراهيم. فهل نحن أمام وضع جديد تخلى معه أبناء الله عن الشريعة، أم نحن أمام عشيرة جديدة لا علاقة لها بجماعة موسى ؟!

والاختتان بحجر الصوان يدل على أنهم بدائيون ومتخلفون. فأين السلاح وأين الجيش ؟!

ويزداد اليقين بتخلفهم من خلال تخطيط الرب لهم وتوجيههم في الحرب، ثم نكتشف نوعية التخطيط المضحك!

فقد تجسد الرب في شخصية فارس شاهر سيفه وهو يخاطب يشوع: " أنا رئيس جند الرب".· (يشوع 14/5). وطلب من يشوع الذي سجد أمامه، أن يخلع نعليه لقدسية المكان!

وهذا يذكرنا بموسى (خروج 5/3) عندما خاطبه يهوه من وسط العليقة المتأججة ناراً.

ويعلّم الربُ يشوعَ كيف يحتل أريحا وذلك بالدوران حول أسوارها بأبواق سبعة ولسبعة أيام وفي كل يوم دورة. وفي اليوم الأخير السابع يدورون سبع دورات ويهتفون بصوت واحد فيسقط سور المدينة!! (يشوع 5/6).

فالرب هو القائد المخطط وهم المنفذون، وهكذا تنهار أسوار أريحا. (يشوع 20/6).

ولسنا ندري أنحن أمام فلم كرتوني للأطفال أم ملحمة كوميدية ؟!

إن الذين حللوا أسباب التيه بالتدريب العسكري على فنون القتال، نسألهم أين التدريب العسكري لأربعين سنة أمام هكذا فتح ؟!

إن المدينة لم تفتح بجيش عرمرم، وفي إحدى روايات ابن الأثير أن يوشع (يشوع) حاصر أريحا مدينة الجبارين ستة أشهر لكنه لم يغفل رواية التوراة بإسقاط السور بالصيحات!(45)

وبعد أن سقط سور المدينة دخلوها " وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة ومن طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف". (يشوع 21/6).

ثم نهبوا المدينة ولا سيما الذهب والفضة، وأحرقوها. ولم ينج أحد منها إلا المومس راحاب وأهلها لأنها أنقذت الجاسوسين!

والأمر نفسه يتكرر في مدينة عاي عند بيت آون شرقي إيل (يشوع 2/8 وما بعد...).

ولكن في عاي ينهزم أولاً أمام استبسال أهلها، ويندم على مهاجمتها، وتمنى لو بقي شرقي النهر. إلا أن الإشكالية تحل فالهزيمة عقاب على سرقة من الغنائم!

ولأن الرب هو القائد العسكري الأعلى والمحنك، فهو يعلّم يشوع كيف يقتحم المدينة بالخداع والحيلة. وتنجح الخطة الإلهية. وتتم المجزرة على غرار أريحا (يشوع 19/8-25). فقد قتل سكانها كلهم وعددهم اثنا عشر ألفاً، ونهبوا الممتلكات والبهائم وأحرقوا المدينة! وعلّق يشوعُ ملكَ عاي على خشبة مصلوباً (يشوع 29/8).

يقول ديورانت: " كما أن هزيمتهم للكنعانيين ليست إلا مثلاً آخر لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين. وقتل المهاجمون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم وسبوا من بقي من نسائهم وجرت دماء القتلى أنهاراً، وكان هذا القتل كما تقول نصوص الكتاب المقدس: " فريضة الشريعة التي أمر بها الرب موسى". و " زكاة للرب". ولما استولوا على مدينتين من المدن قتلوا من أهلهما 21ر000 رجل. ولسنا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف في القتل والاستمتاع به...". " أما يشوع فلم يكن إلا جندياً فظاً "(46).

هذه المجازر الفظيعة أنعشت صدر يهوه الدمويّ، مما ينفي عنه صفة الإله الحقيقي المتسم بالعدل والقيم ومحبة الإنسان، فهو ليس أكثر من جزار أو إله الجزارين!

ويصف ديورانت إله اليهود يهوه فيقول: " وهو يرتكب في سبيل انتصار شعبه من ضروب الوحشية ما تشمئز منه نفوسنا اشمئزازاً لا يعادله إلا رضاء أخلاق ذلك العصر عنها. ويأمر شعبه بأن يرتكبوا هم هذه الوحشية؛ فهو يذبح أمماً بأكملها راضياً مسروراً من عمله..." (47).

* * *

ويتحالف ملك أورشليم (أدوني صادق) مع أربعة ملوك أموريين ضد جبعون لأنها أعلنت الصلح مع يشوع.

ولكن جبعون تستنجد بيشوع، فيأتيها ليحارب الملوك الخمسة المتحالفة ضدها.

وكادت الشمس أن تغيب قبل أن تنتهي المعركة، فطلب يشوع من ربه أن تتوقف الشمس عن المغيب: " يا شمس دومي على جبعون، ويا قمر اثبت على وادي أيّلون. فوقفت الشمس وثبت القمر إلى أن انتقم الشعب من أعدائه. أليس هذا مكتوباً في سفر ياشر. فوقفت الشمس في كبد السماء. ولم تمل للغروب نحو يوم كامل". (يشوع 13/10).(48). فالرب المخطط العسكري يشترك في القتال ويأمر الشمس بالوقوف. ويُنزل على الكنعانيين برداً كقطع الحجارة " لأن الرب حارب عن إسرائيل". (يشوع 14/10).

وهرب الملوك الخمسة إلى مغارة، لكن يشوع سرعان ما يقبض عليهم ويصلبهم على خمس أخشاب. (يشوع 26/10).

والمؤرخون العرب القدماء داروا في فلك يشوع التوراتي. فعبد الرحمن بن الجوزي يذكر بأن يوشع (يشوع) كان يقاتل يوم الجمعة وخاف أن يأتي السبت حيث لا يجوز العمل فيه. فطلب من الرب إيقاف الشمس لإنهاء القتال قبل حلول السبت!!(49)

وإن كنا نريد أن نستنتج شيئاً فإننا نتألم لسذاجة التحليل والاستخفاف بالقارئ.فهل الرب كان حريصاً أيضاً على إنهاء المجزرة قبل السبت !؟ وهل يشوع والرب من أجل السبت!؟

وهل المشكلة إيقاف الشمس، أم ما وراء ذلك من المجازر الوحشية التي ارتكبها يشوع ؟!

يتحدث سبينوزا عن توقف الشمس وكذلك عن تراجع الظل عند أشعيا كما يتحدث عن نوح وظنه بأن العالم لم يكن مسكوناً باستثناء فلسطين ليصل إلى نتيجة مفادها أن نبوة النبي لا تزيد علمه!

" ولم يجهل الأنبياء مثل هذه الأشياء فحسب، بل جهلوا أيضاً أشياء أخرى كثيرة أكثر أهمية " (50).

" النبوة لم تجعل الأنبياء أكثر علماً "(51).

فالنبي كان يعتقد بثبات الأرض وحركة الشمس كما يقول سبينوزا. ولكن النص ديني، ويهوه الرب هو الذي أوقف الشمس، فهل هو جاهل أيضاً بوضع نجومه وكواكبه ؟!

إن هذا يعني خرافة الآية وبالتالي خرافة قدسيتها ونسبتها!

* * *

ويتابع يشوع زحفه حتى جبل الحرمون في لبنان. ثم يعلمه ربه كيف يقسم الأرض التي احتلها / استعمرها، بين جماعته الاثني عشرية من سلالة يعقوب. ويقوم بدفن عظام يوسف التي جلبوها معهم من مصر كما فعل يوسف عند وفاة أبيه يعقوب. واستناداً إلى أرقام النص يتبين أن ذلك تم بعد أكثر من خمسمئة سنة!

أما بقية أولاد يعقوب فعلى ما يبدو دفنوا في مصر ولم يطلبوا دفنهم في أرض كنعان!!

وشاخ يشوع فجمع الشيوخ ووعظهم وأخذ عليهم العهد وكتبه في سفر شريعة الرب ثم مات. (يشوع 29/24).

إذاً وبحسب النص أنجز يشوع قسماً من مشروع احتلال قسم من الأرض الموعودة استعمارياً، وهو ما عجز عنه موسى. فالوعد النظري مع الآباء، بدأ تحقيقه جزئياً مع يشوع كما يدعي النص.

* * *

إن شخصية يشوع تمثل الجانب التطبيقي لمشروع عزرا الاستعماري وما فعله يشوع كقائد لعصابة يضعنا أمام النقاط التالية:

1- حروب يشوع إنما هي حروب ملحمية على نمط الإلياذة وغيرها من الأساطير. حيث تقاتل الآلهة إلى جانب أبطالها. وتسخر قوى الطبيعة والكون لخدمة أولئك الأبطال.

فالآلهة حليفة، تبذل كل طاقاتها لنصرة شريكها. وكل هذا لا غرابة فيه. ولكن الغرابة أن يكون ذاك حقيقة دينية إلهية عند المؤمنين بها!

2- الروح العدوانية الشرسة تدل على همجية وبدائية أبناء الله كما يسميهم عزرا. وذاك يفضح وثنية الرب يهوه المتعطش للدماء والقتل والحرق. وتلك السادية سادية يهوه وأبنائه، مرض نفسانيّ يعبر عن شدة الخوف من شعب كنعان.

يقول يونغ: " إن المرضى يكونون أشد خطراً في حالات الخوف منهم في حالات الغضب أو الحقد " (52).

وما فعله يشوع لا يفعله إلا مريض. أي لم يكن إنساناً سوياً على الإطلاق!

فهو نموذج للشخصية العدوانية الشرسة والسادية. ومن هنا نجد قادة العصابات الصهيونية / الهاغاناه، شيترن، أرغون/ وقادة الكيان الإسرائيلي... يجعلون يشوع بطلهم ومثلهم الأعلى كما صرح بذلك كثيرون كبن جوريون وبيغن... (53).

إن الانتقال من الضعف إلى القوة، فجّر العدوانية العنصرية بكل أبعادها من عنف وإرهاب وقتل وسفك دماء. لأن الهدف هو الاستيلاء على الأرض بأي شكل من الأشكال.

لقد تحول المكبوت إلى فرصة ممكنة، فاستُغلت القوة والبطش لأبعد مدى ممكن، لإزاحة ابن الأرض/ الخصم.

وكل شيء مبرر بهدف محو الآخر عن الخارطة / الأرض الموعودة. وأمام هذه الميكافيلية أُدلج الدين، وأُدلج يهوه ليصير شريكاً وحليفاً لتلك البراجماتية.

ولا يمكن ليهوه إلا أن يكون الشريك الكامل وإلا رُمي خلف الظهر وجيء بإله آخر يقبل أدلجة الغزو والاحتلال والقتل والتدمير!

وبالتالي على يهوه أن يتماهى في أبنائه وأن يصير هدفه هو هدفهم. وهنا تستعيد الذات توازنها. وكلما ازداد العنف تحقق التوازن أكثر.

فارتفاع وتيرة الشراسة، ترتفع معه درجة الراحة النفسية، والشعور بالأمن والاطمئنان.

يقول ندرة اليازجي: " لنتصور شعباً يدخل في روعه أن الإله يهوه يقف إلى جانبه ويناصره على قتل غيره حتى ولو اضطر إلى إيقاف حركة الوجود! إن شعباً من هذا النوع يسير كالأعمى في ركاب قادته، ويصبح عبداً لشريعة تعطى له.

ويشوع هذا، أراد أن يفتح مدينة أريحا. لكن أريحا كانت محصنة وقد امتنعت عليه. فماذا فعل يشوع ؟

إنه استشار إلهه يهوه... وكالعادة، يقدم له يهوه المشورة والنصح ويضع له خطة... إنها إرادة الإله. فالعمل مقدس وموحى به! ويشوع هذا يؤمن بإرادة إلهه التي تدفع الإسرائيليين إلى الفتح والتدمير والتقتيل...". " هذا هو " الإله" الذي يساعد اليهود، إله البطش والقتل والدمار وإهراق الدماء. هذا هو الإله الذي تعتبر إرادته مقدسة "(54).

3- رغم المجازر التي قام بها يشوع، بقي شعب كنعان في أرضه يدافع عنها ويصد أولئك اللصوص الذين يريدون سرقة أرضه وممتلكاته...

واليد الحديدية تلك كما صورها عزرا، لم تتمكن من تثبيت وجودها رغم كل ادعاءات الوحشية. ولم يدع شعب كنعان المستعمرين أبناء يهوه ينعمون بالهناء والأمن والاستقرار. فقد بقوا شوكة في حلق موسى ويشوع وكل من جاء من بعدهما.

4- عندما أخفق يشوع في هجومه على عاي بادئ الأمر ندم على مجيئه إلى أرض كنعان، وتمنى العودة إلى شرقيّ نهر الأردن، وهذا الندم وتمني العودة لا يختلف عما ورد عن شعب موسى عندما ندموا وتمنوا العودة إلى مصر، وقد غضب يهوه حينئذٍ وعاقبهم ثم في نهاية المطاف حرمهم من دخول أرض كنعان.

فلِمَ لَمْ يغضب يهوه ؟! ولمَ جعل عزرا يشوعَ ينجح ؟!

لقد كان يشوع في زمن موسى من أنصار العبور. وقد راهن يهوه عليه لدخول أرض كنعان في الوقت الذي لم يراهن على موسى. وكون عزرا جعله لا يغضب على تردد يشوع وندمه، لأنه يريد متابعة تنفيذ الفكرة وإلا سيبقى في حلقة مفرغة!

وعزرا لا يروي حقائق، إنما يسقط تمنيات وأحلام كيفما اتفق ودون اهتمام لتناقضات. فقد أراد أن يكون يشوع هو المحقق للفكرة وهذا هو هدفه، وكل ما عدا ذلك لا قيمة له بنظره.

فالكتبة هم هكذا يُسقطون الأهداف دون بذل جهد في تمحيص طرق عرضها أو تحقيقها. وهذا تعليل التناقضات كلها. وكذلك السقطات الكثيرة!

5- إن التوراة ليست كتاباً علمياً وليست كتاباً تاريخياً أو جغرافياً. والتاريخ العلمي لم يثبت قضية يشوع كلها من ألفها إلى يائها، فلا يوجد أي أثر أركيولوجي يدعم أي جزء من حكايته. مما يعني أن الحكاية كلها محض خيال، وحلم كتبة لا أكثر!

وهذا يتوافق مع ما قلناه: الشخصية والحدث والحكاية، مجرد وسيلة لبث أفكار ثالوث عزرا وعلى رأسها احتلال أرض كنعان.

وعلى الرغم من ذلك، فإن ما ذكر من أحداث وشخصيات وحكايات إنما يعكس روح عزرا والكتبة ويعكس أفكارهم ومفاهيمهم ونفوسهم والتي صارت ديناً يهودياً من عند يهوه!!

* * *

هوامش الفصل الثالث: عصر العنف والعدوانية

(1) أبو موسى واسمه عمرام كان قد تزوج عمته يوكابد فولدت له هرون ثم موسى. وعند المؤرخين العرب: موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث ابن لاوي. وكلهم يعتمد على رواية الطبري. راجع على سبيل المثال الكامل في التاريخ لابن الأثير - المجلد الأول (ص130). والكامل للشيباني (ج1 ص130). وهناك رواية تُسقط يصهر كما في تاريخ اليعقوبي (ج1 ص 33) " موسى بن عمران بن قهث بن لاوي". وهناك رواية تذكر عازر بدلاً من يصهر كما في البداية والنهاية لابن كثير (ج1 ص 237). "موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي ".

ومعنى كلمة موسى " المنتشل". " إني انتشلته من الماء " (خروج 10/2). وهي كلمة مصرية أو آرامية. راجع كتاب موسى والتوحيد لفرويد - وقصة الحضارة لول ديورانت (م1 ج2 ص 326). وهناك تشابه بين شخصيتي يوسف وموسى: فموسى انتشل من النهر ويوسف انتشل من البئر. وكلاهما عاش في القصر الفرعوني. وكل منهما تزوج واحدة وخلّف ولدين.

(2) فراس السواح: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم – ص 245.

(3) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1 ج2 ص 18.

(4) ينقل د. خزعل الماجدي في كتابه: " المعتقدات الكنعانية " ص 216، عن حياة الحيوان للدميري أن " دانيال ولد في زمن ملك ظالم تنبأ له العرافون بأن طفلاً ولد في تلك الليلة سيفسد عليه ملكه فأمر بقتل كل من ولد تلك الليلة لكن أم دانيال وضعته في حظيرة أسد ولبوة يلحسانه الليل كله حتى نجاه اللّه". وابن دانيال واسمه إقهات، تشبه ولادته ولادة إسحاق وشمشون وصموئيل (ص 218). كما يذكر أن صبر دانيال وصبر أبيه كرت، يشبهان صبر أيوب.

(5) رعوئيل أو يثرون أو يترو كما في خروج (1/3). ويروي الطبري في تاريخه (ج1 ص 231) أن أبا زوجة موسى هو النبي شعيب " يترون وهو شعيب النبي ". وراجع البداية والنهاية لابن كثير (ج1 ص 244).

(6) ثريا منقوش: التوحيد في تطوره التاريخي – ص 81.

(7) فراس السواح: لغز عشتار - ص 374.

(8) أهيه أشير أهيه أي أنا هو الذي إنه هو، أو أكون الذي أكون. فأهيه فعل ناقص بمعنى أكون وهي كلمة سامية. وممكن أن تكون هياه بمعنى الحياة. (راجع الموسوعة الكتابية).

ونجد أن يهوه في نسخة الملك جيمس تقابل / Lord. وقد تترجم إلى God. وأحياناً تبقى كما هي: (جهوفا) Jehovo. بينما اللّه أو الإله – God. أما الرب – Lord. وهناك ألفاظ أخرى تعبر عن الرب: أخيا، أخياه، يوكايد. ونلاحظ أن لفظ يهوه وإلوهيم كانا شائعين في أرض كنعان قبل الأسفار. (راجع الموسوعة الكتابية - وأيضاً كتاب " اللّه": عباس محمود العقاد). وإيل هو اللّه في الكنعانية. وإلو في البابلية. فأهيه غموض لا معنى له، وموسى يسأل عن الماهية، الهوية، الشخصية، الكينونة... وعلى كل تلك التسميات أو الصفات تعني الإله الخاص باليهود وليس الإله العام للجميع!

(9) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1 ج2 - ص 340 (الهامش).

(10) د. خزعل الماجدي: المعتقدات الكنعانية - ص 245.

(11) الترجمة البروتستانتية وبشكل متعمد صيغت بأسلوب سيئ (راجع كتاب: دراسة الكتب المقدسة لموريس بوكاي). وفي النص الكاثوليكي: " وهو يخاطب الشعب عنك ويكون لك فماً وأنت تكون له بمثابة اللّه". أما الترجمة عن نسخة الملك جيمس: " هو بدل من فمك، وأنت بدل من اللّه".

(12) يذكر الطبري في تاريخه (ج1 ص 231) وبقية المؤرخين كابن الأثير في كتابه: الكامل في التاريخ (م1 ص 130)، أن فرعون مصر حين قتل موسى المصري هو قابوس بن مصعب. وبعد أن مات استلم أخوه الوليد بن مصعب.

(13) راجع كتاب د. أحمد داود " تاريخ سوريا القديم". وهناك كتب أخرى تحدثت عن تلك الأرقام منها: كتاب " بلادنا فلسطين". لمصطفى مراد الدباغ - ج1 القسم الأول (ص 544) حيث يذكر أن عدد الخارجين 5550 نسمة بالاستناد إلى كتاب " مصر القديمة " لسليم حسن. كما تضاربت سنوات الخروج: 1448 ق.م - 1300 ق.م - 1290 ق.م - 1220 ق.م...

(14) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1 ج2 هامش ص 326.

(15) فرويد: موسى والتوحيد: ص 54 وما بعد.

وهناك رأي لمحمد عزة دروزة في كتابه " تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم". (ص66) وهو منقول عن كتاب العقد الثمين لأحمد كمال - (ص 91-93): " إن من المحتمل أن يكون انقلاب أخناتون متأثراً بأمه تايي التي هي من أهل الشمال مما يحتمل أن تكون عبرانية ".

وطبعاً هذا الاحتمال ضعيف لأن أهل الشمال هم الكنعانيون وهم الموحدون أما العبرانيون فكانوا وثنيين. وفي كتابي فراس السواح " مغامرة العقل الأولى ولغز عشتار". يستقر الرأي على أن يهوه كنعاني، وقد أخذه الإسرائيليون معهم إلى مصر. وخرجوا من مصر خالطين الإله يهوه بغيره. وكأنما هذه الرؤية تلتقي رؤية ثريا منقوش والتي أوصلت الإله يهوه إلى مدين. فمدين نقطة التقاء ليهوه الكنعاني بيهوه اليمني!!

(16) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1 ج2 – ص 168 وما بعد.

(17) فراس السواح: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم - ص 198.

(18) الطبعة البروتستانتية تستخدم التسمية (سوف). أما الكاثوليكية فتستخدم (البحر الأحمر). وقد وردت تسمية (القلزم) في سفر (المكابيين 1) (فصل 9/4): " اذكر كيف نجا آباؤنا في بحر القلزم حين تتبعهم فرعون بجيشه". والقلزم تسمية قديمة للبحر الأحمر.

(19) عيد الفصح عند اليهود يرتبط بذكرى الخروج " فصح الرب للخروج من مصر وإهلاك المصريين ". (خروج 11/12 وما بعد). وهو فريضة تتبعه طقوس كأكل الفطير والذبائح.. ويحتفل فيه بشهر أبيب (السنابل) عند الاعتدال الربيعي. وعيد الفطير يتداخل مع عيد الفصح ولهم أعياد كثيرة كعيد الحصاد وجمع الغلال، وعيد المظال...

(20) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1 ج2 - ص 158.

(21) تذكر الموسوعة الكتابية أن حماة في النص إما حماة المعروفة شمالي حمص. أو مدينة أخرى عند منابع العاصي في لبنان. ورحوب قد تكون بانياس في الجولان السورية.

(22) إحدى روايات الطبري في تاريخه ج1 - ص 256.

(23) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1 ج2 - ص 339.

(24) حشبون هي الجبال المقابلة لأريحا وتبعد عنها ستة عشر ميلاً شرقاً (الموسوعة الكتابية).

وبنو عمون هم سلالة لوط الذين أخرجوا من السلالة المقدسة. ولم يستطع الإسرائيليون أن يحتلوا منطقتهم " لأن تخم بني عمون كان منيعاً ". (عدد 21/ 24).

(25) يذكر المؤرخون العرب أن بلعام كان نبياً وقد قتله موسى. ويذكرون أنه من نسل لوط وأن حيلته لإفساد بني إسرائيل (أن يزينوا نساءهم ويرسلوهن إلى معسكر موسى للزنا، ولا تمنع امرأة أحداً من مضاجعتها). وقد حل الطاعون على الإسرائيليين عقاباً لهم. (الطبري ج1 ص 58). (اليعقوبي ج1 ص 40). (الشيباني ج1 ص 153).

(26) السيد يسين: الشخصية العربية – ص 105.

(27) يذكر الشيباني في كتابه الكامل - (ج1 ص 149)، أن الله أمر موسى " أن يسير ببني إسرائيل إلى أريحاء بلد الجبارين وهي أرض بيت المقدس". فرفض الإسرائيليون أن يسيروا معه، فوقع عليه التيه أربعين سنة.

(28) راجع على سبيل المثال موسوعة أساطير العرب: د. محمد عجينة.

ونلاحظ تكرار رقم 40/ سنة/ يوم/ ليلة... ومثله الرقم 7... فالأرقام لها عالم خاص في الغنوصية والرمزية...

(29) د. أسعد رزوق: التلمود والصهيونية – ص 204.

(30) إحدى روايات الطبري (ج 1 ص 260) أن موسى لم يمت قبل الدخول إلى أريحا. وأن يشوع كان قائد جيشه المتقدم للقتال. وقد مات موسى بعد دخول أريحا. وله رواية تقول إنه مات في التيه (ج1 ص 257). ويذكر أن الله أوحى ليشوع أن يعبر الأردن: " إلى الأرض التي أعطاها بني إسرائيل ووعدها إياهم" !!

(31) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1 ج2 – ص 339-340.

(32) جاء في حواشي الطبعة الكاثوليكية - ص 12 (الفصل 8/22): " سفر التوراة لعله سفر تثنية الاشتراع بخط موسى الكليم عينه".

وقد ذكرنا أن التوراة هي سفر الشريعة (سفر التثنية).

(33) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1 ج2 – ص 383.

(34) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة – ص 179.

(35) سبينوزا: المرجع السابق - ص 178.

(36) فراس السواح: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القريب - ص 198-199.

(37) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1 ج2 - ص 320.

إن الأدب الذي يعنيه ديورانت هو " نشيد الإنشاد" و " سفر أيوب". وكما هو معروف كلاهما مسروق من تراث المنطقة. والشخصيات أيضاً مسروقة. والديانة ويهوه مسروقان. فماذا تبقى لليهود غير الثالوث الاستعماري العنصري ؟!

(38) معجم اللاهوت الكتابي - ص 259.

(39) المرجع السابق - ص 536.

(40) المرجع السابق - ص 574.

(41) المرجع السابق - ص 360.

(42) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة - ص 183.

(43) يشوع خادم موسى وخليفته. ومعنى يشوع: اللّه مخلص. واسمه السابق هوشع ومعناه مساعد أو مخلص (حواشي الطبعة الكاثوليكية ص 5). ويشوع هو ابن نون بن أفرايم بن يوسف (ثلاثة أجيال)!!

(44) كيف يمتلئ نهر الأردن صيفاً (وقت الحصاد)، ولا أمطار موسمية صيفية في تلك المنطقة ؟! وهذه نقطة من نقاط عديدة بنى عليها د. أحمد داود، و د. كمال الصليبي جغرافية أحداث التوراة، التي من المفترض أن تكون غرب الجزيرة العربية. فهناك أمطار صيفية موسمية!

(45) ابن الأثير: الكامل في التاريخ - م1 - ص 155.

(46) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1 ج2 - ص 326 -327.

(47) المرجع السابق: ص 341.

(48) سفر ياشر في الطبعة الكاثوليكية (سفر المستقيم). وهذا السفر لا وجود له. ويقال: فقد أثناء السبي!!

(49) راجع تاريخ الطبري (ج1 ص 259) - وتاريخ اليعقوبي (ج1 ص 40) - والكامل في التاريخ للشيباني (ج1 ص 54) - والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ج1 ص 377).

(50) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة - ص 156- 157. ويكرر كلامه في مواضع أخرى مثل ص 234-235.

وحكاية انقاص الظل جاءت في (ملوك "2" 9/20) فقد سأل أشعيا حزقيا: " أيتقدم الظل عشر درجات أم يرجع عشر درجات". ثم يدعو اللّه فيرد الظل عشر درجات إلى الوراء (11/20)!!

(51) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة - ص 156.

(52) يونغ: الدين في ضوء عليم النفس - ص 63.

(53) تتحدث الموسوعة الفلسطينية عن مبادئ العقيدة العسكرية الإسرائيلية فتقول: " الجذور الدينية للعقيدة العسكرية الصهيونية التي بدأت منذ عهد التوراة واستمرت ونمت وتطورت لتصبح بعد قرون من الزمن ما نسميه اليوم: العقيدة العسكرية الإسرائيلية ". ويستخلص كاتب المقال المبادئ الرئيسية لتلك العقيدة من العهد القديم مع الأدلة من آيات الأسفار نفسها. والمبادئ هي:

1- الطبيعة العدوانية. 2- الاحتلال والتوسع. 3- الاتكال. 4- العنف المطلق. 5- الحرب الجماعية. 6- قواعد الحرب ومبادئها. 7- التوجيه المعنوي. 8- آداب القتال. (الموسوعة الفلسطينية - المجلد السادس - ص 370).

(54) ندرة اليازجي: رد على التوراة - ص 167. وفي هامش رقم (13) - ص 158، تعليق متمم للبحث نقتبس منه قوله: " الإله الحق، لا يفعل مثل هذا الأمر المشين. فهل يعمل إله المحبة، إله المسيح، على قتل الناس ؟ كلا ".

* * *

الفصل الرابع:

التمرد والرضوخ

سفر القضاة هو أكثر الأسفار إيضاحاً لفكرة التمرد على القيادة الحاملة فكرة استعمار أرض كنعان، ثم الرضوخ لمشيئة القيادة القوية، فبعد موت يشوع لم تأت شخصية عنيفة ومتسلطة وحتى شاول. مما دفع بني إسرائيل إلى محاولات الاندماج في شعب كنعان، والتعايش معهم بل والتزاوج منهم.

إلا أن قضاتهم (حكامهم) شبه الأقوياء كانوا لهم بالمرصاد.

فقد عدّ الكتبة الاندماج كفراً وجريمة وخروجاً على تعاليم يهوه العنصري، والتي تقتضي القضاء المبرم على شعب كنعان واحتلال الأرض بكاملها!

لذا دعا الكتبة من خلال القضاة إلى الانعزال والانغلاق (الجيتو) للمحافظة على شعب يهوه الخاص سلالة يعقوب /إسرائيل/ والحامل للفكرة الاستعمارية.

ولقد مر معنا تمرد جماعة موسى الدائم على مشروعه الاستعماري حيث عبروا مراراً عن رغبتهم في العودة إلى مصر، وعندما استقروا شرقي الأردنّ مقابل أريحا طلبوا من موسى البقاء هناك، وعدم عبور النهر إلى ضفته الغربية.

وفي عهد يشوع ومع إخفاقه الأول في احتلال عاي نتيجة صمود شعبها ومقاومتهم الباسلة للغزاة المعتدين، ندم على الغزو وفكر بالرجوع إلى شرقي الأردنّ والتخلي عن الفكرة.

وهذا كله يعطي صورة عن أن المشروع الاستعماري كان في رؤوس القادة وكانوا يفرضونه على أتباعهم بالقوة وبالتخويف الديني. ويضعونهم بين المطرقة والسنديان ترغيباً وترهيباً.

* * *

جاء في مقدمة سفر القضاة (الطبعة الكاثوليكية): " إن هؤلاء الداخلين الجدد، وقد أحاط بهم الكنعانيون دون أن يقضوا عليهم أخذوا يختلطون بالسكان الأصليين حتى بالزواج أيضاً. فانزلقوا نحو الوثنية وعبدوا مع الرب إلههم البعليم والعشتر. فأثارت هذه الخيانة غضب اللّه وأظهر لهم غضبه بسماحه للأجانب بمضايقتهم فغزوا إسرائيل المذنب ونكدوا عيشه".

إن الاندماج يعني التلاشي في شعوب المنطقة، وهذا يعني ضياع المشروع الاستعماري!

لذا حرص عزرا والكتبة على الدعوة إلى العزلة لإبقاء من يحمل فكرة المشروع وتنفيذه.

فالفترة بين يشوع وشاول فترة ضعف تلت قوة موسى ويشوع الحديدية. ولكن وإن أراد الكتبة أن يصوروها بذاك الشكل، وكذلك وإن نظر بعض اللاهوتيين إلى سفر القضاة على أنه سفر ضعيف، إلا أننا نقرأ فيه عجز الغزاة الإسرائيليين عن القضاء على شعب كنعان، بل ويأسهم من الحرب المستمرة غير المجدية. وبالتالي أدى هذا إلى استسلامهم ورمي السلاح وثالوث عزرا خلف ظهرهم. وتوسلوا إلى شعب كنعان أن يقبل بوجودهم وانقيادهم تحت إمرته وعاداته وتقاليده بل واتباع ديانته.

وكان شعب كنعان مسالماً متسامحاً فصفح، وطوى الصفحة السوداء ليبدأ صفحة جديدة تستوعب الغزاة المستسلمين.
لكن الكتبة اتهموا الإسرائيليين أولئك بالوثنية والضلال والفسق وبالسلوك المنحط!
والسفر مليء بالخرافات والتفاهات، ولكنه يعطي صورة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وهو يطرح جانبين:
1- الجانب الأول: يتحدث عن سلوك الإسرائيليين اللا أخلاقي والذي يصل إلى درجة تثير الغثيان.
2- محاولات الإسرائيليين الاندماج في شعب كنعان، وما يتبع هذا من عبادة آلهتهم والتزاوج منهم.
والكتبة جعلوا الجانب الأول نتيجة للجانب الثاني. بمعنى أن الاندماج والانفتاح والتخلي عن ثالوث عزرا ولا سيما استعمار الأرض والقضاء على شعب كنعان، يؤدي إلى الانحطاط والسلوك اللا أخلاقي. وهذا يعني بنظر الكتبة أن شعب كنعان شرير وفاسد!!
لقد أرقت مضاجع الكتبة قضيتان:
1- التزاوج من شعب كنعان: " واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء، وأعطوا بناتهم لبنيهم، وعبدوا آلهتهم".(قضاة 6/3).
2- عبادة آلهة الآخرين: " وعبدوا البعليم والسواري".(قضاة 7/3).(1)
" وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم ".(قضاة 11/2). " وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين من حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب".(قضاة 12/2). " تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت".(قضاة 13/2). " ولقضاتهم أيضاً لم يسمعوا بل زنوا وراء آلهة أخرى وسجدوا لها ".(قضاة 17/2).
وهاتان القضيتان التزاوج وعبادة آلهة الآخرين، تعنيان عملياً التخلي عن ثالوث عزرا أي: (الوثنية اليهودية والعنصرية واستعمار أرض كنعان).
فهم لم يأتوا للتنزه ولا لنشر الأخلاق والمبادئ، فلقد جاؤوا لقتل شعب كنعان والاستيلاء على أرضه وممتلكاته.
إن تحول أولئك مئة وثمانين درجة من عبادة يهوه إلى عبادة أوثان الآخرين يعني أن الإسرائيليين لم يجدوا فرقاً بين وثنية يهوه ووثنية شعب المنطقة. وهذا لأن الكتبة ادعوا بأن شعب المنطقة كان وثنياً!!
ولكن الحقيقة، تحول الإسرائيليون من يهوه الوثني إلى إله عام أي تحولوا من الوثنية إلى التوحيد. فالتخلي المستمر عن يهوه لأنهم غير مقتنعين به، وكانوا يجدون في إله كنعان التوحيد!
وقضية التزاوج تدفعنا للسؤال: لماذا الركض واللهاث وراء بنات الأرض/ البشر، وهم أبناء الله، وبناتهم كما يصفونهم ويصفهم ديورانت وغيره بأنهن أجمل بنات في تلك العصور؟!
إنه الكذب والزيف لا غير. فالمبالغة التي سار في ركابها من امتلك العقل والفكر والعلم والمنطق، مسايرة ومداهنة لليهود، تنفي عنه الموضوعية والحيادية. ولذلك يجب توخي الحذر من كل كلمة يقولونها حول اليهود!!

* * *

وللسفر مسار متكرر على النحو الآتي:
1- المعصية: (الاختلاط، التزاوج، عبادة آلهة الآخرين).

2- العقاب وهو مباشر لأنه لا وجود لعقاب في الحياة الآخرة، ويتجلى في: خسارة وانهزام في الحرب، تسلط الآخرين عليهم واستعبادهم.

3- مجيء قاض مخلّص يستجلب صفح يهوه، بإعادة الإسرائيليين إلى الثالوث.

4- مرور فترة آمنة قد تمتد لعدة عقود حتى موت القاضي المخلّص ثم بعد موت ذاك القاضي تتكرر النقاط الأربع بالعودة إلى المعصية، وهكذا تستمر الأسطوانة!

وسنتناول من عصر القضاة الاثني عشر ما يعطي صورة عن ذاك السفر:

1- يتمكن بنو يهوذا من مهاجمة أورشليم: " وحارب بنو يهوذا أورشليم فأخذوها وخربوها بحد السيف وأحرقوا المدينة بالنار".(قضاة 8/1).

وعلى الرغم من كل تلك الوحشية فهم لم يتمكنوا من القضاء على سكانها كلهم. بل ولم يتمكنوا من طردهم من أرضهم. فقد بقي اليبوسيون والكنعانيون والأموريون - كما يذكر النص - ولكنهم فرضت عليهم الجزية.

وسنلاحظ عبر السفر استمرار المعارك بين شعب كنعان والغزاة المحتلين مما يعني أن شعب كنعان كان رافضاً لكل شكل من أشكال الاستعمار ذاك. ولم يرض أن يتخلى عن أرضه لهم. وأن الغزاة لم ينعموا بالاستقرار والراحة على أرض كنعان.

2- تخلي يهوه عن الإسرائيليين فصاروا عبيداً لملك آرام النهرين (كوشان) وبقوا هناك يعبدونه ثماني سنين. ولكن لبكائهم الكثير أشفق يهوه عليهم وذهب عنه الغضب وحررهم من العبودية (قضاة 8/3-10). والمسألة هنا ليست مسألة تخلي يهوه عنهم إنما هي انتصار الملك كوشان عليهم وانهزامهم وانكسارهم وبالتالي جعلهم أرقاء كما هي العادة في حروب تلك العصور.

3- تمر فترة هدوء تصل إلى أربعين سنة (قضاة 11/3). ثم يعودون إلى الفساد فيعبدون عجلون ملك موآب ثماني عشرة سنة (قضاة 14/3).

ويبكون ويضجون فينقذهم يهوه من العبودية بأسلوب خرافي. ثم تستريح الأرض ثمانين سنة (قضاة 30/3).

4- ويعودون للشر فيدعهم يهوه ويبيعهم إلى ملك كنعان يابين. فبقوا تحت سلطته عشرين سنة.

وتولت القضاء قاضية نبية اسمها دبورة (قضاة 4/4) فأخذت تحرض الإسرائيليين على قتال سيسرا رئيس جيش الملك الكنعاني. وينهزم سيسرا فيفر إلى خيمة طالباً الماء فاستقبلته ياعيل، ثم غدرت به حيث: " ضربت الوتد في صدغه حتى غرز في الأرض، وقد نام واسترخى ومات".(قضاة 21/4).

وموت سيسرا يضعف الملك وينتهي أمره. وبالتالي: " استراحت الأرض أربعين سنة ".(قضاة 31/5).

5- ويعود الإسرائيليون إلى الشر، فيعاقبهم يهوه ويذلهم أمام مدين سبع سنين.

فكانوا يفرون إلى الجبال متخذين المغاور والكهوف مأوى وحصناً لهم ويعانون من إفساد غلة الأرض وسلب الأغنام والأبقار والحمير (قضاة 4/6).

ويتضرعون إلى يهوه فيرسل إليهم نبياً اسمه جدعون(2) والذي يرى ملاك الرب: " لأني قد رأيت ملاك الرب وجهاً لوجه". (قضاة 22/6). فيقوم بهدم مذبح بعل ويبني ليهوه بيتاً ومحرقة ويقدم قرابين لربه. وفي اليوم التالي يُفاجأ الإسرائيليون بهدم مذبح البعل، فيتهمون جدعون ويذهبون إلى أبيه يوآش مطالبين بقتل ابنه لما فعله. فقال الأب: " أنتم تقاتلون للبعل أم أنتم تخلصونه".(قضاة 31/6). فيسكتون وينتهي الأمر!

ويجمع مقاتلين ليحارب مدين ثم يُخير الخائفين من القتال بالعودة إلى بيوتهم فينسحب اثنان وعشرون ألفاً، ويبقى معه عشرة آلاف. ثم يطرد تسعة آلاف وسبعمئة لأنهم شربوا من النهر كما يشرب الكلب!

وبجيشه المؤلف من ثلاثمئة رجل يحارب المديانيين وينتصر عليهم، ولكن بطريقة كوميدية تذكرنا بأبواق يشوع!

فقد انتصروا بالضجيج الذي أحدثوه بالأبواق وكسر الجرار!!

ومن ثم يلاحق جدعون ملكي مدين ويقضي عليهما وعلى جيشهما المؤلف من خمسة عشر ألفاً. وهذا غير الذين قتلهم قبل فرار الملكين وعددهم مئة وعشرون ألفاً!

وجيش جدعون الذي جمعه اثنان وثلاثون ألفاً، ولا يبقى منهم بعد الانسحاب والطرد غير ثلاثمئة وينتصر بهم على عشرات الألوف!

وفي طريق عودته ينتقم من شيوخ سكّوت وأهلها وكذلك من أهل فنوئيل، لأنهم لم يقدموا الخبز لجنده عندما طارد ملكي مدين!

وهكذا استراحت الأرض أربعين سنة حتى مات جدعون، فعاد الإسرائيليون للفسق والفجور: " وكان بعد موت جدعون أن بني إسرائيل رجعوا يفجرون باتباع البعليم واتخذوا لأنفسهم بعل بريت إلهاً ".(قضاة 33/8).(3)

وخلف أبيمالك أباه جدعون بعد أن والته عشيرة أمه في شكيم (نابلس أو قربها). وقد استطاع أن يخضع الجميع لقيادته بعد أن قتل إخوته كلهم وعددهم تسعة وستون، إلا أخاه الصغير الذي اختبأ فلم يره!

وبقي ملكاً لثلاث سنوات. وقد انقلب عليه أهل شكيم: " اخدموا رجال حمور أبي شكيم".(قضاة 28/9).(4)

لكن أبيمالك ينتصر على المعارضة /العصيان المسلح/. وبينما هو يحاصر برجاً، توجه نحو بابه ليحرقه بالنار فـ: " ألقت امرأة قطعة رحى على رأس أبيمالك فشدخت جمجمته".(قضاة 53/9).

فطلب من غلامه أن يقتله بالسيف حتى لا يقال إن امرأة قد قتلته. ويعلل السفر قتله، لأنه كان شريراً، فقد قتل إخوته و: " حارب أبيمالك المدينة / شكيم/ ذلك اليوم كله وأخذ المدينة وقتل الشعب الذين بها وهدم المدينة وزرعها ملحاً ".(قضاة 45/9). كما أحرق برج شكيم وفيه ألف رجل وامرأة...

وما حلّ بشكيم يرى السفر أن أهلها يستأهلون ذلك لمناصرتهم أبيمالك في البداية ومساعدته في الوصول إلى السلطة.

ولو تجاوزنا ما هو خرافي في الأمر نجد أن الصراعات القبلية حول الزعامة هي المحرك لكل الأحداث.

كما نجد شخصية الزعيم المملوءة بالحقد، فقد زرع الأرض ملحاً ليقتل التربة.

6- وبعد أبيمالك استلم تولع بن فوأة وحكم ثلاثاً وعشرين سنة ومات. فاستلم يائير الجلعادي وحكم اثنتين وعشرين سنة: " وكان له ثلاثون ولداً يركبون ثلاثين جحشاً ولهم ثلاثون مدينة ".(قضاة 4/10).

ومات يائير " وعاد بنو إسرائيل فصنعوا الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم والعشتاروت وآلهة أرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين، وتركوا الرب ولم يعبدوه".(قضاة 6/10).

فحمي غضب الرب عليهم وتركهم تحت سلطة الفلسطينيين وبني عمون أذلاء ولمدة ثماني عشرة سنة.

7- وعبر بنو عمون نهر الأردن ليحاربوا يهوذا وبنيامين وبيت أفرايم فهرع الإسرائيليون إلى يهوه مستنجدين: " أخطأنا إليك لأننا تركنا إلهنا وعبدنا البعليم". (قضاة 10/10).

وهكذا أزالوا آلهة الآخرين وعادوا إلى يهوه، فرقّ قلبه الحنون على أبنائه العصاة أبداً، وغفر لهم (قضاة 16/10).

وانطلق شيوخ جلعاد إلى يفتاح لينصبوه زعيماً عليهم لمواجهة بني عمون. وكان منبوذاً من قبيلته لأنه من امرأة مومس!

وبعد أن قبل يفتاح استلام القيادة أرسل إلى ملك عمون رسلاً، ليذكره بمعاناة بني إسرائيل في مصر، ثم بمعاناة الخروج. وموقف بني عمون وغيرهم من محاولات المرور بأراضيهم إلى أن يقول: " أليس ما يملكك إياه كموش إلهك تمتلك. وجميع الذين طردهم الرب إلهنا من أمامنا فإياه نمتلك".(قضاة 24/11).

وهذه الآية توضح قضية الوعد /الاستعمار/ فالقائد عندما يجتاح أرضاً ويحتلها تصير ملكه، وكوثنية يدعي أن إلهه منحه النصر كما منحه الأرض!

ولا فرق بين قائد يهودي وقائد وثني، ولا بين إله اليهودي وإله الوثني!

وهذا يعني أن وعود يهوه هي انعكاس لطمع اليهود في سرقة أرض كنعان وامتلاكها. وهذا لن يكون إلا بقتل أهلها.

فرافقت قضية الاستعمار قضيةٌ لعن كنعان!

وفي حالة الضعف كان المشروع حلم وأمنية ووعد، وفي حالة القوة تحول الأمر إلى عدوانية ووحشية واحتلال.

فالوعد المزاجي المزيف خرافة خرقاء، وما يجري على أرض الواقع هو ما تستولي عليه بالقوة.

والدين إن لم يؤدلج للحق والخير والعدل والقيم، ليس بدين إنما هو شريعة الشيطان / الاستعمار/.

والخلاف بين بني عمون والإسرائيليين هو حول أرض كانت لبني عمون وقد أخذها منهم الأموريون. ثم احتلها الإسرائيليون بعد أن طردوا الأموريين منها!

ويرفض يفتاح أن يعيد تلك الأرض لبني عمون. فيتحارب الطرفان وينتصر يفتاح (قضاة 33/12).

وقد نذر يفتاح قبل خوض المعركة؛ إن نصره ربه أن يقدم له قرباناً وهو أول من يصادفه من أهله عند عودته إلى بيته!

وبعد أن انتهت المعركة وعاد إلى بيته منتصراً، خرجت ابنته لاستقباله فرحة بعودته سالماً مظفراً. فقرر أن يذبحها ويقدمها قرباناً كما نذر، ولكنه يمهلها شهرين بناء على طلبها لتبكي على بتوليتها في الجبال. وبعد أن عادت ذبحها.(قضاة 11/ 30 وما بعد).

ومع أنه كان بوسعه وبحسب الشريعة أن يفتدي نذره بالمال لكنه لم يفعل. لأن عزرا نقل الأساطير وألصقها بزعماء اليهود دونما انتباه إلى ما يناقض بعضها الشريعة نفسها!!

ثم ينطلق يفتاح لمحاربة سبط أفرايم لأنهم لم يساعدوه في قتاله بني عمون. ويسيطر على مخاوض نهر الأردن بعد أن ضربهم. وصارت جماعته تتصيد الفارين من أفرايم. فكل غريب يريد العبور يسألونه: أأنت من أفرايم ؟

فإن أجاب: لا. طلبوا منه أن يلفظ كلمة: شبولت (وتعني: نهر، سنبلة، عنقود، فروع). فإن لفظها بالسين (سبولت) يُقتل. لأن الأفرايمين ينطقون الشين سينا.(5)

وهكذا قتلوا على اللفظ " اثنين وأربعين ألفاً ".(قضاة 6/12).

والذبح على اللفظ يذكرنا بالذبح على الهوية في عصور الانحطاط.

إن تلك الآلاف التي تموت بيسر وسهولة توضح مبالغة عزرا الدائمة. فمن المفترض أن يفنى الجميع ودون استثناء أمام الفناء الجماعي، ولكن نكتشف دائماً عودة الحروب والمعارك وكأن أحداً لم يمت.

وما يذكره عزرا والكتبة عن الخوف المتكرر، يعبر عن قلة العدد لأنه لا يعقل أن تخاف عشرات الألوف ومئاتها من أعداد قليلة!

وفي حكاية يفتاح تتضح أيضاً الميكافيلية والبراجماتية. فقد طرده إخوته لأنه من أم أجنبية ومومس، ولا يحق له أن يرث مثلهم! فهرب من وجه إخوته ليتزعم عصابة. ولما هاجم بنو عمون الإسرائيليين، ركض الشيوخ إلى يفتاح عارضين عليه القيادة.

فقال لهم يفتاح: " ألم يكن أنكم أبغضتموني أنتم وطردتموني من بيت أبي فكيف أتيتموني الآن في شدتكم".(قضاة 9/11). فاعترفوا بحاجتهم له، فاشترط إن انتصر، أن يكون هو الرئيس عليهم فوافقوا. وهكذا تحول يفتاح من رئيس عصابة إلى حاكم/ قائد على إسرائيل ولست سنوات وحتى وفاته.

8- وبعد موت يفتاح، استلم إبصان وحكم سبع سنين وكان له: " ثلاثون ابناً وثلاثون ابنة، أرسلهن إلى الخارج، وأتى من الخارج بثلاثين ابنة لبنيه". (قضاة 9/12).

وكلمة الخارج هنا فيها غموض؛ فهل المقصود هو الزواج من شعب كنعان أم الزواج من الأسباط الأخرى كما ترى الموسوعة الكتابية ؟

وقد أسقطت النسخة الكاثوليكية كلمة (الخارج) من ترجمتها: " فزوج بناته الثلاثين وأدخل ثلاثين كنة لبنيه".

وكما قلنا: الترجمة البروتستانتية أدق ولكن أسلوبها سيئ لغاية في نفس يعقوب. أما الترجمة الكاثوليكية فهي غير دقيقة ولكن أسلوبها مقبول.

والزواج من الأسباط الأخرى لا يسمى / الخارج/ لأنهم كلهم أبناء يهوه، أبناء يعقوب المقدسين!!

وكلمة الخارج ومثلها الأجنبي والمقصود بهما غير اليهودي!

وبعد موت إبصان استلم إيلون. ومن بعده عبدون بن هليل " وكان له أربعون ابناً وثلاثون حفيداً، يركبون على سبعين جحشاً ".(قضاة 14/12).

وبعد موت عبدون "عاد بنو إسرائيل فعملوا الشر في عيني الرب، فدفعهم الرب إلى أيدي الفلسطينيين أربعين سنة ".(قضاة 1/13). أي انتصر الفلسطينيون عليهم واستعبدوهم وفرضوا الجزية عليهم.

9- شمشون:

أبوه اسمه منوح وله امرأة عاقر، وكما في حكاية إبراهيم وإسحق تراءى ملاك الرب لها، وقال: " إنك عاقر لم تلدي ولكنك ستحملين وتلدين ابناً ". (قضاة 3/13). وأوصاها ألا تحلق شعره وأخبرها بأن طفلها عندما يكبر سيخلص الإسرائيليين من أيدي الفلسطينيين.

ويقابل الملاكُ الزوجَ والزوجة مرة أخرى، ليكرر وصاياه للزوجة. وبعد ذهابه خاف الزوج منوح لرؤية الملاك وقال لامرأته: " إنا سنموت لأنا رأينا اللّه".(قضاة 22/13).

والسياق يقول: إنه رأى الملاك، ولكن الآية على لسانه تقول: لقد شاهد /عاين/ رأى اللّه نفسه!

وهذا يذكرنا بسفر التثنية (33/4): "هل سمع شعب صوت اللّه يتكلم من وسط النار كما سمعت أنت وعاش". وفي (تثنية 42/5): " قد رأينا أن اللّه يكلم الإنسان ويحيا". والتناقض واضح!

ويولد الطفل الموعود ويسمى شمشون(6). وينمو ويكبر ويصير شاباً. ويحب فتاة فلسطينية اسمها تمنة، فيطلب من أبويه أن يتخذاها له زوجة ورغم معارضتهما، يوافقان في النهاية!

وفي الطريق إلى بلدة تمنة يقتل شبل أسد بشقه بيده كما يشق جدياً. وهو ما فعله جلجامش قبله، مما يعني أن أسطورة شمشون مسروقة من ملحمة جلجامش.

وفي الوليمة المقامة طرح شمشون أحجية العسل في جيفة الأسد. وراهن ثلاثين فلسطينياً على معرفتها. فتقوم زوجته تمنة بإخبار أقاربها أولئك بالحل (قضاة 19/14). ويخسر شمشون الشرط والرهان. فيقوم بقتل ثلاثين رجلاً من أشقلون، ليأخذ ثيابهم وليعطيها إلى الثلاثين الذين عرفوا الحل. وفي الوقت نفسه يغضب من زوجته التي احتالت عليه لمعرفة حل اللغز وأخبرت بني قومها مما أدى إلى كسبهم الرهان.

وبعد أيام أراد زيارة امرأته، فمنعه أبوها، لأنها صارت زوجة لصاحبه (صاحب شمشون). (قضاة 20/14). وعرض عليه أن يزوجه بدلاً منها ابنته الصغرى. فغضب شمشون وقال: " أنا بريء الآن من الفلسطينيين إذا أنزلت بهم شراً ".(قضاة 3/15).

ويصطاد ثلاثمئة ثعلب، وربطهم " ذنباً إلى ذنب وجعل بين كل ذنبين مشعلاً ".(قضاة 4/15). وأوقد المشاعل وأطلق الثعالب في الزرع، فأحرقت أكداس القمح وكل شيء حتى الزيتون!

وانتقم الفلسطينيون من الأب وابنته بإحراقهما على فعلتهما الخسيسة كما خاف الإسرائيليون من انتقام الفلسطينيين منهم. فانطلق ثلاثة آلاف من سبط يهوذا واعتقلوا شمشون وسلموه للفلسطينيين.(قضاة 3/15). وتحل عليه روح ربه(7)، فيقطع حباله ويمسك بفك حمار، ويقاتل به الفلسطينيين حتى قضى على ألف منهم. (قضاة 15/15)!

ومن ثم انطلق إلى غزة ليمارس الجنس مع مومس هناك.(قضاة 1/16). فأحاط أهل غزة بباب المدينة على أن ينالوا منه عند الفجر. ولكنه في منتصف الليلة خلع مصراعي الباب وانطلق به نحو الجبل.

ثم يقع في حب دليلة التي تخونه مع شعبها الفلسطيني وتسلمه لهم.

فقد استدرجته لمعرفة سر قوته، وكان يكذب عليها، فتخبر قومها بذلك فيأتون للإمساك به ويخفقون. ولكن في المرة الرابعة وبعد إلحاحها يخبرها عن سر قوته: " لم يعل رأسي موسى لأني ناسك لله من بطن أمي. فإن حلق رأسي فارقتني قوتي وضعفت وصرت كواحد من الناس".(قضاة 17/16).

فاستدعت دليلة أقطاب الفلسطينيين ليأتوا وأخبرتهم بالأمر. وبينما كان شمشون نائماً على ركبتها حلق له أحد أولئك سبع خصل من رأسه ففارقه ربه (قضاة 19/16). وبالتالي فقد قوته!

فألقى الفلسطينيون القبض عليه وأوثقوه وقلعوا عينيه واقتادوه إلى السجن ليجر رحى الطاحون وهو مقيد بسلسلتين من النحاس.

وأخذ شعره ينمو، ودون أن يشعر بذاك أحد. وذات مرة جلبوه من السجن إلى قاعة الاحتفالات ليتمتعوا بمشاهدته كعادتهم وهو يؤدي بعض ألعابه.

فطلب من غلامه الذي يقوده أن يساعده في تلمس الأعمدة التي يقوم عليها البناء. فأمسك بالعمودين اللذين في وسط البيت وشدهما بقوة وهو يقول: " لتمت نفسي مع الفلسطينيين".(قضاة 30/16). فسقط البناء عليه وعلى المتفرجين فمات ومات معه الآلاف.

وهكذا انتقم لعينيه: " لأنتقم لعينيّ من الفلسطينيين".(قضاة 8/16). والذين ماتوا في انهيار البناء أكثر من الذين قتلهم في حياته (قضاة 30/16).

* * *

لقد تولى شمشون قضاء / حكم/ إسرائيل عشرين سنة. فماذا تعني هذه الشخصية الخرافية ؟!

إنه انعكاس اللاشعور عند الإسرائيليين. فهو المعادل الوهمي لخوفهم وجبنهم وذلهم وانكسارهم أمام الفلسطينيين.

فالقوة الخارقة التي تقتل آلاف الفلسطينيين، تشفي غليل المنكسر وهو مستغرق في أحلام يقظته!

لقد استمد الكتبة فكرة القوة الخارقة من الأساطير ليسقطوها على زعيم من زعمائهم الوهميين ليكون التعويض عن ضعفهم ودونيتهم. ففي الحفلة يقدم الفلسطينيون ذبيحتهم لإلههم داجون وهم فرحون. ويقدم شمشون نفسه ضحية وقرباناً ليقضي على الآخرين انتقاماً لعينيه!

لقد صوره الكتبة كاذباً مخادعاً لاهثاً وراء شهواته. ولم يبال بيهوه إلا في المحنة.

ويضحك الإنسان من " الرب قد فارقه".(قضاة 20/16). فالرب ربط نفسه بشمشون من خلال شعره!!

وما الفرق بين يهوه هذا، وداجون ذاك ؟!

إن الكاتب جعل شمشون يقع في حب فلسطينية كمخطط إلهي: " هذا كان من قبل الرب وأنه كان يطلب سبباً على الفلسطينيين. وكان الفلسطينيون في ذلك الزمان متسلطين على إسرائيل".(قضاة 4/14). فلماذا يصنع الرب كل هذه المسرحية كي ينتقم من الفلسطينيين ؟!

وهل من ضمن مسرحيته زيارة المومس ؟!

وكيف يقبل الرب ارتكاب إثم الزواج من وثنية أجنبية بهدف الإيقاع بالفلسطينيين، أهي الغاية التي تبرر الوسيلة عند يهوه ؟!

ثم الزواج من الأجنبيات يؤدي إلى الموت، لأنهن لا أمان لهن ولا ذمة ولا ضمير ولا إخلاص. إنهن غادرات خائنات!

وكان شمشون يحب تمنة فغدرت به وخانته، ثم أحب دليلة فغدرت به أيضاً وأسلمته للموت!

فأي الأمرين يريد عزرا: المصيبة والكارثة في الزواج من أجنبية، أم جواز الزواج من أجنبية بهدف المنفعة والمصلحة ؟!

ونرى الأمر الأول هو هدف عزرا وهو الجريمة الكبرى. لأن شمشون لم يقتل فلسطينياً انتقاماً لمذلة إسرائيل. فقد بدأ قتله للثلاثين فلسطينياً ليسلبهم ملابسهم حين خسر الرهان.

وعند هربه منتصف الليل كان ينام مع مومس. وتهديم قاعة الاحتفالات كان بهدف الانتقام لعينيه، ولأن الفلسطينيين يتمتعون برؤيته كمهرج يسليهم!

فكل مواقفه شخصية ولا علاقة للرب أو الإسرائيليين به. ولم يقدمه عزرا كزعيم أو قائد أو قاضٍ!

* * *

10- في الإصحاح السابع عشر والثامن عشر ترد حكاية ميخا واللاوي وسبط دان. وهي تعطي صورة واضحة عن وثنية اليهود وعن الكيفية التي كانت تتم فيها سرقة أرض فلسطين.

فميخا وأمه يعبدان الأوثان. وقد صنعت أمه عند الصائغ صنماً من الفضة منقوشاً، وآخر مسبوكاً.

ويتعرف ميخا إلى رجل لاويّ مر في طريقه بذاك المكان. فيتفق ميخا معه بأن يقيم عنده ليكون كاهناً له!

وفي هذه الأثناء كان سبط دان يبحث عن أرض يستقر فيها. فأرسلوا خمسة منهم ليفتشوا عن أرض تكون لهم. فانطلق هؤلاء ومروا باللاوي وتابعوا طريقهم نحو لايش (مدينة كنعانية شمالي فلسطين)، والتي شعبها ساكن وآمن؛ لا أحد يزعجهم ولا أحد يتسلط عليهم كما يقول النص، وعادوا ليخبروا جماعتهم: " شعباً مطمئناً والبلاد واسعة وقد دفعها الرب إلى أيديكم. مكان لا عوز فيه لشيء مما في الأرض".(قضاة 10/18).

فانطلق ستمئة محارب من السبط مدججين بالسلاح نحو تلك الأرض. وفي طريقهم مروا بميخا وسرقوا أصنامه وقالوا للكاهن اللاوي: " أن تكون كاهناً لبيت رجل واحد خير لك أم أن تكون كاهناً لسبط وعشيرة ".(قضاة 19/18).

فسُر الكاهن وانطلق معهم. ولحق بهم ميخا مطالباً بأصنامه وكاهنه لكنه أمام كثرة عددهم وتهديدهم يرجع مقهوراً: " فتهلك نفسك ونفوس أهل بيتك". (قضاة 25/18).

وتابعوا مسيرهم إلى لايش " إلى شعب ساكن مطمئن فضربوهم بحد السيف وأحرقوا المدينة بالنار".(قضاة 27/18).

ويتابع الإصحاح بأنهم ابتنوا المدينة وسكنوها وسموها (دان) بدلاً من (لايش). ونصبوا الصنم المسروق ليعبدوه.

* * *

وتلك الواقعة تكشف عدة أمور:

1- عدم استقرار الإسرائيليين في أرض كنعان كما يدعي سفر يشوع أو على الأقل بعض الأسباط استناداً إلى النص وليس إلى الحقيقة التاريخية والتي تنفي وجودهم كله نفياً قاطعاً!

2- الوثنية هي السمة الرئيسة للديانة اليهودية. وما التحولات من يهوه إلى غيره من الآلهة الوثنية إلا دليل على قاسم مشترك بين الجميع.

3- الإسرائيليون عاطلون عن العمل والجد والتعب. وهم طفيليون وعالة على الآخرين / شعب كنعان/. " وأنتم متقاعدون".(قضاة 6/18).

أما شعب كنعان فهو آمن مطمئن وله أرضه الخصبة. وهو يعمل ويكد وقد أفلح في تأمين حياته الجيدة والكريمة.

4- الإسرائيليون عصابات متوحشة ولصوص: " فلا تتوانوا عن المسير لتذهبوا وتمتلكوا الأرض".(قضاة 9/18).

5- من هذه الحكاية وغيرها من الحكايات المشابهة استخلصنا مصطلح الاستعمار والذي ينطبق تماماً على أولئك الغزاة اللصوص فهم يقتلون السكان ويحرقون مدنهم ثم يقومون ببناء مدينة / قرية/ كمجمع سكني لهم بعد استيلائهم على كل شيء. فإن لم يكن هذا مفهوم الاستعمار، فما هو المفهوم إذاً ؟!

6- ما الفرق بين مجيء موسى وما فعله يشوع، وبين ما فعله سبط دان ؟!

إنها الصورة المصغرة؛ الدوافع هي نفسها، والأهداف هي نفسها. والمحور هو أرض خيّرة ومعطاءة وجاهزة. وهم طفيليون يعيشون كعلقة شرهة على حساب الآخرين!

7- ثالوث عزرا يتجلى بكل وضوح: الوثنية - العنصرية - الاستعمار(يهوه - الشعب المختار - الأرض الموعودة).

إن الأرض الخصبة ليست عطاء من يهوه ولا من غيره، وإنما هي اختيار وتحديد ومعاينة من العصابات الاستعمارية الطفيلية، ثم أُسقطت على الإله يهوه الوثني ومن منطلق مفهوم وثني!

وهم كمتخلفين وكسولين وعالة، يمنحون أنفسهم حقوق الآخرين، ويسلبون حق ابن كنعان المكافح والنشيط والمسالم بدءاً من لعنة نوح التافهة.

وإذا ما عدنا إلى تلك اللعنة، تصير الرؤية واضحة؛ فكنعان عبد لليهود، وعليه أن يعمل في الأرض ويزرعها ويجهزها حتى يأتي السادة اليهود اللصوص لقطف ثمار تعبه. فهذه هي مهمته!

إن تلك الحكاية تلخص جوهر الديانة اليهودية وجوهر ثالوث عزرا، والأسفار كلها تنويعات عليها!

* * *

11- وحكاية أخرى عن سبط بنيامين، تعطي صورة عن أسباط يعقوب عن شعب الله المختار. وهي شبيهة بحكاية لوط إلا أن الرب هناك يدمر سدوم وعمورة، بينما هنا لا يفعل ذلك مع سبط بنيامين لأنه من أسباطه المدللين!

إن يهوه دائماً يكيل بمكيالين؛ فلشعبه أسباط يعقوب وسلالتهم مكيال، ولشعوب العالم قاطبة مكيال آخر. وهذه هي العنصرية وعقلية الاستعمار.

وهذا ما يؤكد وثنية يهوه، لأن السمة الأساسية في الإله هي العدالة.

والحكاية باختصار كما وردت في الإصحاح (19-20-21):

هناك لاوي متجول اتخذ لنفسه سرية، فزنت وهربت إلى بيت أهلها ومكثت هناك أربعة أشهر. فقرر زوجها بعد تلك الشهور أن يذهب إليها ويطيب خاطرها ويعيدها إليه. ولما وصل إلى بيت أهلها استقبله أبوها واستضافه. وبقي أياماً في ضيافة الأب. وفي كل يوم يحاول السفر، يسوف الحمو ويؤجل له السفر، إلا أنه تمكن في النهاية من حسم الأمر ورحل مع سريته.

ووصل في مسيره إلى جبعة(8) التي يقطنها سبط بنيامين. فلم يستضفه أحد، فجلس في ساحتها. فمر به شيخ من جبل أفرايم ولكنه يقطن في جبعة، فاستضافه في بيته.

وبعد مرور بعض الوقت طرق الباب رجال بليعال (لواطيون)(9). وقد أحاطوا بالبيت وقالوا: " أخرج الرجل الذي دخل بيتك لنعرفه". (قضاة 22/19). أي يريدون اللواط به.

فخرج صاحب البيت وقال: " يا إخوتي لا تفعلوا شراً بعدما دخل هذا الرجل بيتي، لا تفعلوا هذه الفاحشة ".(قضاة 23/19).

وكما في حكاية لوط يقول لهم: "هذه ابنتي العذراء وسريته (سرية اللاوي) أخرجهما إليكم فأذلوهما واصنعوا بهما ما يحسن في عيونكم ولا تصنعوا بهذا الرجل هذا الأمر الفاحش".(قضاة 24/19).

ولم يكترثوا، ولكنه أخرج لهم السرية، فتسلوا بها طوال الليل. وتركوها عند مطلع الفجر، فعادت لتسقط أمام باب البيت ميتة من الإعياء والإرهاق!

ولما خرج زوجها ورآها مطروحة عند الباب ويداها على العتبة (قضاة 27/19)، طلب منها القيام ليتابعا سفرهما. فلم تتحرك فاكتشف أنها ميتة. فجاء بسكين وقطعها مع عظامها إلى اثنتي عشرة قطعة ووزعها على جميع تخوم إسرائيل (قضاة 29/19).

فاجتمع بنو إسرائيل: " أربعمئة ألف راجل مخترط السيف".(قضاة 2/20).

وبعد سماع الحكاية من اللاوي اتفقوا جميعاً على إدانة تلك القباحة وقرروا الانتقام من سبط بنيامين.

وطلبوا من البنيامينيين تسليمهم الأشرار. فرفض البنيامينيون ذلك. فدارت معارك عنيفة بين الطرفين عدة أيام أدت إلى مقتل عشرات الألوف. ثم بكى الإسرائيليون على فناء سلالة بنيامين وندموا على قتلهم. لكن الحل كان جاهزاً عند الكاتب؛ فهناك ستمئة قد فروا إلى صخرة الرمون.

فجاؤوا بهم وصالحوهم وزوجوهم حتى لا تفنى سلالة من سلالات أسباط يعقوب شعب الله المختار!

* * *

الحكاية هنا تأخذ بعداً دراماتيكياً. فقد ماتت السرية تحت وطأة الشبق الجنسي الوحشي.

والتناقض بين رفض اللواط وقبول الزنى يثير الاشمئزاز، فكلاهما عمل لا أخلاقي ومنحط.

وكيف يقبل الأب أن يقدم ابنته العذراء / أي صغيرة/ لتكون كعاهرة في ماخور؟!

وكيف يرضى الزوج أن يقدم زوجته لتمارس الدعارة برخصة وهو المتألم لزناها في مطلع الحكاية ؟!

وهل تقطيعها بتلك المشاعر الميتة والعقل البليد، ليوجه أجزاءها رسائل للأسباط عن القباحة، أقل فظاعة عما فعل أولئك ؟!

وغضب الأسباط على سبط بنيامين، وهيجانهم واستنفارهم أهو من أجل تلك القباحة ؟!

إن حياة الأسرة اليهوية خلال الأسفار قباحة في قباحة وسير الزعماء تعج بالرذائل.

إن القضية ليست حرصاً على الشرف والأخلاق والإنسانية. فهم كقبائل بدائية متخلفة لا تعرف معنى الإنسانية أو القيم. وما فعلوه أمر عادي بالنسبة لحياتهم الاجتماعية والاقتصادية. وكما نعرف اعتمدوا على التسول والطفيلية في حياتهم وكذلك الغزو والعدوانية. ولم يعتمدوا على أنفسهم في العمل والانتاج. ومسلكهم المعيشي اللا أخلاقي سينعكس على سلوكهم وعلاقاتهم سواء مع الآخرين أم مع بعضهم بعضاً.

والحكاية تعكس صراعاً قبلياً لا غير. ولو عدنا إلى حكاية يعقوب وأولاده نتذكر أن:

رأوبين ولاوي ويهوذا، من – ليئة.

ويوسف وبنيامين، من - راحيل (المحبوبة والأثيرة لدى يعقوب).

ونسل ليئة رمى يوسف في البئر. ورأوبين أذل خالته راحيل بمضاجعته جاريتها التي كانت زوجة لأبيه يعقوب!

والحكاية تدور حول تصفية نسل وسلالة بنيامين!

إنه صراع بين مجموعتين من الأسباط القبلية وسيؤدي في النهاية إلى انقسام الأسباط إلى: إسرائيل ويهوذا.

فالحكاية تنويع على النزاع القبلي وإن أخذ طابعاً دراماتيكياً حاداً.

* * *

إذاً سفر القضاة يقدم لنا نماذج عن حياة سلالات الأسباط. والتي رأينا فيها التمرد على ثالوث عزرا، والتحول من الالتزام بالعشيرة وإلهها الوثني يهوه، إلى آلهة الشعوب الأخرى والاختلاط بهم والتزواج منهم. ثم العودة إلى يهوه تحت قمع الزعماء وضغطهم وتهديداتهم وتخويفهم بعقاب يهوه.

فالخير كما يرى الكتبة في الانعزال والتقوقع / الغيتو/، والشر في الاختلاط والاندماج.

الاندماج يعني العبودية للغير والذل والقهر والضياع. والعودة إلى يهوه إلى حضن العشيرة يعني الخلاص والحرية وإمكانية تحقيق المشروع الاستعماري.

ولا ندري ما المقصود بالهدوء المكرر كلازمة بين كل تحولين. أهو الهدوء من الصدِامات والمعارك مع شعوب المنطقة، وهو الحياة الطبيعية المنفتحة على الآخرين والتخلي عن الفكر العنصري الاستعماري، أم هو الانعزال والتقوقع نتيجة الضعف والخوف ؟!

ونظن أن رسالة عزرا صارت واضحة:

الارتباط بالجماعة اليهودية هو الخير والأمن والسلامة. أما الارتباط بالآخرين (الغوييم) فهو الشر والإثم والمعصية.

أما عن العلاقات ضمن الغيتو، وإن كانت هنا شرور وفسق وزنى وشذوذ... فكله لا قيمة له لأن يهوه العاشق لشعبه غفار لهم.

والمهم هو ألا يتخلوا عن فكرة استعمار الأرض فهي جوهر يهوه والدين. والتزاوج من أخطر الأمور على المشروع. فكيف سيتزوج اليهودي امرأة من الكنعانيات في الوقت الذي ينوي في أعماقه قتل أهلها وسرقة أرضهم، إنها ستحول مبادئه تلك وتثنيه عنها حتماً. والمرأة شيطان بدءاً من حواء لقوتها التأثيرية على الرجل. وكما حرمت حواء آدم من النعيم ستحرم الكنعانيةُ اليهوديَ من النعيم في أرض كنعان. لذا يجب قتلها وأهلها للاستيلاء على الأرض ولا مصالحة ولا مصاهرة معهم!! لقد بكى عزرا بهستريا عند سماعه نبأ التزاوج من الأجنبيات: " ونصاهر شعوب هذه الرجاسات". (عزرا 14/9).

وهذه هي القضية بالضبط بالنسبة لعزرا والكتبة: الاندماج أو الانغلاق! وفي كل سفر تنويعات على ذلك وتجليات.

فالتمرد على الثالوث يعني الاندماج، وهذا يؤدي إلى التخلي عن المشروع الاستعماري. أما الانصياع للثالوث فيعني الانعزال والانغلاق، وهذا يؤدي إلى استمرارية وحيوية الفكرة الاستعمارية.

وفترات الاستراحة هي التقوقع والتراجع عن محاولة الاعتداء على شعب كنعان ومحاولة الاستيلاء على أرضه.

ويجب أن نلاحظ تغييب عزرا والكتبة لانتصارات شعب كنعان، وصموده في أرضه والدفاع عنها.

فهو يفرغ الانتصار والمقاومة من مضمونهما الوطني، لأنه يطرح الموضوع كعقاب من يهوه لبني إسرائيل لتخليهم عن الثالوث!!

كما أن عزرا والكتبة أعطونا صورة عن محاولات الإسرائيليين المحمومة للقضاء على شعب كنعان. وقد أخفقت محاولاتهم اللاهثة كلها. وتلقوا ضربات كانت تمتد عقوداً.

وما العدوانية التي اتصفوا بها إلا تعويض عن الشعور بالدونية والضعف والإخفاق أمام صلابة شعب كنعان الآمن والمسالم.

* * *

هوامش الفصل الرابع: التمرد والرضوخ

(1) السواري جمع سارية وهي نصب عشتاروت أو عشيرة " أشيروث". وفي الطبعة الكاثوليكية: " وعبدوا البعليم والعشتاروت". ويذكر خزعل الماجدي في كتابه: " المعتقدات الكنعانية "(ص70)، أن عشيرة زوجة الإله إيل وهي الإلهة الأم الجديدة وتلقب بـ (إيلات). ويتحدث عن السواري (ص237) فيقول إنها نصب مقدسة تبنى فوق المرتفعات وكانت بمثابة المعابد الأولى القديمة للإلهة الأنثى عشيرا (أشيروث:Ashertoth). كما أن الإله بعل هو وريث الإله إيل على الكون (ص71).

ومن معاني بعل: سيد، ملك، زوج... وهو اسم لعدة آلهة في المنطقة (ص 127 وما بعد). ومن هنا جاءت تسميات أعلام المدن مثل: بعلبك (بعل بقاع) كرمل (بعل كرم اللوز). وجمع بعل باللغة الكنعانية: بعول وبعليم.

وفي هذا الإطار التأثيري لديانة كنعان على الديانة اليهودية، يقول ميرسيا إلياد في كتابه: " تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية " - (ج1 ص 227-228): " وفيما سبق في القرون الأولى من الغزو والاستعمار يلاحظ تأثير كنعاني هو في آن واحد، عميق ومتعدد الأشكال. وفي الواقع، لقد أخذ عن الكنعانيين النظام الشعائري، والمزارات المقدسة والمعابد. وإن الطبقة الكهنوتية تنظمت طبقاً للنماذج الكنعانية، وأخيراً، فإن الأنبياء، الذين لم يتأخروا عن معاودة العمل ضد سيادة الكهنة وضد التوفيقية مع طقوس الخصب، هم، نفسهم أيضاً حصيلة التأثير الكنعاني".

(2) جدعون له اسم آخر هو: يربعل، ومعناه (ليخاصمه البعل). وقد أطلقه أبوه عليه بعد أن هدم مذبح البعل. وقد خلّف جدعون سبعين ولداً "خارجون من صلبه لأنه كانت له نساء كثيرات".(قضاة 30/8).

(3) بريت أو بريث: العهد. والمعنى وجعلوا: " بعلاً عهداً إلهياً ".

(4) نلاحظ تشابه الأسماء: أبيمالك هنا وفي التكوين مع إبراهيم وإسحق. وحمور أبو شكيم كما في حكاية دينة بنت إسحق. وأبيمالك يطلب من غلامه قتله وهذا ما سيتكرر مع شاول... فالأسماء المكررة وكذا الأحداث قد يدل على أنها تنويعات على اسم واحد أو حادثة واحدة.

(5) الموسوعة الكتابية - مادة يفتاح.

(6) نقل المؤرخون العرب حكاية شمشون بالاستناد إلى الأسفار اليهودية. فقد رويت على لسان وهب بن منبه كما في تاريخ الطبري (ج1 - ص 381).

(7) جاء في حواشي الطبعة الكاثوليكية (ص 9) " ليس المراد بروح الرب الوحي، بل روح القوة والقدرة التي جعلها الله في شمشون لمحاربة الفلسطينيين أعداء إسرائيل واستئصال شأفتهم"!!

(8) جبعة أو جبعا أو جبع: سكانها بنياميتيون. وتقول الموسوعة الكتابية في أحد توقعاتها تقع إلى الجنوب الشرقي من حبرون!

(9) بليعال: رجال الشر، اللؤم، الشياطين، اللواطيون... فهي تعني الصفات السيئة والخسيسة والمراد في النص اللواطيون، (الموسوعة الكتابية).

الفصل الخامس:

المملكة المزعومة

1- صموئيل وشاول

كان لألقانة بن يروحام الأفرايمي، زوجتان الأولى ولودة واسمها فننة، والثانية عاقر واسمها حنة.
وكانت حنة تبكي حظها، ولا سيما حين تغيظها ضرتها. وكما في حكاية سارة وهاجر، وليئة وراحيل، يستجيب الرب لها فتحمل وتلد صموئيل (صموئيل "1" 20/1).
وكما في حكاية شمشون نذرت ألا تحلق شعره، وأن تنذره لخدمة الرب. وعلى ما يبدو أراد عزرا أن يقول: إن رشوة يهوه ممكنة، وتجعل المرأة العاقر تلد، والأمنيات تتحقق!
وهكذا صار صموئيل الصبي يخدم الرب أمام الكاهن عالي (صموئيل "1" 12/2). وكان أولاد الكاهن عالي أشراراً ولصوصاً: " وكان بنو عالي بني بليعال. لم يعرفوا الرب". (صموئيل "1" 12/2). " وكانوا يضاجعون النساء المجتمعات في باب خيمة الاجتماع ". (صموئيل "1" 22/2).
بينما شبّ صموئيل على التقوى والصلاح كما يقول السفر، وهو يخدم الرب. وذات مرة يناديه الرب: صموئيل. فيظن أن عالي يناديه فيهرع إليه. لكن عالي ينكر مناداته. ويتكرر الأمر ويهرع إلى عالي، وينكر ذاك. ولا يعرف صموئيل المنادي: " لم يعرف صموئيل الرب بعد". (صموئيل "1" 7/3). بينما انتبه عالي إلى أن المنادي هو الرب وبالتالي علّم صموئيلَ ماذا يفعل إن نُودي ثانية. " فجاء الرب ووقف ودعا كالمرات الأولى صموئيل صموئيل. فقال صموئيل: تكلم فإن عبدك يسمعك ". (صموئيل "1" 10/3).
ومن بعد هذه الحادثة يصير نبياً. ويشيع خبره بين بني إسرائيل. وفي تلك الأثناء تجري معارك بين الفلسطينيين والإسرائيليين. وينهزم الإسرائيليون في معركتين متتاليتين. وفي المعركة الثانية يموت ثلاثون ألفاً منهم ومن بينهم ولدا عالي الفاسدان. كما يأخذ الفلسطينيون مع الغنائم تابوتَ العهد. فيصل الخبر إلى الكاهن عالي فيسقط عن الكرسي " إلى خلفه على جانب الباب فاندق عظم عنقه ومات". (صموئيل "1" 18/4). وكان هذا بعد توليه قضاء إسرائيل أربعين سنة.
وأما التابوت فقد أعاده الفلسطينيون بعد سبعة أشهر لما عانوه من مصائب وويلات بدءاً بالبواسير وانتهاء بالموت!
وأعادوا معه قرابين ورشاوى لإرضاء رب الإسرائيليين ليشفيهم مما أرسله إليهم وليكف أذاه عنهم.
والتابوت كما مر هو نوع من الفتش الذي يعتقد البدائيون بدوره الفعّال في الحماية والنصر...
ومن خلال النص نفهم بأن الإسرائيليين كانوا يعبدون آلهة الوثنيين كالبعليم والعشتاروت. والهزيمة في المعارك عقاب على تحولهم من يهوه إلى غيره.
فكيف يؤمنون بآلهة وثنية ويحملون تابوت يهوه ؟! وكيف يعيد الفلسطينيون التابوت مع الاعتذار الحار إلى ربهم، في الوقت الذي يعبد فيه الإسرائيليون الآلهة الوثنية ؟!

وهذا يعني أن الهزيمة لم تكن عقاباً. ولم تكن الوثنية أو الإيمان بيهوه هما السبب. إن دفاع أهل كنعان عن أرضهم وحقوقهم وصد الغزاة المستعمرين هو السبب!

وأمام الهزائم يبرز صموئيل ليدعو الإسرائيليين إلى نبذ آلهة الآخرين والعودة إلى يهوه: " فأزال بنو إسرائيل عنهم البعليم والعشتاروت وعبدوا الرب وحده ". (صموئيل "1" 4/7).

وما إن أزالوا تلك الآلهة حتى انتصروا على الفلسطينيين، بل وأعادوا احتلال مدن كانوا قد احتلوها سابقاً، وحررها الفلسطينيون منهم. وعقدوا مصالحة مع الأموريين.

وبقي صموئيل يقضي بين بني إسرائيل إلى أن شاخ فعيّن ولديه قاضيين ليساعداه، ولكنهما كانا فاسدين فقد " قبلا الرشوة وحابيا في القضاء". (صموئيل "1" 3/8). وهذا الأمر دفع الإسرائيليين إلى مطالبة صموئيل بتنصيب ملك عليهم. فقال الرب لصموئيل: " اسمع لكلام الشعب في كل ما يقولون لك. لأنهم لم يسأموك أنت وإنما سئموني أنا في توليّ عليهم". (صموئيل "1" 7/8).

ويختار صموئيلُ شاولَ ملكاً على إسرائيل(1). ويذكر السفر أن شاول كان يفتش عن أُتن أبيه الشاردة دون جدوى. ثم قرر أن يسأل نبياً ما علّه يرشده إلى مكان الأتن الضائعة: " وكان فيما سبق إذا أراد الرجل في إسرائيل أن يذهب ليسأل اللّه يقول هلم نذهب إلى الرائي، لأن النبي اليوم كان يدعى سابقاً الرائي". (صموئيل "1" 9/9).

وقادته قدماه إلى صموئيل ليرشده إلى أتن أبيه الضائعة. فلما رآه صموئيل أعجب به لأنه كان أطول من الجميع. ولم يكن هناك أحسن منه. وفي اليوم التالي صب على رأسه دهناً (زيتاً) وقبله وقال: " إن الرب قد مسحك قائداً على ميراثه". (صموئيل "1" 1/10).

وفيما بعد ينطلقون إلى الجلجال ليملّكوا شاول رسمياً أمام الرب. وبعد ذلك يعظهم صموئيل إلى أن يقول: " لا يترك الرب شعبه من أجل اسمه العظيم لأنه قد شاء الرب أن يجعلكم له شعباً ". (صموئيل "1" 22/12).

فالملك الذي اختاره صموئيل، قبل به الشعب، وأقامه الرب ملكاً رسمياً عليهم.

والذي يبدو أن الرب كان يكره وجود ملك على بني إسرائيل، لأنه عدّ نفسه هو الملك عليهم: " وإنما ملككم الرب إلهكم". (صموئيل "1" 12/12).

وبدأ شاول يخوض معاركه ضد أعدائه وكان النصر حليفه دائماً: " وتولى شاول الملك على إسرائيل وحارب كل من كان حوله من الأعداء من الموآبيين وبني عمون والأدوميين وملوك صوبة والفلسطينيين وكان حيثما اتجه ظافراً ". (صموئيل "1" 47/14).

وتسيطر الخرافات على معاركه، فهو يخوض معركة ضد الفلسطينيين الذين عدد قواتهم: ثلاثون ألف مركبة وستة آلاف فارس وجنود كالرمل... وينتصر!

وتلك الأرقام الخيالية، ما هي إلا من باب التهويل والمبالغة بهدف مدح الذات. فعندما يكون الخصم على تلك الصورة من القوة في العدد والعتاد، ثم ينتصرون عليه، فمعنى ذلك هو مدح لقوتهم وجبروتهم!!

وهناك آية ملفتة للنظر في (صموئيل "1" 17/13): " فخرج المخربون من محلة الفلسطينيين".

فعزرا يسمي الفلسطينيين بالمخربين: SPOILER . وما أشبه اليوم بالماضي/ ماضي الأسفار وليس ماضي التاريخ الحقيقي/. فاليهود هم المعتدون والمستعمرون، وابن كنعان / الفلسطيني/ يقاوم الاعتداء والعدوان والإرهاب ويدافع عن أرضه وحقوقه، فيطلقون عليه لقب المخرب، الإرهابي!!

* * *

ويتابع شاول معاركه ضد عماليق بطلب من صموئيل لأن تلك المعارك هي رغبة الرب: " وقال صموئيل لشاول أنا الذي أرسلني الرب لأمسحك ملكاً على شعبه على إسرائيل فاسمع الآن قول الرب. هكذا يقول رب الجنود قد افتقدت ما صنع عماليق بإسرائيل وكيف وقفوا لهم في الطريق عند خروجهم من مصر. فهلم الآن واضرب عماليق وحرموا كل مالهم ولا تعف عنهم بل اقتل الرجال والنساء والأطفال والرضع والبقر والغنم والإبل والحمير". (صموئيل "1" 1/15-3).

وتتكرر المجازر على خطى موسى ويشوع. فالروح العدوانية الشرسة والتي وجدت فرصتها السانحة أمام ضعف الخصم - بحسب ادعاء الكتبة - كشفت عن أنيابها وحقدها الدفين لمن يقف في وجه أحلامها الاستعمارية، بل والقيام بالانتقام للماضي، فهناك تصفيات للحسابات التي يأتي وقتها المناسب!!

وهذه العدوانية ستخلق التعادل والتوازن في النفسية القلقة والخائفة والمضطربة، أمام الصاحب الشرعي للأرض والمدافع عنها بكل ما أوتي من قوة.

والأفعال الإجرامية ينسبها عزرا ليهوه السفاح الأول، فيهوه يأمر بقتل الأطفال حتى الرضع!!

يتحدث يونغ عن يهوه ذاك فيقول: " كان ثمة شواهد كثيرة على تناقض في صورة " يهوه"؛ وهي صورة لإله لا يعرف الاعتدال في انفعالاته، ويكابد من الآلام أشدها بسبب افتقاره لهذا الاعتدال، ويسلم هو نفسه بأن الغضب والغيرة يأكلانه أكلاً، ومعرفته لهذه الحقيقة تؤلمه أيما إيلام.

فقد جمع في نفسه البصيرة إلى الغباء، والرحمة إلى الشدة، والقدرة الخلاقة إلى روح التخريب. فقد كان كل شيء ممكناً، وما كان لصفة من صفاته أن تقف عقبة في وجه الأخرى"(2).

فيهوه ذاك تجتمع فيه التناقضات كلها؛ ففي الوقت الذي يصف نفسه بالعدل والرحمة، يأمر بقتل الأطفال الرضع، والحيوانات التي بلا هوية ولا جنسية ولا دين!!

وتلك التناقضات والصفات تعني شيئاً واحداً وهو أن يهوه ليس هو اللّه أبداً. فاللّه هو الحق والخير والعدل ولا تناقض في صفاته مطلقاً.

* * *

ويحارب شاول العماليق بجيش عرمرم يبلغ مئتي ألف راجل وعشرة آلاف رجل من يهوذا (صموئيل "1" 4/15).

وينتصر عليهم ويقتلهم بحد السيف. ولكنه عفا عن ملكهم أجاج وعن خيار الغنم والبقر والحملان. أما الهزيل منها فقد قتله. (صموئيل "1" 9/15). وذاك العفو يغضب الرب الدموي الناري، ويعلم صموئيل بأنه ندم على اختياره ملكاً: " إني قد ندمت على إقامتي شاول ملكاً لأنه مال عن اتباعي ولم يقم كلامي". (صموئيل "1" 11/15).

ويبكي صموئيل ويتوسل إلى يهوه أن يعفو عن شاول وأن يسامحه. ولكن يهوه عنيد فقد ركب رأسه وأصر على موقفه. ولم يذهب عنه الغضب. ولا يشفي غليله إلا الدم المتدفق دائماً!

إنه لن يعفو عن شاول لأنه عفا عن أجاج ولم يقتله بل وترك المجرمين من البقر والغنم والحملان ولم يسفك دماءها!!

وعفو شاول عن أجاج لا يعني أنه رؤوف رحيم فقد قتل الرُضع والحيوانات الهزيلة.

لقد كان ملتزماً تماماً بتعاليم يهوه فهو اختار المواشي السمينة والجيدة ليقدمها قرابين ليهوه!

كما أنه قرر أن يقتل ابنه يوناتان لأنه ذاق قليلاً من العسل بطرف عصاه خلافاً لتعليمات أبيه التي حظرت تناول أي طعام حتى المساء، ليكمل انتقامه من أعدائه. (صموئيل "1" 24/14). ولكن الشعب افتدى ابنه فلم يقتله.

أما عفوه عن أجاج فليس أكثر من عادة في تلك الحروب القديمة، والتي تبقي على الملوك والزعماء لقاء فدية مالية باهظة!

ونقف هنيهة لنتحدث عن مفهوم لاهوتي مضحك حول ماهية يهوه والذي يتكرر دائماً وبدءاً من خلق آدم.

فعبر الأسفار تتكرر أسطوانة الرب الذي يندم على ما يفعل وخاصة عندما يعاقب أولاده. ونجد في عهد داود أن الرب يعاقب أبناءه ثم: " بسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها. فندم الرب عن الشر. وقال للملاك المهلك كفى". (صموئيل "2" 16/24).

والندم سمة لإنسان متسرع أهوج لا يفكر قبل أن يعمل، أو يفكر ولكن تفكيره خاطئ. وفي كلتا الحالتين نجد أنفسنا أمام إله مزيف! لأن هذا يعني أن يهوه يجهل المستقبل ولا يعرف ماذا سيجري غداً.

وهنا تفوق معرفة النبي قدرة يهوه. لأن النبي كما يقول النص يستطيع أن يتنبأ بالمستقبل.

وبما أن يهوه عاجز عن معرفة المستقبل، فكيف يعد أولاده، شعبه، سلالة أسباط يعقوب المدللين، بالأرض ؟! كيف يؤكد على ذلك وهو لا يعلم ولا يدري إن كان ذاك سيتحقق أم لا ؟!

* * *

ولما يئس صموئيل من عفو يهوه عن شاول تخلى عنه، وانحاز إلى صف يهوه. وطلب إحضار أجاج وقال له: " كما أثكل سيفك النساء تثكل أمك بين النساء".· (صموئيل "1" 33/15).

وقتله تقطيعاً أمام الرب ليرضي ساديته المتعطشة للتعذيب والدماء! وارتاح الرب نفسياً وطلب من صموئيل أن يكف عن النوح على شاول، وأن يمسح شخصاً آخر ملكاً اختاره الرب.

* * *

2- داود

يبدأ صموئيل باختيار الملك. فيستعرض أولاد يسَّى دون أن يختار أحداً منهم. فيسأل عن الابن الأخير داود الذي كان صغيراً ويرعى الغنم: " فأرسل وأتى به وكان أشقر حسن العينين وسيم المنظر". (صموئيل "1" 12/16).(3)

فقال الرب لصموئيل: قم فامسحه. فمسحه فحل روح الرب عليه. وصادف أن احتاج شاول إلى عازف ماهر على العود ليعزف له عندما تحل عليه الأرواح الشريرة أو الشياطين. فيرشدونه إلى داود فيؤتى به، فينال إعجاب شاول فيتخذه حاملاً لسلاحه. (صموئيل "1" 21/16).

وكما هي العادة تخوض إسرائيل معارك مع الشعوب التي كانت ترفض وجود المستعمرين بينهم. ولم تترك إسرائيل تشعر بالراحة والأمن والاستقرار.

وفي هذه الأثناء كانت حربها مع الفلسطينيين " ووقف الفلسطينيون على جبل من هاهنا ووقف الإسرائيليون على جبل من هناك وبينهم الوادي". (صموئيل "1" 3/17).

وخرج من بين صفوف الفلسطينيين فارس مبارز اسمه جليات (صموئيل "1" 4/17 وما بعد)، تحدى الإسرائيليين. فلم يجرؤ أحد على منازلته: " فارتاعوا وخافوا جداً ". (صموئيل "1" 11/17).

ولا ندري أين اختفى الجيش العرمرم، والبطولات الخارقة ؟!

وبقي جليات أربعين يوماً يتحدى، ولا أحد من الإسرائيليين يجسر على الخروج لمقاتلته!

وذات يوم أرسل الأب يسَّى ابنه داود ومعه طعام إلى إخوته المرابطين في الجبل ليطمئن على سلامتهم.

ويصل داود إلى ساحة الحرب، ويرى ويسمع جليات وهو يتحدى ويتوعد. فيستخف به، ويسأل عن أجر من يقتله!

ويصل الخبر إلى شاول فيستدعيه، ولما مثل أمامه وجده صغيراً. لكن داود حدثه عن قوته وكيف كان يقتل الأسد أو الدب عندما كان يخطف أحدهما شاة من القطيع الذي يرعاه (صموئيل "1" 34/17-35).

فوافق شاول وألبسه سلاحاً. إلا أن داود لم يستطع أن يمشي بذاك السلاح فخلعه واكتفى بمقلاعه وبحجارته الخمس الملساء (صموئيل "1" 40/17).وانطلق إلى جليات متحدياً: " أنت تأتيني بالسيف والرمح والترس، وأنا آتيك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل". (صموئيل "1" 45/17). وقذفه بحجر من المقلاع فأصاب جبهته وسقط على الأرض، فأسرع داود إليه واستل السيف منه، وقطع رأسه (صموئيل "1" 51/17).

ولما رأى الفلسطينيون موت فارسهم دب الرعب في قلوبهم وهربوا فارين!

ويسأل شاولُ قائدَ جنده أبنير عن الغلام داود، فينكر أبنير معرفته، ويأتي بداود إليه. فيسأله الملك ابن من أنت ؟ فيجيب: " أنا ابن عبدك يسَّى". (صموئيل "1" 58/17). وقد مر سابقاً أن شاول قد اتخذ داود عازفاً له وحاملاً لسلاحه!

وسر الملك بداود وقربه منه وصار يكلفه بمهمات عسكرية جعلت له شعبية في عيون الناس. مما أدى إلى حسد شاول وغيرته. وهذا الحسد دفعه إلى محاولة قتله بالرمح فأخطأه لأن روح الرب حلت على داود.

وهكذا ازداد حب إسرائيل ويهوذا لداود.(صموئيل "1" 16/18).

ويعرض الملك على داود الزواج من ابنته الكبرى ميراب (ميرب) فيرفض داود لمكانته الوضيعة أمام الملك وعظمته! ويكرر الملك المحاولة بإغرائه بابنته الأخرى ميكال، وأرسل عبيده لإقناع داود بالأمر.

وكان هدف الملك التخلص من داود لأن المهر هو مئة فلسطيني!

فوافق داود وجاء بالمهر مضاعفاً " وقتل من الفلسطينيين مئتي رجل وجاء داود بقلفهم". (صموئيل "1" 27/18).

ومن ثم تزوج داود ميكال التي كانت تحبه. وفي الوقت نفسه ازداد شاول قلقاً من اتساع نفوذ داود، حتى عدّه العدو الأول له.

فلقد جذب داود قلوب الناس إليه، وهذا يعني الخوف من أن ينقلب ضده ويستلم السلطة بدلاً منه. خاصة وهناك نفور بينه وبين صموئيل الممثل للسلطة الدينية.

ونشأت صداقة ومحبة بين داود وابن شاول يوناتان (يوناثان). ولما طلب شاول من ابنه ذاك ومن عبيده، قتل داود. قام الابن بتحذير داود وطلب منه الهرب (صموئيل "1" 2/19).

ثم توسط الابن عند أبيه ليعفو عن داود فوافق الأب، فعاد داود. وتابع حروبه ضد الفلسطينيين. وحاول شاول ثانية قتل داود بالرمح فأخفق وهرب داود ثانية من وجهه.

وتعقبه رجال شاول إلى بيته. فهرّبته زوجته ميكال من خلال الكوة. فذهب إلى صموئيل.

ويعلم شاول بالأمر فيرسل رجاله لإحضاره. فلما وصلوا كان هناك أنبياء يتنبأون أمام صموئيل: " فحل روح الرب على رسل شاول فتنبأوا هم أيضاً ". (صموئيل "1" 20/19).

وأرسل شاول آخرين لما وصله نبأ رسله وما حل بهم، فتحولوا أيضاً إلى أنبياء.

وبعد ثلاث مرات، قرر أن يذهب بنفسه. ولما وصل حلّت عليه روح الرب فصار يتنبأ حتى قيل: " أشاول أيضاً من الأنبياء". (صموئيل "1" 24/19).

وهذه ليست المرة الأولى فقد جاء في الإصحاح العاشر وهو في طريقه إلى الجلجال بعد أن مسحه صموئيل ملكاً، حيث قابل مجموعة من الأنبياء فحلت عليه روح الرب وصار يتنبأ حتى قيل: " أشاول أيضاً من الأنبياء". (صموئيل "1" 10/ 11-12).

وهكذا صار نبياً فانطرح عرياناً نهاره ذاك وليله، ولا ندري السبب أهو نتيجة لنبوته ؟!

لقد حلت عليه روح الرب والتي غادرته يوم عفوه عن أجاج والحيوانات، فهل يهوه غيّر رأيه ليحافظ على سلامة داود من شر شاول ؟!

وهل حماية داود الإلهية تتطلب حلول الروح على غريمه، وأيضاً تحويل الرسل إلى أنبياء ؟!

ولماذا يبقى مختار الرب داود مطارداً من مكان إلى آخر ولا يحميه يهوه، بل نجد داود يسأل ابنَ شاول يوناتان عن سبب ملاحقة أبيه له، والابن يسأل الأب ولا يحظى بالجواب ؟!

إن الدين اليهودي لا يُناقش عقلياً لأنه يتهاوى مباشرة، والدين الحقيقي لا يتعارض مع العقل والمنطق والعلم والحقيقة التاريخية، فإن تعارض سقط وسقطت قدسيته المزيفة!

وقضية شاول واضحة فهو يخشى على عرشه أمام ازدياد نفوذ داود. كما أنه يريد أن يضمن ابنه كوريث شرعي له: " لأنه ما دام ابن يسَّى حياً على الأرض فلا تثبت أنت ولا مملكتك". (صموئيل "1" 31/20).

ويتابع داود هربه من وجه الملك شاول. فيمر بجت، ويخشى على نفسه من ملكها أخيش (أكيش). فيتظاهر بالجنون: " وأخذ يخربش على مصاريع الباب، وهو يسيل لعابه على لحيته". (صموئيل "1" 13/21).

فقال أخيش لعبيده: لمَ جئتم إليَّ بهذا المجنون " أمن قلة المجانين عندي أتيتموني بهذا ". (صموئيل "1" 15/21).

ويتابع داود طريقه إلى مغارة عدلام حيث التحق به أهله والمعارضون لسلطة شاول، حتى صار معه أربعمئة رجل، ثم فيما بعد ارتفع عددهم إلى ستمئة رجل.

وخاض مع جماعته معركة ضد الفلسطينيين وانتصر عليهم (صموئيل "1" 5/23).

وتستمر الأسطوانة؛ شاول يبحث عن داود، وداود يفر من مكان إلى آخر!

ويختبئ داود في مغارة عين جدي. ويمر بالمكان شاول ومعه ثلاثة آلاف رجل فيتوقفون عند المغارة. ويأتي شاول إلى طرف المغارة ليقضي حاجة. فيتسلل داود إليه ويقطع قطعة من جبة شاول.

وعندما انتهى شاول، عاد إلى جيشه وتابع طريقه. فلحق به داود وناداه من بعيد وهو بين المرتفات وأخبره بأنه كان يستطيع أن يقتله لأنه كان داخل المغارة، وأراه قطعة القماش التي قصها من جبته كدليل على صدقه. وبرر عدم قتله: " لا أرفع يدي على سيدي لأنه مسيح الرب". (صموئيل "1" 11/24).

فاعتذر شاول وأبدى أسفه وقال لداود: " ولقد علمت الآن أنك ستصير ملكاً ويثبت في يدك ملك إسرائيل". (صموئيل "1" 21/24). (4)

والغريب في الأمر أن شاول عندما جاء إلى مقدمة المغارة لقضاء حاجته، لم يحس أو يشعر بوجود أحد داخل المغارة، كما أنه لم ينتبه إلى داود وهو يقتطع من جبته قطعة!

وافترق الخصمان إلا أن شاول نكث وعده وعاد لغدره وملاحقة داود.

ويذهب إلى برية زيف مع ثلاثة آلاف رجل للقبض على داود، بعد أن جاءته أنباء عن وجوده هناك.

وكما في حكاية المغارة يتسلل داود مع صديقه إلى مكان نوم الملك ورئيس جنده عند التلة. وأخذ رمح الملك وكوز مائه وانسلا دون أن يحس بهما أحد.

وفي اليوم التالي خاطب داودُ الملكَ من الجبل عن بعد منه وأخبره بأنه كان بوسعه أن يقتله ولكنه لم يفعل. وقدم له الدليل الرمح والكوز. فخجل الملك واعتذر ووعد بألا يلاحقه. وأعاد داود له رمحه وكوزه. (الإصحاح 26). وقرر داود أن يذهب إلى مكان آمن يستحيل أن يصل إليه الملك، وهو أرض الفلسطينيين!

فذهب إلى ملك جت ومعه رجاله الستمئة وذهبت معه زوجتاه (أحينوعم وأبيجايل). وبقي هناك سنة وأربعة أشهر.

* * *

ويذهب شاول إلى مقاتلة الفلسطينيين المحتشدين لقتاله. ولكنه قبل ذهابه يستشير عرّافة لها ارتباط بالجنّ، لتتكهن له، وتحضر صموئيل من عالم الأموات (لأن صموئيل مات: صموئيل "1" 1/25 و 3/28)، ليستشيره ويستفتيه في موضوع القتال.

وتحضر العرافة صموئيلَ من أعماق الأرض، ولكنه أي صموئيل لم يلتفت إلى شاول ولم يكترث له.(5)

والاتصال بالعرافة يعبر عن عجز شاول وضعفه وحاجته إلى من يقف إلى جانبه. فصموئيل مات غضبان عليه، وداود عدوه يقف إلى جانب الفلسطينيين. فماذا يتبقى له وقد تخلّى عنه يهوه أيضاً ؟!

يتحدث د. شيهان عن الاكتئاب كمرحلة أخيرة إلى حد ما من مرض القلق فيقول: " وفي هذه المرحلة يشيع الشعور بالذنب، وضياع الرجاء، وفقدان الحول، وانعدام الجدارة. كما يخيم الاتجاه السلبي المتشائم حتى نحو الأشياء التي كان ينظر إليها نظرة إيجابية. وليست هذه المشاعر دائمة في العادة، ولكنها تجيء وتذهب كالأمواج التي تؤدي أحياناً إلى شل النشاط. ويشيع الشعور المفرط بالذنب بنوع خاص...".(6)

إن اليهود كانوا يؤمنون بالخرافات وتحضير الأموات. والعلاقة بالأرواح الشريرة والجن والشياطين... وهم في ذلك لم يخرجوا عن إطار الآخرين.

* * *

ويعرض داود على ملك جت (أخيش) أن يقاتل إلى جانبه. لكن الملك وإن أعرب عن ثقته الكبيرة بداود وجماعته، اعتذر لأن الفلسطينيين يرفضون أن يقاتل عبرانيون إلى جانبهم!

ويلتقي الجمعان ويخسر الإسرائيليون وينهزمون. ويموت شاول وثلاثة من أبنائه وحامل سلاحه.

ويأتي رجل إلى داود ليخبره بأن شاول بعد إصابته لم يعد يتحمل الألم، فطلب منه أن يقتله، ففعل. وأعطى داودَ تاج الملك وسواره (صموئيل "2" 10/1).

وينوح داود وجماعته على مقتل الملك. ثم يأمر داود بقتل الرجل لاعترافه بقتل الملك.(7)

ومُسح داود ملكاً على يهوذا في حبرون لمدة سبع سنين وستة أشهر.

* * *

شخصية شاول:

من خلال سيرته وملاحقته لداود، نجد أنه يتسم بالكذب والجبن والغدر ونكث الوعود.

وقد حلت عليه روح الرب عندما كان مجرماً سفاكاً للدماء لا يرحم حتى الرضيع أو الحيوان. ولكن الرب تخلى عنه عندما عفا عن الملك أجاج وعن الماشية السمينة.

فالمطلوب هو القتل ودونما رحمة أو شفقة أو عفو. والكتبة يوجهون خطاباً للسياسيين والعسكر ورجالات السلطة بأن يلتزموا بتعاليمهم، لأن أي خرق لتلك التعاليم يعني إخراجهم من موقع السلطة. والنص الديني واضح: " لا تشفق عيناك عليهم". (تثنية 16/7). فيهوه يغفر كل شيء لشعبه المختار سلالة أسباط يعقوب، حتى الزنى وعبادة آلهة الآخرين،

ولكنه لا يتساهل مطلقاً بما يتعلق بموضوع استعمار أرض كنعان، والذي يعني إبادة شعب كنعان. وإلا كيف سيكون الاستيلاء على الأرض بوجودهم!

فهذه النظرة تعبر عن مشاعر الطامعين في أرض كنعان. لذلك سنجد فيما بعد أن داود هو رجل الرب لأنه كان يسفك دماء الجميع ولا يعفو عن أحد ولا يرحم أحداً حتى الرضيع!

ولأنه كذلك، غفر يهوه له كل آثامه رغم فظاعتها.

وحروب شاول ضد الفلسطينيين تدل على أن شعب كنعان كان يقاوم المستعمرين ويقاتلهم ولم يهدأ نضاله. وكما قلنا سابقاً: لو كانت تلك الأرقام عن القتلى صحيحة لما بقي إنسان على أرض كنعان.

ورغم ادعاء السفر بهزائم الفلسطينيين، يعود ليتحدث عن معركة جديدة ! فكيف ينهض المهزوم والخائف إلى معركة أخرى مباشرة في الوقت الذي يفترض فيه، أن تكون آثار الهزيمة والخسائر محبطة لمحاولة خوض تجربة جديدة !؟

وهذا يعني كذب الكتبة حيث لا هزائم، بل ولا معارك، لأنه لم يكن لبني إسرائيل أي وجود على أرض كنعان.

وقضية أخيرة تتعلق بانتصارات الفلسطينيين، فإذا كان الفلسطينيون قد استطاعوا تحقيق انتصار على الإسرائيليين، فلماذا لم يلاحقوهم ويطردوهم من أرض كنعان، وتنتهي القضية ؟ وكذا الأمر بالنسبة للإسرائيليين؛ لماذا الادعاء بالانتصار ولم يتمكنوا من القضاء على الفلسطينيين ولا على إقامة المملكة ؟!

وكل هذا يثبت دجل وزيف الكتبة، إلا أنهم مع داود يدعون بأنه أقام المملكة وهذا ما سندرسه ونحن نتابع حياة داود.

* * *

بعد أن مسح داود ملكاً على يهوذا، نشب صراع بين بيت داود وبيت شاول على السلطة.

فالإسرائيليون انقسموا إلى جماعة داود (يهوذا)، وجماعة ابن شاول (إسرائيل).

فقد عيّن قائدُ جيش شاول (أبنير)، ابنَ شاول إشبوشت ملكاً على " جلعاد والأشوريين ويزرعيل وأفرايم وبنيامين وعلى جميع إسرائيل". (صموئيل "2" 9/2). وقد بقي ملكاً لمدة سنتين.

ولم تطل فترة مناصرة ودعم أبنير لملكه إشبوشت، فقد خانه وتخلى عنه وانضم إلى داود. والسبب لأن إشبوشت عاتبه عندما ضاجع سرية كانت لأبيه شاول.(صموئيل "2" 8/3).

وقد اشترط داود على أبنير ليقبله عنده، أن يجلب معه زوجته ميكال والتي زوَّجها شاول لفلطيئيل بن لائيش (فلطي) بعد أن كانت له زوجة.

ولبّى أبنير طلب داود وجلب معه ميكال، فركض وراءهم زوجها فلطي وهو يبكي فنهره أبنير وأمره بالانصراف.

أما يوآب قائد جند داود فلم يقتنع بخيانة أبنير لسيده الملك وعدّه جاسوساً، وحذر داود منه. ولم يكتف بذلك بل قام باستدعاء أبنير وقتله.(صموئيل "2" 27/3). ولكن قتله ليس لكونه جاسوساً وإنما انتقاماً منه لقتله أخيه. هذا إن تجاوزنا خوفه على منصبه من المنافس الوافد!!

ثم يخون رجلان من قادة الجيش إشبوشتَ ملكهم ويقطعان رأسه ويأخذانه إلى داود. ولكن داود يقتلهما لأنهما قتلا " رجلاً بريئاً في بيته على سريره". (صموئيل "2" 11/4). وحتى لا يتجرأ الشعب على الملوك!

وبموت الملك وقبله قائد جنده انتهت المعارضة. فجاء شيوخ إسرائيل إلى داود في حبرون " ومسحوا داود ملكاً على إسرائيل".(صموئيل "2" 3/5).

وهكذا صار داود ملكاً على إسرائيل ويهوذا معاً.

* * *

وأرسل حيرام ملك صور إلى داود خشب أرز ونجارين وبنائين ليبنوا له بيتاً. وهذا يدل على جهل اليهود بفن العمارة والبناء فقد كانوا سكان خيام وبدو رحل.

ويحارب داود الفلسطينيين، وربه - كعادته - يعلمه ويوجهه لأن داود يستشيره، فيملي عليه المخططات وهو رب الجنود وقائد المعارك كما عرفناه منذ عهد موسى ويشوع.

ونقل تابوت الرب إلى مدينته: "حصن صهيون وهو مدينة داود" (صموئيل "2" 7/5).

وكانوا يرقصون ويغنون حول التابوت: " وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب". (صموئيل "2" 14/6). " وداود وكل بيت إسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من خشب السرو بالعيدان وبالرباب وبالدفوف وبالجنوك وبالصنوج". (صموئيل "2" 5/6).

والتابوت هو من نوع الفيتش أو الطوطم كما يقول خالد قشطيني: " تابوت الرب الذي تتوجه إليه الصلاة هو في الواقع فيتش (FETISHISM) أو طوطم لا أكثر. وإن الطوطم هو تقليدياً روح أو جسم أب أو جد عظيم الشأن".(8)

وقد ذكرت التوراة أن الإسرائيليين عندما خرجوا من مصر حملوا معهم عظام يوسف في تابوت، والتي دفنها يشوع بعد أن استقرت أموره. ثم هناك التابوت الذي صنعه موسى وفيه الوصايا والشريعة.

ولكن فيما بعد لم نعد نسمع إلا حكاية تابوت واحد، فأيهما هو؟ والذي تذكره التوراة هو تابوت الوصايا. ولكن التسمية بتابوت العهد تصدق على التابوتين، ولعلهما دمجا معاً!

صحيح بأن قدسية التابوت كطوطم لا يخرج عن مفاهيم البدائية الوثنية ولكن هل يمكن التخمين حول الموجود داخل التابوت؛ أهو عظام يوسف أو موسى - إن صحت رواية قتله هو أو هرون - ولندع قضية الوصايا جانباً!!

فاليهود لا يلفظون كلمة (يهوه) بل يستبدلونها بأدوني أو أدوناي حتى وإن كتبت يهوه يبقى لفظها أدوناي أو غيره.

ومن تقاليد الحداد عن الساميين الامتناع عن ذكر المتوفى/ كما يذكر خالد قشطيني/.

فهل اليهود قتلوا أباهم يهوه ثم أعادوا له الاعتبار عبر طوطمه التابوت ؟!

إن النظام الاجتماعي عند اليهود كان قائماً على البطريركية: " فالأب هو المسيطر على العائلة وخوف الأولاد من الأب جعل هذا المجتمع اليهودي ينقل صورة الأب إلى إله. فرب اليهود قوي للغاية، محب ولكنه أيضاً ينتقم من أولاده، أي اليهود، إن هم أساءوا إليه، ولهذا شعر اليهود بأن عليهم تقديم الضحايا إلى يهوه كي يظل راضياً عنهم إن هم ارتكبوا خطأ مع الأم. ورمز الأم هو الأرض أو أرض إسرائيل".(9)

إن عالم النفس غونين يحلل سيكولوجية اليهود استناداً إلى نظريات فرويد في التحليل النفسي " فاليهود بالنسبة لغونين مصابون بعقدة أوديب".

ومن ذاك المنطلق يصير يهوه رمز الأب المضخم، والأم هي الأرض والبيت الدافئ والآمن.
والمضي مع التحليل ذاك يعني أن الأبناء قتلوا الأب / موسى أو هرون/. وللتكفير عن شعورهم بالذنب حملوه في التابوت/ الطوطم.
إننا نرفض بعض آراء فرويد وخاصة بما يتعلق بعقدة أوديب، وبالطوطم كتعليل لمنشأ الدين. كما نرفض آراء غونين وتحليلاته لأن المرض النفسي هو مرض فردي ولا يمكن أن يكون جماعياً.
وقد تجاوز الزمن فرويد، بل، والغرب قد وصل إلى طريق مسدود في التحليل النفسي نتيجة عدم ربطه بالبنى الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية ومن خلال جدل الإنسان مع الوجود والآخر.(10)
واليهود وإن كان نظامهم الاجتماعي قائماً على البطريركية، لكنهم كانوا عصاة دائماً حتى مع يهوه، فكم من مرة تخلوا عنه ؟!
وهذا يعني ألا نحمل الموضوع أكثر مما يتحمل، فيبقى التابوت مجرد فيتش يظن البدائي أنه يجلب له الحظ والتوفيق والنجاح.

* * *

وبعد أن انتهت الطقوس الوثنية ووُضع التابوت في المكان المخصص له، وكذا المحرقة، دخل داود إلى بيته عند زوجته ميكال. وكانت قد رأته من الكوة وهو يرقص شبه عارٍ رقصاً مبتذلاً فاحتقرته في نفسها وصغر في عينيها. فلما رأته داخلاً عليها بادرته: " ما كان أكرم ملك إسرائيل اليوم حين تعرّى في عيون إماء عبيده كما يتعرّى أحد السفهاء". (صموئيل "2" 20/6).
إن الرقص والغناء والموسيقى حول التابوت طقوس تعبدية وثنية ونذكر أنه في عهد موسى عندما صنع لهم هرون العجل فعلوا ذلك. كما ترد في حكاية إيليا مع أنبياء البعل (ملوك "1" 26/18): " وكانوا يرقصون حول المذبح الذي صنعوا ".
وإذا كان رقص داود الخليع، قد أثار سخط زوجته وسخريتها واحتقارها له، وهي في تلك العصور، فكيف يمكن أن ينظر إليه ابن هذا العصر؟!
وتتكرر الأسطوانة التي لا تقف؛ فقد حارب داود الفلسطينيين، وضرب الموآبيين وانتصر عليهم وجعلهم عبيداً له. وتصل حروبه إلى دمشق وفرض الجزية على الآراميين(صموئيل "2" 6/8)، وجعلهم عبيداً له!!
وترد أرقام خيالية عن قتلى أعدائه كما هي العادة المألوفة! والرب كان دائماً معه يحميه ويخلصه حيثما توجه (صموئيل "2" 14/8).
وأمام نشوة ملكه وانتصاراته يخاطب ربه: " وأية أمة على الأرض مثل شعبك إسرائيل. الأمة الوحيدة في الأرض التي سار الله ليفتديها لنفسه شعباً". (صموئيل "2" 23/7).

* * *

ويطلب داود من مساعده وقائد جيشه أن يحصي عدد أفراد الشعب. فيقوم القائد يوآب بذلك مع مجموعة من مساعديه. وتستغرق المهمة تسعة أشهر وعشرين يوماً (صموئيل "2" 8/24). ونتيجة الإحصاء في إسرائيل ثمانمئة ألف رجل يحملون السلاح، وفي يهوذا خمسمئة ألف رجل!

ويشيخ داود وتصيبه بردية فلا يدفأ. فجاؤوه بفتاة عذراء وجميلة لتدفئه، ولتشرف على خدمته واسمها أبيشاج الشونمية.

ويعلن أدونيا أخو أبشالوم نفسه ملكاً. لكن المعارضة تدفع بأم سليمان (بتشبع زوجة أوريا الحثي المقتول) لتذكر داود بأنه تعهد لسليمان بأن يكون وريثه. (ملوك "1" 13/1).

وتذهب بتشبع (بتشابع) إلى داود زوجها وتقول: " يا سيدي حلفت بالرب إلهك لأمتك قائلاً: إن سليمان ابنك هو يملك من بعدي وهو يجلس على عرشي". (ملوك "1" 17/1).

ويدخل - وبحسب مخطط المعارضة - ناتان (ناثان) النبي، ويسجد أمام داود، ويؤكد ما قالته أم سليمان عن تنصيب أدونيا نفسه ملكاً. فيقوم داود بتأكيد وعده بوراثة سليمان الملك. (ملوك "1" 30/1). وطلب منهم أن يقوم صادوق الكاهن والنبي ناتان بمسح سليمان ملكاً على إسرائيل.(ملوك "1" 34/1).

ويستسلم أدونيا للأمر الواقع، ويصير سليمان هو الملك ويتلقى وصايا أبيه قبل أن يموت.

ثم يموت داود (ملوك "1" 10/2) ، بعد حكم دام أربعين سنة (ملوك "1" 11/2): " ملك بحبرون سبع سنين وبأورشليم ملك ثلاثاً وثلاثين سنة ". وهذه الآية تنقص عن آية سابقة بستة أشهر!

* * *

وقبل الحديث عن شخصية داود، لا بد من التحدث عن موضوعين يمسان حياته الشخصية الخاصة والعامة، وهما: نساؤه، أبشالوم.

* * *

نساء داود:

قلنا: إنه تزوج ميكال بنة شاول، ثم تزوجت فلطي. وقد استعادها داود عندما اشترط على انضمام أبنير إليه بأن يعيد إليه تلك الزوجة.

وذكرنا زوجتين له هما أبيجائيل وأحينوعم. وقد استعادهما من العمالقة بعدما هاجموا صقلاج حيث كان داود يقيم، وأحرقوها بالنار بعد سبي النساء والأطفال. (صموئيل "1" إصحاح 30).

ولأبيجائيل (أبيجايل) حكاية تكشف عن شخصية داود:

فهي امرأة جميلة المنظر وذكية الفهم (صموئيل "1" 2/25)، واسم زوجها نابال. وقد كان غنياً جداً ولكنه بخيل وفظ وسيئ الأعمال.

وصادف أن داود كان قريباً من أملاك نابال، فأرسل غلمانه لجلب طعام من بيت نابال الذي ردّهم خائبين. فسار داود إليه ليقتله ومعه أربعمئة رجل: " فقال داود لأصحابه تقلّدوا كل منكم سيفه". (صموئيل "1" 13/25).

لكن الزوجة الجميلة والحكيمة والذكية، انطلقت إلى داود حاملة على حمارها الخبز والفريكة والعنب والزبيب... طالبة الصفح والغفران لزوجها الغبي!

" وبعد نحو عشرة أيام ضرب الرب نابال فمات". (صموئيل "1" 38/25). وسبب هلاكه لأنه: " مات قلبه داخله وصار كحجر". (صموئيل "1" 37/25).

ومن ثم يتزوجها داود!

والأمر واضح فقد فتن داود بجمالها، فقتل زوجها ليتزوجها وهذا ما يكرره مع أوريا الحثي!

لقد تزوج داود وهو رجل الله كثيرات " سراري وزوجات". (صموئيل "2" 13/5) ، مثل: معكة، حجيت، أبيطال، عجلة... (صموئيل "2" 2/3 وما بعد...).

إلا أن حكايته مع زوجة أوريا الحثي تثير الاشمئزاز:

جاء في (صموئيل "2" 2/11): " وكان عند المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة جداً ".

فسأل عنها فقيل له إنها امرأة أوريا الحثي واسمها بتشابع، فأرسل من يحضرها إليه فلما أتت مارس الجنس معها!!

وكان أن حملت من داود فأخبرت عشيقها " إنني حامل". (صموئيل "2" 5/11). وكان زوجها غائباً في ساحات المعارك التي يخوضها يوآب قائد الجيش.

فأرسل داود إلى يوآب أن يمنح أوريا إجازة. وجاءه أوريا وبعد أن استضافه داود طلب منه أن يذهب إلى بيته ويرتاح من السفر وينام مع زوجته. وذلك ليستر فضيحة حملها وزوجها غائب في الحرب!

لكن أوريا لم يذهب إلى بيته. وفي اليوم التالي عندما علم داود بذلك، اشتد عليه الأمر وأنبّه، فكان تعليل أوريا أن الآخرين في ساحة المعركة (خيام، صحراء، حرب) فلا يمكن أن ينعم بالراحة.

وكرر داود محاولته معه في الليلة التالية ولم يفلح في أمره. فأعاده إلى وحدته العسكرية وطلب من يوآب أن يجعله في مقدمة جيشه " فيضرب ويموت". (صموئيل "2" 15/11).

وتم لداود ما خطط له، فمات أوريا، وخلا له الجو، فتزوج امرأته(11). " فأرسل الربُ ناتانَ إلى داود". (صموئيل "2" 1/12). وضرب له مثلاً يدور حول فعلته النذلة وملخصها أن غنياً يمتلك أملاكاً كثيرة وأغناماً وتضيق عيناه على فقير يمتلك غنمة واحدة!

ثم يؤنبه النبي على لسان الرب: " قد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت زوجته زوجة لك". (صموئيل "2" 9/12).

ثم يعاقبه ربه بإرسال مرض على ابنه الأول من امرأة أوريا، والتي كانت ما تزال زوجة لأوريا. فيصوم داود ويسأل ربه شفاءه. ولكن الولد يموت فيترك داود الصيام. وعندما سأله عبيده عن أمره أجاب: " لما كان الصبي حياً صمت وبكيت لأني قلت من يعلم لعل الرب يرحمني ويحيا الصبي. وأما الآن فقد مات فلماذا أصوم، أفأستطيع أن أرده بعد". (صموئيل "2" 22/12-23).

ثم ذهب إلى زوجته بتشبع وعزاها وضاجعها، فحملت وولدت سليمان!

فهل رجل الرب يسترق النظر إلى النساء ولا يغض الطرف ثم يراها عارية تستحم ولا يستحي ويبتعد، بل يدفعه شبقه إلى النظر إليها والتمتع بجمال جسدها العاري ويشتهيها، ثم يأتي بها ليضاجعها وتصير عشيقته. ولما حملت احتال على زوجها لينام معها ليستر حملها. ولما رفض زوجها ذلك أرسله إلى الموت، ليستفرد بها ويشبع نهمه الجنسي ونرجسيته!؟

النساء الكثيرات لم تشبعه حتى زوجات سيده كما ورد: " وأعطيتك بيت سيدك، وأزواج سيدك دفعتهن إلى حجرك". (صموئيل "2" 8/12).

وما العقاب الذي ناله ؟

1- موت ابن الزنى.

2- " إني مثير عليك الشر من بيتك وسآخذ أزواجك وأدفعهن إلى غيرك فيدخل على أزواجك في عين هذه الشمس. أنت فعلت ذلك سراً وأنا أفعل هذا الأمر على عيون جميع إسرائيل وأمام الشمس". (صموئيل "2" 12/11-12). وهذا ما سنراه في حكاية أبشالوم.

إن التركيز على قومية أوريا الحثي له دلالة؛ فما فعله داود إنما هو مع شخص غير يهودي. وفي الشريعة تمايز دائم في التعامل بين اليهود وبين غير اليهود، كقضايا الرق والعبودية والربا والزنى...· وقد مر معنا كلام الحاخام تام: " إن الزنا بغير اليهود ذكوراً كانوا أو إناثاً لا عقاب عليه، لأن الأجانب من نسل الحيوانات ".

ولكن ألا عقاب على إتيان الحيوانات في الشريعة اليهودية ؟!

فذاك التركيز على حثية أوريا لإسقاط الحق الإنساني عنه، وفي الوقت نفسه توجيه لأتباع الديانة أن اعملوا ما شئتم فكله مباح ويهوه غفار لكم ولا قيمة للشعوب الأخرى: قتل، تدمير، نهب، انتهاك أعراض... فالمهم هو الارتباط بأهداف يهوه في أرض كنعان!!

ويذكر ديورانت حكاية داود وأوريا فيقول: " ويأخذ امرأة أورية الحثي بين نسائه في غير حياء، ويرسل أورية إلى الصف الأول في ميدان القتال ليتخلص منه". (12)

* * *

أبشالوم بن داود:

ترد في (صموئيل "2" 1/13 وما بعد): " وكان لأبشالوم بن داود أخت جميلة اسمها تامار".

وأحب أمنون بن داود البكر، أخته تامار (ثامار). وقد تألم من لواعج حبه واشتهائه الجنسي لأنها عذراء: " فكان يعسر عليه أن يصنع شيئاً ". ولو لم تكن كذلك لهان الأمر فالبكارة فضيحة! ويرشده صاحبه إلى حيلة فيأخذ أمنون بها: حيث يتمارض فيطلب من أبيه داود أن يأمر أخته ثامار أن تصنع له طعاماً يحبه.

وتأتيه أخته بالطعام إلى مخدع نومه، فيغتصبها فحاولت أن تمانع قائلة: " والآن فكلم الملك فإنه لا يمنعني منك ". (صموئيل "2" 13/13).

وهذا يعني قبولها ممارسة الجنس مع أخيها، ولكنها طلبت منه عرض الأمر على الأب داود، وهو لن يمانع لأنها تعلم تماماً أن أباها يقدر الحب والجنس وسيوافق على علاقتهما!

ولكن العاشق رفض وتابع اغتصابه لها. ثم طردها بعد أن أشبع نهمه الجنسي منها. فقالت له: " هل من سبب لطردك لي، إن هذا الشر هو أعظم مما فعلته بي قبلاً ". (صموئيل "2" 16/13).

فالقضية لم تعد قضية جنس فقد تقبلت الأمر، ولكن كرامتها جُرحت لأنه طردها عقب تحقيق شهواته!

ووصل الخبر إلى داود فاغتاظ جداً، ولكنه لم يشأ أن يزعج أمنون لأنه بكره وكان يحبه!!

إلا أن أبشالوم انتقم من أخيه أمنون بعد سنتين: فقد أقام وليمة ودعاه إليها وأمر غلمانه بقتله عندما يسكر!

ثم يفر أبشالوم من وجه أبيه لثلاث سنوات حتى عفا عنه نتيجة حيلة من يوآب، حيث أرسل امرأة إلى داود أقنعته بأنه من الخطأ إذا خسر ولداً أن يخسر الآخر!

وعفو داود شيء وقبوله مقابلة ابنه شيء آخر، فقد رفض أن يقابله لمدة سنتين (صموئيل "2" 28/14).

ثم بعد هذه السنوات الخمس، قابل أباه وسجد أمامه، فصالحه داود وقبله.

وبقي أبشالوم حاقداً على أبيه لموقفه السلبي منه ومن ثامار أخته. فقد أحب أخته وقد سمى ابنته ثامار على اسم عمتها والتي كانت جميلة مثلها.

ويشيع أبشالوم خبراً بأنه أعلن نفسه ملكاً في حبرون، فيسمع داود ذلك فيهرب خوفاً منه: " فقال داود لجميع عبيده الذين معه في أورشليم قوموا بنا نهرب لأنه لا يكون لنا مفر من وجه أبشالوم. بادروا بالمسير لئلا يسرع ويدركنا وينزل بنا الشر ويضرب المدينة بحد السيف". (صموئيل "2" 14/15).

ويعبر نهر الأردن إلى شرقيه!! ودخل أبشالوم مع أنصاره إلى أورشليم متحدياً، وأكثر من هذا: " ضربت / نصبت/ لأبشالوم خيمة على السطح. ودخل أبشالوم على سراري أبيه أمام جميع إسرائيل". (صموئيل "2" 22/16).

وفيما بعد يخوض معركة ضد أبيه وأعوانه، فيموت في القتال عشرون ألفاً غير الذين ماتوا في الوعر: " وزاد الذين أكلهم الوعر من الشعب على الذين أكلهم السيف في ذلك اليوم". (صموئيل "2" 8/18).

وذات يوم كان أبشالوم راكباً بغلة، فمرت تحت أغصان بطم، فعلق أبشالوم بين أغصانها بينما تابعت البغلة سيرها. فشاهده رجل من جنود يؤاب (يوآب) معلقاً فأخبر يوآب فأسرع إليه " وأخذ ثلاث حراب فأنشبها في قلب أبشالوم". (صموئيل "2" 14/18).

وأحاط بالشجرة عشرة من غلمانه، وأخذوا يضربون أبشالوم حتى مات. (13)

ويصل خبر موته إلى داود فيصرخ: " يا بنيّ أبشالوم يا بنيّ يا بنيّ أبشالوم، يا ليتني مت عوضاً عنك يا أبشالوم ابني يا بنيّ ". (صموئيل "2" 33/18).

وظل حزيناً يبكي عليه. فدخل عليه قائد جيشه يوآب وأنّبه قائلاً: لقد أخزيت وجوه من معك، ولو متنا جميعاً لما اهتممت بنا، بينما تهتم فقط لموت ابنك. ويهدده بأن يخرج إلى عبيده وإلا: " إن لم تخرج لا يبيت أحد معك هذه الليلة ويكون ذلك أشر عليك من كل شر أصابك منذ صباك إلى الآن". (صموئيل "2" 7/19). وخشي داود من التهديد، فخرج

وجلس أمام باب بيته (أو خيمته)· ولقد قيل عنه: " قد هرب من الأرض لأجل أبشالوم". (صموئيل "2" 9/19). مما جعل أتباعه يستخفون به.

ويعبر داود نهر الأردن ليمضي إلى أورشليم. وحبس السراري العشرة اللواتي ضاجعهن ابنه أبشالوم ولم يعد يدخل عليهن وبقين " محبوسات إلى يوم موتهن في عيشة العزوبة ". (صموئيل "2" 3/20).

في حكاية أبشالوم نكتشف أبعاداً جديدة في حياة أولئك الرعاة الهمج والذين تعدهم الأسفار أبناء الله!

فالأخ يضاجع أخته. والأب لا يبالي فيقوم أخوها من أمها بقتل أخيه من أم ثانية. ويحقد على أبيه لسلبيته تجاه الموضوع. فيدخل أورشليم متحدياً ليضاجع سراري أبيه أمام الناس إمعاناً في إذلال أبيه. ثم يخوض حرباً ضد أبيه لم تحسم نتائجها إلا بعد موت كاريكاتوريّ !! وفرار الابن من وجه أبيه يذكرنا بفرار داود نفسه من شاول. ثم يستغرب القارئ من موقف داود تجاه أمنون!

وعلى الرغم من مضاجعة أبشالوم لسراري أبيه، لم يستطع أن يستفز غيرته وكرامته ومكانته كملك!

ولكن على ما يبدو كانت نخوته ميتة، وهو نفسه له سوابق فقد قتل زوجين ليستأثر بزوجتيهما!

وتظاهره بالجنون ورقصه شبه العاري والمبتذل والذي جعل زوجته ميكال تحتقره... كل هذا يدل على استهانته بما يسمى الشرف ولا سيما إن تعلق بالجنس، وأيضاً افتقاره إلى الهيبة والوقار كزعيم عليه أن يحافظ على مكانته.

وأبشالوم الذي غار على شرف أخته، لِمَ لَمْ يغر على شرف أبيه ؟!

ليست القضية متعلقة بالشرف أو الكرامة، إنها قضية تنافس وتناحر ضمن الأسرة البدوية الواحدة· فأمنون هو البكر وله الزعامة الوراثية كشرع عشائري. فأخرجه الكتبة من الشرعية هو وأبشالوم ليمهدوا الطريق لاستلام سليمان الأصغر!

* * *

شخصية داود:

لداود شخصية مميزة عن غيره من شخصيات العهد القديم، فهو رجل حرب وعصابات، ورجل عنف ووحشية، ورجل جنس وشبق عدواني، ورجل خوف وجبن، ورجل وقار وخلاعة...

وشراسته ووحشيته تتجلى في مواقف متعددة منها قتاله مع ربّة (قربة) مدينة مياه بني عمون فقد: " أخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج من حديد وفؤوس من حديد. وطرح منهم في أتّون الآجر. وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون". (صموئيل "2" 31/12).

فتلك الوحشية تدل على مجرم محترف وسادي إلى أقصى الحدود. وبما أن يهوه قد اختاره، فهو أي يهوه متوحش وسادي مثله!

فروح الرب التي تخلت عن شاول لهفوة عفو ارتكبها تدل على خلوّه من المشاعر والأحاسيس، ميت الضمير، لذلك وجد طلبته في داود!

أو لنكن أكثر تحديداً فهذا ما يريده عزرا والكتبة. فداود استمرار لموسى ويشوع. وذاك الثلاثي المبدع في الإجرام والإرهاب والسادية هو النموذج والمثل الأعلى لمجرمي اليهود عبر التاريخ! وحكاية داود مع نابال وأوريا تكشف الأنانية والنرجسية واللتين تعبران عن الدناءة والخسة والجشع.

فحب الذات والنرجسية، يدفع إلى العدوانية لامتلاك ما تريده الذات الجشعة والشهوانية. وهذا يعني إلغاء /حذف/ قتل، الآخر من الوجود، وخاصة إن كان عائقاً أمام الملذات والشهوات!

إن الاستحواذ الشره على كل ما يخطر في هواه، جعله يعيش في توتر وقلق. ومن هنا لم تكن حياته مستقرة فقد ألف الهروب الدائم ولازم الجبال والمغاور والغابات، ليحقق شيئاً من التوازن الذي اختل في روحه وكيانه وسيكولوجيته.

ومع أبشالوم نستغرب أمر ذاك الملك الجبار الذي مد مملكته إلى دمشق!!

أين قوته القاهرة وهيبته وعنجهيته، لقد أدى به الخوف إلى عبور نهر الأردن وترك أرض الميعاد كلها!!

وهذا يعني زيف ادعاء القوة والسيطرة والهيمنة على الأرض التي حددتها نصوص السفر.

فما هو إلا قائد عشيرة على رقعة صغيرة بقيت طوال وجودها في حرب مستمرة مع الجميع، والذين رفضوا قبول هذا الجسم الغريب الاستعماري. ولو كان النص صادقاً في أرقامه الخيالية عن أعداد الموتى لما بقي أحد على قيد الحياة !

وحتى قيادته وزعامته مشكوك بأمرهما، فقد انصاع ذليلاً أمام قائد جنده يوآب. ووقف ذليلاً أمام شمعي بن جيرا الذي لعنه ورجمه بالحجارة ومن معه وقال له: " اخرج اخرج يا رجل الدماء ورجل بليعال. قد ردّ الرب عليك كل دماء بيت شاول الذي ملكت في مكانه وقد دفع الرب ملكك إلى يد أبشالوم ابنك وها أنت واقع في شرّك لأنك رجل دماء". (صموئيل "2" 16/7-8).

وقد احتج مساعده أبشاي وقال لداود: " كيف يلعن هذا الكلب الميت سيدي الملك، دعني أعبر إليه فأقطع رأسه". (صموئيل "2" 16/9).

ولكن داود منعه وقبل المهانة والذل من أحد رعيته، لجبنه وضعفه وموت الحمية فيه!

إنها المبالغات والتهويل، إنه الزيف والدجل لرفع زعيم قبيلة بدوية همجية إلى مصافي الملوك!

أين الجيش الذي كعدد حبات الرمل ويقف خائفاً من تحدي جليات ولم يتجرأ أحد على منازلته، ثم يتحداه داود الخليع القلب بالمقلاع ؟ أين مآسي الحروب وما تخلفه من موتى وآلام، وجروح وبكاء وأحقاد وثارات...؟!

إن خيال الكتبة الجامح أمام التناقضات والمبالغات، جعلنا نقرأ أساطير مضحكة لأبطال أرادوهم نماذج خلاّقة، وإذ بهم يمثلون أدواراً ساذجة وصبيانية، ليتمتع بها الأطفال الصغار!

وما ذاك الكذب إلا تعويض عن الإخفاق والضعف والدونية. فتلك الحروب صنعها اللا شعور في أحلام اليقظة. وهنا لا حدود للخيال وهو يخلق التوازن بين الدونية وما تحلم به!

إن زعيم العشيرة الذي تمكن من إقامة مملكة لها امتدادها كما يدعي الكتبة، ليست سوى حلم المستعمر وأمانيه التي لم تتحقق. حتى أن بعض المتعصبين لقيام مملكة داود يقولون إنها لم تتعد حدود الضفة الغربية حالياً.

والمضحك أن الحركة الصهيونية المنادية بأرض الميعاد لم تقم كيانها على الأرض التي تدعي بأنها كانت مملكة داود وسليمان!

فالسامرة ويهوذا وبحسب ادعاء النص كانتا في الضفة الغربية.

وعلى كل لم تكن هناك مملكة والسفر كاذب، والمؤرخون الذين يقولون ذلك كاذبون، لأنهم يستندون إلى الأسفار ويكررون كالببغاوات ما تقوله. ولم يستندوا إلى الحقائق التاريخية من مستندات ووثائق وآثار وحفريات...

يتحدث د. معاوية إبراهيم عن تلك الروايات فيقول: " هذه الروايات غير مدعومة إطلاقاً بمصادر الممالك المعادية أو غير المعادية، كما لا تعطي المخلفات الأثرية في جميع مواقع العصر الحديدي أية براهين على صحة هذه الروايات رغم كثرة المواقع التي تم التنقيب فيها ".

ويقول أيضاً: " وما زالت هذه الروايات والحكايات الأسطورية غير مدعومة بوثائق تاريخية ".(14)

ويقول فراس السواح: " أما من الناحية التاريخية، فلا يمكن التثبت من قيام المملكة الموحدة، ولا من وجود داود وسليمان، بسبب عدم تقاطع الأخبار التوراتية هنا مع أي نص تاريخي قديم"... " أما عن توسع المملكة الموحدة وتكوينها لإمبراطورية مترامية الأرجاء فليس إلا حبكة ملحمية صرفة، لا تتقاطع مع أية معلومة تاريخية أكيدة ".(15)

* * *

إن العهد القديم يدعي قيام مملكة داود وسليمان في القرن العاشر قبل الميلاد. ويقول المؤرخون اللاهوتيون استتب أمر المملكة في عهد داود سنة 980 ق.م، وإنها استمرت 58 أو 70 أو 72 سنة...! ثم انقسمت بعد سليمان إلى مملكتين:

1- الشمال (السامرة).

2- الجنوب (يهوذا).

أو إسرائيل ويهوذا.

ولكن كل ذلك من بنات أفكار الكتبة؛ فالحروب الكثيرة والمتكررة حتى بعد ادعاءات الإبادات الجماعية، يدل على أن شعب كنعان لم يستسلم لداود ولا لغيره، وكان يقاوم الغزاة ويقاتلهم ويدافع عن أرضه. وهذا يعني أن المستعمرين لم ينعموا بالهدوء ولا بالراحة والاستقرار. ولم يستطيعوا أن يفرضوا وجودهم وهيمنتهم أبداً. فكيف تكون سلطة ملك على قبيلة سلطة مطلقة على أراض شاسعة وشعوب متعددة، وهم لم يفرضوا هيمنتهم ووجودهم ؟!

* * *

إن داود لم يكن شخصية وقورة وحكيمة، تملأ كرسي العرش المزيف، فهو لم يزد على زعيم عشيرة. ولم يكن سلوكه وأخلاقه يعكسان المطلق وهو أيضاً لم يكن يرتبط بالمطلق. وما ورد خلاف ذلك زيف وكذب وخداع.

فالمؤمنون بداود يجدون له الأعذار في كل شيء لأن العقلية المتخلفة سمات منطقها التبرير!

فهم يقولون لقد غفر الرب لداود لأنه تاب عن ذنبه وعاقبه بإماتة ابنه الأول من بتشبع، ثم بما فعله أبشالوم به.

كما أن بعض السذج يرون انهيار المملكة فيما بعد كجزء من العقاب!

ولكن السؤال الموجه لهؤلاء اللاهوتيين هو: أين تطبيق الوصايا والشريعة المحرمة للزنى والقتل ؟! بل أين القصاص، أم هو لا يطبق على الزعماء والسادة إنما على العوام من الشعب!؟

وقد جاء في معجم اللاهوت الكتابي: " يجب أن لا تكون سمعة داود الدينية المجيدة سبباً في أن نتغاضى عن النظر إلى شخصيته الإنسانية فقد كانت له سيئاته وحسناته. وكان جندياً فظاً، ومخادعاً... وكانت صفاته الأدبية لا تزال تحتاج إلى تهذيب. ففي أثناء إقامته مع الفلسطينيين تصرف كلص محنك... بل كان مخادعاً جداً...".(16)

إذاً كيف تكون له السمعة الدينية المجيدة وهو الفظ والمخادع واللص المحنك ؟!

وكيف يتقبلون كلمات من يحتاج إلى تهذيب ؟!

يقول سبينوزا: " إنه لا يمكن الحكم على أحد بأنه مؤمن أو غير مؤمن إلا بأعماله، فإذا كانت أفعاله حسنة، مع اختلافه في عقائده عن بقية المؤمنين، فهو مؤمن، وإذا كانت أفعاله سيئة واتفقت عقائده لفظياً مع الآخرين، فهو غير مؤمن".(17)

فأين داود وشخصيات العهد القديم كلها من تعريف سبينوزا للإيمان ؟!

إن الممارسة هي الحكم الوحيد على الشخصيات كلها. ومن هنا نستنتج أن سلوك داود والشخصيات السابقة واللاحقة، يثبت انحطاطهم ولا أخلاقيتهم وعدم ارتباطهم بالمطلق الذي هو الحق والخير والعدل والقيم الأخلاقية.

كما أن المدافعين عن داود يدعون بأن هربه من أبشالوم ابنه، ليس جبناً، بل هو حرص الأب على عدم قتل ابنه. فهي نوازع الأبوة ! والنص يقول: ارتعد داود وخاف وهرب من سيف أبشالوم: " قوموا بنا نهرب لأنه لا يكون لنا مفر من وجه أبشالوم. بادروا بالمسير لئلا يسرع ويدركنا وينزل بنا الشر ويضرب المدينة بحد السيف". (صموئيل "2" 14/15).

وهل من يرتكب المجازر والعار، يمتلك المشاعر والأحاسيس ؟! لقد ربى أولاده على القتل والكراهية وفعل الآثام. أوليس هو الأب، والأب في النظام العشائري هو القدوة والمثل الأعلى ؟! لقد قتل أبشالوم أخاه، وسليمان قتل أخاه أدونيا... فمن لم يزرع مشاعر المحبة والأخوة بين الإخوة، فلن يمتلك مشاعر الأبوة ؟!

وتناقضات داود تجاه أبشالوم هي مرض نفسي. يقول خالد قشطيني: " والواقع أن حياة شخصيات العهد القديم تطالعنا باستمرار بأعراض الطيرة والهلع والقلق والهوس والتوهمات السمعية والبصرية والأحلام والكوابيس والتصرفات الشاذة والانتقال المفاجئ بين شعور بعظمة وأهمية، وشعور بتفاهة وحقارة..." إلى أن يقول: " كل ذلك من الأعراض العيادية المألوفة في الكآبة ".(18)

وما يقوله الباحث عن تلك الظواهر هي ظواهر فردية، لكنه يعممها لتصير مرضاً عاماً يمس الشخصيات كلها. وهذا بشكل ما يؤدي إلى الشخصية الكلية وهو مفهوم خاطئ ولا علمي. فلا وجود للشخصية الكلية، ولا وجود لمرض نفساني جماعي، فالأمراض النفسية فردية ونحن نقبل بتلك الظواهر كتحليل نسقطه على داود!

* * *

إن ما يُنسب إلى داود من كلام رقيق وعذب، لا قيمة له لأنه مجرد ثرثرة فارغة!

فالإنسان يقاس بممارسته وأفعاله لا بأقواله. فهناك نصوص مسقطة على داود ولكنها لا تعبر عن حقيقته إنما هي تتناقض مع سيرته.

جاء في (صموئيل "2" 22/22): " لأني حفظت طرق الرب ولم أعص إلهي".(19)

وفي (صموئيل "2" 24/22): " صرت لديه كاملاً وتحفظت من إثمي". و (صموئيل "2" 29/22): " لأنك أنت سراجي يا رب والرب ينير ظلمتي ".

ومن المزامير (المزمور 8/10): " لأن الرب عادل ويحب العدل ووجهه ينظر إلى الاستقامة ".

و (مزمور 11/7): " الله قاض عادل".

و (مزمور 8/9): " وهو يقضي للمسكونة بالعدل. يدين الشعوب بالاستقامة ".

وأيضاً (مزمور 10/111): " رأس الحكمة مخافة الله".(20)

وأخيراً (ملوك "1" 5/15): " لأن داود عمل ما هو مستقيم في عيني الرب. ولم يحد عن شيء مما أوصاه به كل أيام حياته إلا في قضية أوريا الحثي".

فهل تلك الآيات والمزامير تعكس الحقيقة والصدق ؟!

إن سلوك داود المشين يتنافى مع الكمال. وكذلك مواقف يهوه فهي لا تتسم بالعدل.

فقد كان داود وثنياً، وربه ما هو إلا وثن صنعه الكتبة كما يريدونه. وما العدل المقصود في الآيات إلا بالمفهوم اليهودي العنصري.

وما المديح المستمر لداود ولا سيما عند الأنبياء الصغار كرجل الله، عبده المطيع، البار... إلا أحد أمرين:

1- كذب ودجل واستخفاف بعقل المؤمن.(21)

2- ما فعله داود يعكس حقيقة الرب اليهودي اللا أخلاقي والذي لا يمت بأية صلة إلى الإله الحقيقي المتسم بالعدل والكمال المطلقين.

وما رب اليهود إلا وثن أُسقطت عليه مفاهيم الكتبة وعلى رأسهم عزرا.

وهذا يعني أن كلمات داود الحلوة زيف وللاستهلاك المحلي وللتسلية والغناء "مرنم إسرائيل الحلو" !

فأين العدل مع نابال وأوريا، وابنته، وأبشالوم، وأين هو مع الشعوب المسحوقة بالنوارج والمقطعة بالمناشير...؟!

وسواء أكانت هذه المزامير له أم أُسقطت عليه فهي لن تغير من حقيقة شخصيته!

* * *

وداود كمجرم كان يعيش في قلق ورعب وخوف، ففي (المزمور 9/9): " ويكون الرب ملجأ للمنسحق، ملجأ في أزمنة الضيق". وفي (مزمور 22/34): " الرب فادي نفوس عبيده وكل من اتكل عليه لا يعاقب".

وذاك الكلام يعكس خوفه، فيجد في يهوه الملجأ لحمايته ورعايته ولا سيما في وقت الضيق.

وكأنما عزرا يشرح أسباب نشأة الدين أو الارتباط بيهوه: المنسحق والخائف يحتاج إلى ملجأ ما ليجد فيه الاطمئنان والراحة. والملجأ هو المعادل وخالق التوازن.

والارتباط بذاك المعادل يحرر الضمير من العقاب والشعور بالذنب، لأن الارتباط وحده كاف لغسل الآثام كلها.
ولكن داود أمام المحنة الحقيقية والضيق والمصائب والشعور بالخطر الحقيقي يصرخ: " إلهي، إلهي لماذا تركتني". (مزمور 1/22). فهو عند الضربات وأمام الواقع والحقيقة يكتشف خداعه لذاته. والوهم الذي عاشه؛ فقد توهم أن ربه سيساعده ويقف إلى جانبه وهذا ليمنح نفسه شيئاً من الأمن والطمأنينة، بل وقد يصل به الأمر إلى اليقين بأن يهوه معه لأنه صورة عن انطباعاته عنه، وهو نفسه عندما يكلم ذاته كمنولوج!!
وأمام المصائب المتلاحقة ينتبه إلى وهمه وخداعه، فيفر من وجه شاول. بل ويلجأ إلى من أشهر السيف في وجههم ليؤمنوا له الحماية. ثم وهو ملك على المملكة المزعومة ورغم الصولة، فر كالأرنب عابراً نهر الأردن تاركاً خلفه المملكة والعرش!!
وترد آية تكشف زيف العلاقة بالمطلق فقد جاء في (صموئيل "2" 1/23): " هذه كلمات داود الأخيرة وحي داود بن يسّى ووحي الرجل القائم في العلا مسيح إله يعقوب ومرنم إسرائيل الحلو".
فأين الحدود الفاصلة بين داود ويهوه، وهل هما شخص واحد كما نرى ؟!
والآية في (صموئيل "2" 2/23) تحسم الأمر: " روح الرب تكلم فيّ، وعلى لساني كلمته ".
وإذا ما نظرنا إلى وصف داود ليهوه، نجد أنه يصف الشيطان نفسه، ففي نشيد له يصف فيه ربه: " صعد دخان من أنفه ونار من فمه آكلة، جمر متقد ". (صموئيل "2" 9/22). " من الشعاع قدامه اشتعلت جمر نار". (صموئيل "2" 13/22). " ظهرت أغوار البحر وانكشفت أسس المسكونة من زجر الرب من هبوب ريح أنفه ". (صموئيل "2" 16/22).
وربه ذاك " ركب على كروب / ملاك/ وطار. ورُئي على أجنحة الريح". (صموئيل "2" 11/22).
أي رب هذا ؟! إننا أمام تنين أسطوري لا أكثر، أو قل هو الشيطان ولا تبالي!

* * *

إذاً يجب أن نفصل بين الأقوال والحقيقة وبين جمالية بعض المزامير أو الترانيم أو التراتيل والصلوات ولا سيما في المزامير الأخيرة، وبين حقيقة داود على أرض واقع الأسفار.
فتلك الكلمات لا تعكس نفسية داود وروحه وأخلاقه. والغناء شيء والالتزام بمضمون ما يغنيه شيء آخر!
وهذا ليس خاصاً بداود، بل هو سمة عامة تمس كل المغنين والشعراء وعبر العصور كلها.
وداود كما قدمه السفر كان يحب الغناء والموسيقى. وبعيداً عن زيف الكتبة، فإن المزامير ليست لداود فهي أناشيد وقصائد فينيقية ومصرية. كما أن بعضها ليهود متأخرين كالمزمور الذي يتحدث عن بابل: "على أنهار بابل هناك جلسنا فبكينا عندما تذكرنا صهيون". (مزمور 1/136).
وهناك إشارات في المزامير إلى أسماء شعراء نسب إليهم بعضها كالمزامير من 73- 83 والمنسوبة إلى آساف.
ويقول ديورانت: " وأكبر الظن أن المزامير ليست كلها من وضع داود وحده بل من وضع طائفة من الشعراء كتبوها بعد الأسر اليهودي بزمن طويل، ويغلب أن يكون ذلك في القرن الثالث قبل المسيح".(22)

وهذا ما تؤكده مقدمة سفر المزامير في الطبعة الكاثوليكية: " ثمة ما يدعو إلى التسليم بأن المجموعة قد اكتملت أو كادت خلال القرن الثالث".(23)

وعلى فرضية أن له بعضها - هذا إن كان له وجود حقيقي - فهذا لا يعني شيئاً كما قلنا، لأن الإنسان يقاس بممارسته لا بمعسول كلامه!

وما قاله متروك للأدب والنقد الأدبي، ونحن هنا نحلل شخصية الراعي الذي صار ملكاً، فلم نجد في شخصيته إلا ما يثير الاشمئزاز والغثيان!

وما الهدف الذي أراده الكتبة سوى رسم مملكة تحققت في زمن ما في التاريخ الخيالي الذي خطّوه.

وفي الوقت نفسه يخاطبون شيعتهم وأتباعهم أن يفعلوا ما يشاؤون من الشرور والآثام فيهوه سيغفر لهم، ولن يتخلى عنهم ولكن بشرط أن يستعمروا أرض كنعان. فيهوه هو الأرض وجوهر الديانة هو الأرض!

والقادة القدوة والمثل الأعلى الكاريزما رغم جرائمهم وانحطاطهم وسفالاتهم بقوا أحباء يهوه الكاملين والبارين والعادلين، لأنهم حملوا مشروع استعمار الأرض وعملوا على تحقيقه!

وأنتم سيروا على درب قادتكم بالتمسك بالمشروع فتبقون شعب يهوه المدلل والمميز!

.وهذه الرؤية الاستعمارية هي الحلقة المركزية في كل ما كتبه عزرا وغيره

* * *

3- سليمان

ذكرنا سابقاً كيف مُسح ملكاً في زمن شيخوخة أبيه. ويذكر المؤرخون الدائرون في فلك العهد القديم أنه حكم ما بين 961 -922 ق.م، حيث توفي 922 أو 925 ق.م. ولم تدم فترة حكمة هو وحكم أبيه أكثر من اثنتين وسبعين سنة.

وأم سليمان حثية وهي زوجة أوريا الحثي. كما أن داود نفسه كانت أمه موآبية. وعن ذلك يقول محمد عزة دروزة: " وهكذا يكون داود الذي لمع نجمه ثم نجم ابنه سليمان أشد لمعان. والذي تسلسل ملك يهوذا في نسله ليس إسرائيلياً خالصاً ".(24)

فليس داود إسرائيلياً خالصاً ولا سليمان، بل ولا نجد دم العشيرة النقي الذي يدعيه الكتبة واللاهوتيون العنصريون.

* * *

بدأ سليمان عهده بتصفية المعارضة؛ فقد قتل أخاه أدونيا المنافس له على السلطة مع أن أدونيا أعلن الولاء له (ملوك "1" 53/1).

وقد جاء ذلك عقب طلب أدونيا من أم سليمان أن تتوسط له عند ابنها سليمان الملك ليسمح له بالزواج من أبيشاج الشونمية، الفتاة التي كانت تدفئ داود في شيخوخته كما مر!

وكان جواب سليمان لأمه: " ما بالك تطلبين لأدونيا أبيشاج الشونمية اطلبي له الملك لأنه أخي الأكبر مني". (ملوك "1" 22/2).

فالقضية ليست قضية زواج من عشيقة الأب أو سريته أو مدفأته، إنما هي خشية سليمان من منافسة أخيه ولا سيما وهو الأكبر!

لذلك أعطى أوامره إلى قائد جيشه بنايا (بناياه) لقتل أدونيا ثم لقتل يوآب قائد جيش أبيه (ملوك "1" 34/2).

فسليمان بدأ حكمه بالقضاء على كل من يشعر بخطره على سلطته حتى ثبت كرسي عرشه: " وكان سليمان متسلطاً على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر".(ملوك "1" 21/4).(25)

ويصاهر فرعون مصر (ملوك "1" 1/3) ليضمن حدوده الجنوبية. ثم شرع في بناء بيت للرب وبعد ذلك بنى قصراً عظيماً لنفسه وزوجاته!

لقد استعان بملك صور حيرام والذي أرسل له من لبنان الأخشاب ومواد البناء والعمال والمهندسين. وتم بناء المعبد في سبع سنين (ملوك "1" 38/6). أما قصره فقد استغرق تشييده ثلاث عشرة سنة (ملوك "1" 1/7). ويحدثنا الإصحاح بالتفاصيل المملة والسخيفة عن أبهة القصر.

وصنع لنفسه عرشاً من العاج والذهب (ملوك "1" 18/10 وما بعد). وبعد أن انتهى من بناء المعبد، نقل إليه تابوت الرب (الصندوق). (ملوك "1" 6/8). وفي التابوت لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى فيه!! ومن ثم خاطب ربه: " إذا انكسر شعبك إسرائيل أمام العدو بسبب خطيئتهم إليك ثم تابوا إليك واعترفوا باسمك وصلّوا وتضرعوا إليك في هذا

البيت. فاسمع أنت من السماء واغفر خطيئة شعبك إسرائيل وردهم إلى الأرض التي أعطيتها لآبائهم". (ملوك "1" 33/8- 34).

" لتكن عيناك مفتوحتين نحو تضرع عبدك وتضرع شعبك إسرائيل وأصغ إليهم في كل ما يدعونك فيه". (ملوك "1" 52/8). " لأنك أنت أفرزتهم لك ميراثاً من بين جميع شعوب الأرض". (ملوك "1" 53/8).

والخطاب في تلك الآيات إنما هو من الأعلى إلى الأدنى: اسمع... لتكن عيناك مفتوحتين... أصغ...

وعلى الرب أن ينفذ، لأنه هو الذي اختار ذاك الشعب، أي عليه أن يتحمل نتيجة اختياره!

ونلاحظ ثالوث عزرا الوثنية والعنصرية في الشعب المميز والمختار والأرض المستعمرة!

فالمحور هو الأرض التي أعطاها الرب لآبائهم وهم الورثة. والتوبة والمغفرة والعفو يجب أن يؤدوا إلى الأرض، وإلا لا قيمة لذلك!

وهنا نلاحظ أن القضية ليست بناء علاقة بين الأنا والمطلق، أو الدعوة إلى بناء الإنسان الكامل، أو استهداف الحق والخير والعدل، بل هي علاقة المنفعة: الأرض مقابل الارتباط بيهوه!!

وبالمقابل من جهة يهوه: لا ارتباط لشعبه به - لا للأرض! فيهوه والأرض وجهان لعملة واحدة. وما يهوه إلا شكل، أما الأرض فهي الحقيقة الملموسة والمدركة، وهي الغاية!

* * *

واحتفل سليمان والإسرائيليون بعيد تدشين المعبد، وامتد العيد من مدخل حماة إلى وادي مصر، ولمدة سبعة أيام ثم زيدت سبعة أيام أخرى (ملوك "1" 65/8).

وأعطى سليمانُ حيرامَ ملك صور، عشرين مدينة من أرض الجليل مقابل خدماته التي قدمها. ويدعي السفر بأن شعوب المنطقة صارت عبيداً له. أما بنو إسرائيل فقد تفرغوا لشؤون الحرب (ملوك "1" 22/9).

وبتلك الصورة المطروحة صار من البديهي " تعاظم الملك سليمان على كل ملوك الأرض في الغنى والحكمة". (ملوك "1" 23/10).

حتى أن ملكة سبأ التي سمعت بأخباره، جاءته لتمتحنه ومعها الهدايا الثمينة. وقد ذهلت من عجائب قصره. كما أعجبت بحكمته ولا سيما بعد أن أجابها عن أحاجيها (ملوك "1" 3/10-4).(26)

وبعد أن استقرت أحواله أحبّ " نساء غريبات كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات". (ملوك "1" 1/11).

ونتيجة حبه للنساء وللجنس " كانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري، فأزاغت نساؤه قلبه". (ملوك "1" 3/11).

فقد نسي يهوه ورماه خلف ظهره: " وكان في زمن شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه". (ملوك "1" 4/11). و " تبع سليمان عشتروت /عشتاروت/ إلاهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين". (ملوك "1" 5/11).

وأكثر من ذلك بنى نصباً للأوثان: " وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن". (ملوك "1" 8/11).

وهكذا: "عمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه". (ملوك "1" 6/11).

ولذلك "غضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين". (ملوك "1" 9/11).

وقد بقيت أوثان عشتروت منتصبة حتى زمن يوشيا الذي حطمها. (ملوك "2" 13/23).

مسكين يهوه فهو لا يعلم بالغيب، فقد تحمس لسليمان في بداية عهده وقال له: " ها أنذا قد أعطيتك قلباً حكيماً فهماً حتى إنه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك". (ملوك "1" 12/3).

ولكنه عندما علم حقيقة سليمان من خلال ممارسته أدرك وثنيته " أملن قلبه وراء آلهة أخرى".

وأدرك بأنه زير نساء " ألف امرأة·". لذلك غضب عليه وتراءى له معلناً يأسه منه واتخذ قراره بأن يمزق المملكة ولكن ليس في عهد سليمان إكراماً لأبيه داود المطيع والكامل!!

" فسأشق / أمزق/ المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك. إلا أنني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك. بل من يد ابنك أمزقها". (ملوك "1" 11/ 11-12).

ومهد للأمر بعدوين الأول واسمه هدد(27)، والثاني واسمه رزون(28). ومات سليمان بعد حكم استمر أربعين سنة (ملوك "1" 42/11).(29)

ومن بعده تمزقت المملكة إلى مملكة الشمال إسرائيل وعاصمتها السامرة. ومملكة الجنوب يهوذا وعاصمتها أورشليم.

* * *

لقد تحدث السفر عن حكمة سليمان والتي فاقت "حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر". (ملوك "1" 30/4).

فهل كان سليمان حكيماً حقاً وهو القاتل لأخيه واللاهث وراء النساء والعابد لأوثان الآخرين ؟!

وهل حكمه انعكاس لحياته أم مجرد ثرثرة كثرثرة مزامير أبيه، أم هي مسقطة عليه وهو منها بريء ؟!

جاء في (أمثال 7/1): " مخافة الرب رأس المعرفة ". وقد مر سابقاً في مزامير داود. (30)

وجاء في (أمثال 32/6-33-34): " وأما الزاني بامرأة فعديم العقل. إنما يصنع هذا مهلك نفسه. يلقى ضرباً وهواناً وفضيحته لا تمحى. لأن الغيرة هي حمية الرجل فلا يشفق في يوم الانتقام".

فسليمان يهاجم الزنى ويتهم الزاني بالحماقة، فهل نسي أباه وهو يقول: "عاره لا يمحى" ؟!

أولم يخرج أبوه عن الوصايا والشريعة: " لا تقتل، لا تزن... لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك". (خروج 20/ 17/13). و "من ضرب إنساناً فمات فليقتل قتلاً ". (خروج 12/21).

وأبوه اشتهى وزنى وقتل، ولم يقم عليه الحد، بل بقي في نظر يهوه الإنسان الكامل!!

ثم سليمان نفسه كانت له ألف امرأة، أوليس هذا زنى في حد ذاته ؟!

وهو يحذر من المرأة الأجنبية (غير اليهودية): " لا تلتفت إلى إغواء المرأة. لأن شفتي الأجنبية تقطران عسلاً وحنكها ألين من الزيت". (أمثال 2/5-3).

فهل هذه الآية تعكس حقيقة سليمان اللاهث وراء النساء ولا سيما الوثنيات - كما يقول النص - وقد تخلى عن يهوه لأجلهن. وشهادة سليمان بالمرأة الأجنبية، ردّ على من يدعي أن جمال نساء اليهود يفوق جمال النساء غير اليهوديات كديورانت!! فلو كان ذاك الكلام صحيحاً لما ركض سليمان وراء غيرهن وعبد آلهتهن لقاء الشفاه التي تقطر عسلاً!!

ويقول سليمان أيضاً: "مجد الرجل أن يبتعد عن الخصام. وكل سفيه يشتبك به". (أمثال 3/20).

ألم يبدأ سلطته بقتل أخيه ثم قائد جيش أبيه ؟!

ومن أمثاله: " إذا سقط عدوك فلا تشمت، وإذا وقع فلا يبتهج قلبك". (أمثال 17/24).

و" إذا جاع عدوك فأطعمه خبزاً وإن عطش فاسقه ماء". (أمثال 21/25).

لقد جاء أولئك إلى أرض كنعان لقتل الكنعانيين وسرقة أرضهم وحرمانهم، ليس من الخبز والماء فقط، وإنما من الحياة كلها!!

ويقول (أمثال 9/31): " اقض بالعدل وحام عن الفقير والمسكين" ثم " الغني والفقير يتلاقيان. الرب صنع كليهما". (أمثال 2/22). فهنا قدر لا يتغير لأن يهوه خلقهما هكذا: فقير وغني!

ما مصير آلاف العمال الذين شيدوا القصر والمعبد ؟!

وأشعيا في سفره يشن حملة على أغنياء اليهود الذين يستغلون فقراء اليهود. فأين العدل مع وجود الفقراء كقانون قدري ؟! بل وأين العدل مع المؤامرات والإرهاب والجرائم وسفك الدماء والغدر والاعتداء على الشعوب واستعبادها وسلب أرضها وخيراتها، وأين العدل مع بقاء الرق ؟!

إن تلك الحكم والأمثال تجعلنا نسخر منها، لأن الإنسان يُقيّم بممارسته وليس بثرثرته الفارغة.

وتلك الحكم - وكما قلنا عن داود - لا تعكس الحقيقة، إنما هي للترنم أو هي لأناس صادقين قولاً وعملاً، سُرقت منهم وأسقطت على هؤلاء!!

وهي لا تمثل حياة سليمان ولا أبيه ولا مَنْ هم قبله أو بعده!

وسفر الجامعة المنسوب لسليمان لا يمت له بصلة فهو يوناني النزعة شكلاً ومضموناً.(31)

أما نشيد الإنشاد، فما هو إلا انعكاس الشبق الجنسي اللاهث وراء جسد النساء:

(نشيد الإنشاء 2/1): " ليقبلني بقبلات فمه لأن حبك أطيب من الخمر".

(9/1): "ما أجمل خديك بسموط وعنقك بخرز".

(12/1): "حبيبتي باقة مرّ لي. بين ثدييّ مبيته".

(15/1): "ها أنت جميلة يا حبيبتي، جميلة أنت. عيناك حمامتان".

(1/3): " في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي طلبته فما وجدته".

(5/4): " ثدياك كخشفتي ظبية توأمين يرعيان بين السوسن".

(11/4): " شفتاك يا عروس تقطران شهداً ".

(1/7): " دوائر فخذيك مثل الحلي".

(2/7): " سُرَّتك كأس مدورة مزاجها لا ينقص".

(4/7): "عنقك كبرج من العاج... وأنفك كبرج لبنان الناظر تجاه دمشق".

(5/7): "رأسك عليك مثل الكرمل، وشعر رأسك كأرجوان".

(7/7): " قامتك هذه شبيهة بالنخلة، وثدياك مثل العناقيد".

* * *

تلك المقتطفات غزل حسي مادي صرف. وهو منحط في بعض جوانبه.

وهو وإن كان مسروقاً من الحضارات القديمة / سورية، مصرية/، إلا أنه بنسبته إلى سليمان على يد الكتبة صار يعكس نفسية سليمان المادية الحسية الشهوانية. فكيف تكون له علاقة بالمطلق ؟! وما يدعيه بعض اللاهوتيين من رمزية صوفية، ليس إلا سذاجة واستخفافاً بعقل المؤمن. إنه لا يمت إلى الرمزية بصلة. وما هو إلا نشيد حسيّ يعكس الغلمة الجنسية. وهل الذي يركض وراء ألف امرأة ويعبد آلهتهن، يفهم ويستوعب معنى التصوف من اتحاد أو حلول ؟!

كما أن الرب نفسه غضب عليه وقرر أن يجزئ المملكة من بعده فكيف تستقيم الرمزية بعد ذلك ؟!

يقول ديورانت: " وإذا ما وضعنا إلى جانب هذه المزامير " نشيد سليمان" لاح لنا ما في الحياة اليهودية من عنصر شهواني دنيوي،... " ..." وفي هذه الكتابات الغرامية العجيبة مجال واسع للحدس والتخمين. فقد تكون مجموعة من الأغاني البابلية الأصل تشيد بذكر إشتار وتموز، وقد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين تأثروا بالروح الهلينية التي دخلت إلى (بلاد اليهود) مع الإسكندر الأكبر (لأن في هذه الأغاني ألفاظاً مأخوذة من اللغة اليونانية)...". (32)

وإذا ما أضفنا ولع سليمان بالخيل: " وكان لسليمان أربعة آلاف مذود خيل ومركبات...". (أخبار أيام "2" 25/9). فأين سليمان ووقته ضائع بين الخيل والنساء وآلهتها ؟!

* * *

شخصية سليمان:

إن تجاوزنا قضية الاستفراد بالسلطة والقضاء على المعارضة، نجد أنفسنا أمام تناقض حاد بين سليمان الحكيم وسليمان النسائي! وقد جعله الكتبة يجمع بينهما، كما جمعوا بين سلوك أبيه اللا أخلاقي وكماله عند ربه!

بل الجمع المتناقض ذاك سمة مسقطة على كل الشخصيات. مما يعني أن السمات السلبية هي الحقيقية، أما الإيجابية فهي المسقطة.

وما ورد على لسانه: " باطل الأباطيل كل شيء باطل. أي فائدة للبشر من جميع تعبهم الذي يعانونه تحت الشمس". (الجامعة 1/2-3)، لا ينطبق عليه لأن المؤمن بذاك لا يمكن أن يضيّع ثلاث عشرة سنة في بناء قصر له، يعد آية من آيات الجمال - بحسب النص - لابن ساكن الخيام ؟!

والذين بنوه له وثنيون كما يقول النص. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن العشيرة البدوية والجاهلة، لا تعرف فن البناء. وبالتالي لجأ سليمان إلى ملك صور ليبني له القصر والمعبد، كما فعل أبوه من قبله. وبالتالي عظمة القصر والمعبد - إن كانا عظيمين - فإنما العظمة تعود إلى عمال حيرام ملك صور. وما سليمان إلا نزيل فيه!

وهذا يدل على أن شعب المنطقة أهل حضارة. وهم الذين علموا المستعمرين الغرباء وطوروهم، كما أن عبادة سليمان لأوثان الآخرين يدل على تفوق أولئك وتخلف سليمان. فالضعيف عادة يقلد القوي بل ويتبعه في العادات والتقاليد. وما سليمان إلا تابع لحضارة كنعان وعاداتها وتقاليدها.

وهذا الأمر في التبعية يعني زيف ملكيته وسلطته. لأن من أبسط أمور المستعمِر والمتسلط أن يفرض مفاهيمه وحياته وعقليته وعاداته على الشعب المستعمَر!!

وسليمان النسائي الذي يدعي أن: " ما هو أمر من الموت المرأة التي قلبها أحبولة وشبكة ويداها قيود. من كان صالحاً أمام الله ينجو منها وأما الخاطئ فيقتنص بها". (الجامعة 27/7). يقع في شباك النساء، وتصير الآية إدانة له فهو غير صالح لأنه لم ينجُ من شباكها بل اصطادته ألف امرأة!

إن الصلة بين الله والإنسان لا يمكن أن تكون مفصولة عن سلوك الإنسان مع الآخرين. فالعلاقة تنعكس على سلوكه الإنساني. مما يعني أنه لم تكن هناك علاقة حقيقية مع الله وإنما مع يهوه / الوهم/ الزيف... وهذا يصدق على الشخصيات كلها!!

ومن هنا نفهم بقاء يهوه الغافر والراضي مهما كان الظلم والعهر والإثم والجريمة، لأنه من صنعهم. وإلا من سيلتفت إليه إن هم أعرضوا عنه ؟!

فإن لم يكن على شاكلتهم يستبدل فوراً برب آخر وفق مقاييسهم. فالكتبة صنعوا الإله كما يريدونه هم مما يعني الوثنية المطلقة!

إن يهوه من أجل اليهود وليس اليهود من أجله. وبالتالي هو مضطر ومجبر على قبول أولئك الأتباع مهما أثارت سفالاتهم الاشمئزاز.

ويعد سليمان أول من أقام معبداً لذاك الإله وقد ارتبط اسمه به (هيكل سليمان).

وهو أول من ثبت دعائم المملكة التي يتغنى بها اليهود ويبنون على أوهامها وزيفها تاريخهم المزيف!

وما تبني الحركة الصهيونية (العلمانية) لها إلا لأنها تخدم فكرتها وإيديولوجيتها الاستعمارية.

ولم تكن سلطة سليمان سلطة دينية، لأنه لم يكن رجل دين وتقوى وحتى تلك السلطة الدنيوية غير صحيحة علمياً، لأنه لا يوجد أي إثبات تاريخي على حقيقتها. بل لا يوجد إثبات على وجود شخص سليمان نفسه أو أبيه داود وغيرهما!!

فسليمان لم يقم حكماً ثيوقراطياً وبحسب النص، وهذا ما تعمده الكتبة، ليقولوا لا علاقة للأخلاق بالدين. فاليهود شعب الله وأبناؤه وهذا وحده كاف لوضعهم فوق الدين والأخلاق والقيم كلها! فهم العدل والحق والخير في كل ما يفعلون. وهذا المقياس العنصري جعل المؤمنين منهم يعانون عبر التاريخ، لتناقضه مع المقاييس الحقيقية للحق والخير والعدل!

لقد كان حكم سليمان استبدادياً مطلقاً، وقد انعكس ذلك على جماعته أنفسهم فكانوا مقموعين ومقهورين. فقد سخر آلاف العمال ليعملوا تحت إمرة المهندسين الصوريين ولعشرين عاماً أي نصف مدة حكمه. ثم سخر الآلاف لملذاته سواء لخدمة نسائه أم خيوله! وهذا يعني أنه استعبد عشيرته نفسها!

ولقد جاء أولئك إلى ابنه من بعده يتوسلون: " إن أباك قد ثقل نيرنا وأنت. فخفف الآن من عبودية أبيك الشاقة ونيره الثقيل الذي وضعه علينا فنخدمك". (ملوك "1" 4/12).

ولم يلتفت الابن إليهم كما سيأتي.

هذه هي شخصية سليمان أما الشخصية الأخرى التي تحاول أن تجعله حكيم عصره فهي المزيفة والكاذبة.

* * *

هوامش الفصل الخامس: المملكة المزعومة

(1) شاول عند المؤرخين العرب اسمه طالوت. راجع على سبيل المثال تاريخ اليعقوبي: (ج1 ص 50) - والكامل للشيباني: (ج1 ص 159).

(2) يونغ: الإله اليهودي - ص 11. والاقتباس ورد في سياق حديثه عن سفر أيوب كعلامة مميزة في التطور التاريخي للدراما الإلهية!

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ – م1 ص 175. يذكر أن داود أشقر، وسليمان أبيض.

وقد حكم داود أربعين سنة كما يقول المؤرخون (1000- 961) ق.م تقريباً.

(4) في النسخة البروتستانتية رقم الآية (20). وهذه القضية لا قيمة لها ونتجاوزها دائماً. فالآيات وأرقامها قد نكتبها بصيغة إحدى النسختين (الكاثوليكية أو البروتستانتية) أو بالاعتماد على نسخة الملك جيمس.

(5) كان المصريون يؤمنون بأن الإنسان عندما يموت ينزل إلى أعماق الأرض حيث هناك عالم الأموات!

(6) دافيد شيهان: مرض القلق – ص 82.

(7) ورد في (صموئيل "1" 4/31) أن حامل سلاحه خاف من قتل ملكه الذي طلب منه أن يقتله حتى لا يُقتل بيد الفلسطينيين. ثم تناول الملك سيفه وأسقط جسمه عليه فمات وكذا فعل حامل سلاحه.

(8) خالد قشطيني: (مقالة الصهيونية من زاوية التحليل النفسي) - (شؤون فلسطينية - العدد 45 - ص 70).

(9) جاي غونين: تحليل نفساني لتاريخ الصهيونية - عرض د. صفية سعادة. (شؤون فلسطينية - العدد 67 – ص 170).

(10) راجع كتاب: مذهب التحليل النفسي وفلسفة الفرويدية الجديدة: فاليري ليبين - دار الفارابي. والكتاب يعد إريك فروم أهم من وجه نقداً لفرويد ونزعته البيولوجية والجنسية وتفسير اللبيدو لعقدة أوديب. فالإنسان كائن اجتماعي وموقعه من الانتاج كسلعة تباع وتشترى يؤدي إلى اغترابه. ويعد فروم " فقدان الفرد لذاته قمة اغتراب الإنسان". (كتاب ليبين ص 187). لكن ليبين يعد فروم قد وقع في مطب " التجديد الأخلاقي والبعث الروحي للإنسان، ولا يمس جوهر النظام البرجوازي".(ص 198). وإن كانت هذه النقطة لا تعنينا في بحثنا، لكن حتى لا نسلم مع فروم تماماً كبديل مطلق عن فرويد. فأطروحاته مثالية أخلاقية.

إن إريك فروم في كتابه: " أزمة التحليل النفسي" يتحدث عن فرويد وطريقه المسدود. كما يذكر في كتابه " الإنسان بين الجوهر والمظهر" (ص147): " البنية الاجتماعية / الاقتصادية، والبنية الشخصية، والبنية الدينية - هذه كلها مقولات مترابطة، لا تنفصل واحدة عن الأخرى". وهو لا ينظر إلى الدين بمفهومه اللاهوتي وإنما كنظام للفكر والعمل تشترك في اعتناقه جماعة من الناس (ص143).

إننا لا يمكن أن نعزل الفرد عن المجتمع والعلاقة الكائنة بينهما، والتفاعل بين ما هو سيكولوجي وما هو اجتماعي اقتصادي، ودور الأخلاق والقيم كبنى فوقية، وكنتيجة لتلك العلاقات تأثيراً وتأثراً.

ولعل المدرسة التكاملية تجعلنا مرنين أكثر في الدراسة والتحليل النفسي، فاليهود يريدون سرقة الأرض والخيرات وهم، كبدو رعاة، جائعون. وحياتهم تعتمد على الرعي والتجارة. ويسيطر عليهم الجهل والتخلف... فيجدون أنفسهم أمام أهل حضارة متطورة وراقية وحصينة، مما يعني أن حلمهم الاستعماري أكبر من حجمهم فشعروا، بالصغر والدونية. فعوضوا ذلك بالعدوانية الشرسة لإفناء الآخر وإلغائه من الوجود!

(11) يروي المؤرخون العرب حكاية داود مع أوريا. فالطبري في تاريخه (ج1 ص283) يسردها بشكل مثير. فعنده أن امرأة أوريا وهي تستحم عارية، انتبهت إلى داود، فمدت شعرها الطويل على جسدها لتتستر به مما أدى إلى ازدياد رغبة داود فيها. ويذكر بأن داود صار يرسل زوجها / أهريا – أوريا / من موقع إلى موقع ليقتله حتى قتل في المرة الثالثة، فتزوج داود امرأته. كما يذكر أن لداود تسعاً وتسعين زوجة. وبقية المؤرخين يسيرون على نمط الطبري. راجع كتاب الشيباني (ج1 ص171). وابن الأثير في كتاب الكامل (م1 - ص 169-171).

(12) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1 ج2 - ص 331.

(13) يذكر ابن الأثير في كتابه " الكامل في التاريخ " - (م1 ص 173) أن الناس استخفوا بداود بعد حكايته مع أوريا. وأن ابنه أبشالوم (إيشا) ثار ضده وتمرد عليه و " وجه داوود إليه بعض قواده وأمره بالرفق به والتلطف لعله يأسره ولا يقتله. وطلبه القائد وهو منهزم فاضطره إلى شجرة فقتله".

والشجرة في النسخة البروتستانتية هي البطم. بينما في الكاثوليكية هي البلوط، وهي الأصح، ففي نسخة الملك جيمس OAK بلوط.

(14) معاوية إبراهيم: الموسوعة الفلسطينية – المجلد الثاني (الدراسات التاريخية) ص 120.

(15) فراس السواح: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم - ص 206. لكن السواح يدعي بأنه يمكن استنتاج قيام مملكة موحدة ووجود أساس تاريخي لداود وسليمان اعتماداً على البينات التاريخية اللاحقة التي تثبت وجود مملكتي يهوذا وإسرائيل. وورود أسماء خلفاء سليمان على هاتين المملكتين في السجلات الآشورية مثل عمري وآخاب وياهو ومنسي ومنحيم. إلا أنه يصعب فرز الملامح التاريخية لداود وسليمان عن الظلال الملحمية التي أحاطت بهما في الرواية التوراتية.

إن ذاك الادعاء لا يقوم على أساس علمي؛ فورود أسماء أشخاص أو مدن في التوراة أو الأسفار، وتطابق تلك الأسماء مع أسماء حقيقية لا يعني ذلك صحة أحداث وشخصيات الأسفار!! لقد سرق الكتبة تراث المنطقة بما في ذلك أحداثها وشخصياتها وأسماء مدنها وجبالها وأنهارها... ونسبوا كل ذلك إلى تاريخ عشيرتهم البدوية. وهل ورود أسماء حقيقية في الأسفار، يعني ذلك صحة نسبتها إلى اليهود وما يدعونه!؟ لقد تحدثت التوراة عن الطوفان، وقد ورد في نصوص سومرية وبابلية فهل يعني ذلك صحة التوراة ؟! الدراسة المقارنة هي وحدها الحكم. وهذا يعني الربط بين وجود الشخصية والحدث والزمان والمكان وفي أكثر من مصدر، ومع دراسة هوية الاسم الحقيقية ونسبته الزمانية والمكانية. فهل آخاب وياهو ومنسي... الذين وردوا في الوثائق هم أنفسهم الذين تتحدث عنهم الأسفار تاريخاً وزماناً ومكاناً ونسبة ؟! التسمية وحدها لا تكفي مطلقاً، وإن تقاطعت ما لم تكتمل الشروط الأخرى وبكل وضوح.

كما لا يمكن الانتقال إلى إمكانية الاستنتاج في أمور خطيرة، فهذا علم ولا مجال للتكهن والتخمين. والسواح نفسه بعد مناقشة المملكة المزعومة يقول في (ص 208): " بناء على ما تقدم كله، نخلص إلى القول بأن كتاب التوراة قد ابتدأ بالأسطورة في مطلع سفر التكوين، حيث جاء بعدة أساطير تنتمي إلى النسق الميثولوجي السوري – البابلي. ثم انتقل إلى السرد الملحمي الذي يعتمد أحداثاً مغرقة في القدم تختلط بالخرافة وتحيط بها هالات البطولة والمعجزة بطريقة يصعب معها تبين الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال". ثم يصل إلى أن محرري التوراة فيما بعد ذاك توصلوا إلى "محاولة ناجحة جزئياً للتوثيق التاريخي". وأنه يجب التعامل مع تلك المحاولة " بحذر بسبب انتقائيتها وتدخل أهواء أصحابها "!

وهنا يجب التنبيه إلى قضية هامة: وهي أن الأسفار تدعي نسبة ما ورد فيها كالشخصيات والأحداث والحكايات ومنها المملكة... إليها. والكتبة كما يتفق الجميع سرقوا كل شيء. وكون الأسفار تحدثت عن شخصيات سرقتها من تاريخ المنطقة، أو وصفت مدينة عاينها الكتبة، فهل معنى ذلك صحة النسبة إلى ما تدعيه الأسفار، أم تبقى النسبة لأصحابها رغم حديث الأسفار عنها.

القضية في النسبة وما يترتب على ذلك من أمور!

ثم يجب دراسة تاريخ الكتبة أنفسهم، وتاريخ اليهود أنفسهم خارج نص الأسفار، ولا سيما عهد المكابيين والذي ربما هو عهد المملكة المزعومة، ثم مدى ارتباط هؤلاء بذاك التاريخ المزيف!!

(16) معجم اللاهوت الكتابي - ص 338.

(17) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة - الإيمان - ص 358.

(18) خالد قشطيني: مقال: (الصهيونية من زاوية التحليل النفسي) - (شؤون فلسطينية - العدد 45 - ص 71).

(19) وترد في المزامير (21/18). أما في الطبعة الكاثوليكية فإن الرقم (22/17).

(20) وترد في أمثال سليمان (7/1): " مخافة الرب رأس المعرفة ".

(21) يذكر الشيباني في كتابه الكامل (ج1 ص 171) أن داود كان يقسم أيامه: يوم للقضاء بين الناس، ويوم للعبادة، ويوم للنساء!!

(22) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1 ج2 - ص 386.

(23) الكتاب المقدس - الطبعة الكاثوليكية - م2 - ص 53.

(24) محمد عزة دروزة: تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم – ص 141.

(25) وهذه الآية ترد في سفر أخبار الأيام الثاني 26/9 " وكان متسلطاً على جميع الملوك من النهر إلى أرض الفلسطينيين وإلى تخوم مصر". والفرق واضح بين الآيتين: الممالك هناك والملوك هنا. وهناك أرض (فلسطين) وهنا (الفلسطينيين)!!

(26) وردت عند المؤرخين العرب - روايات تذكر بأن سليمان تزوجها واسمها بلقيس (راجع على سبيل المثال تاريخ الطبري ج1 ص292 - والشيباني في الكامل ج1 ص176). ويذكر الشيباني أن سليمان كان يزورها في اليمن ثلاثة

أيام من كل شهر. وبأنها ماتت في الشام ودفنت في تدمر! ويذكر ابن الأثير الخبر نفسه ولكنه يذكر أيضاً بأن قبرها مجهول. هذا إلى جانب روايات تنفي زواج سليمان منها.

(27) هدد: (ملوك "1" 14/11 وما بعد): بعد مذابح يوآب في أدوم والتي استمرت ستة أشهر. فر هدد ورجاله إلى مصر بعد أن مروا بمدين. وفي مصر أكرمهم فرعون وقدم لهم كل ما يحتاجونه. وزوّج هدد أخت امرأته الملكة. ولما مات داود عاد إلى أرض كنعان ليشكل خطراً على سليمان.

(28) رزون: (ملوك "1" 23/11 وما بعد): تزعم عصابة في زمن داود. ونتيجة الضربات التي تلقاها من داود، هرب إلى دمشق وملكها وجماعته وبالتالي "صار فاتناً في إسرائيل كل أيام سليمان فضلاً عن شر هدد وأعنت إسرائيل وملك على أرام". (ملوك "1" 25/11).

(29) في (ملوك "1" 41/11) إشارة إلى سفر أخبار سليمان (أعمال سليمان) ولكن لا وجود له. وهناك أسفار ينسبها بعض اللاهوتيين إلى عصر سليمان كسفر يشوع والقضاة وراعوث وصموئيل الأول والثاني...

(30) في الطبعة البروتستانتية " مخافة الرب رأس المعرفة. أما الجاهلون فيحتقرون الحكمة والأدب". وفي النسخة الكاثوليكية: " مخافة الرب رأسُ العلمِ، والحكمةُ والتأديب يستهين بهما السفهاء". أما الترجمة عن نسخة الملك جيمس: " مخافة الرب بداية المعرفة. لكن الحمقى يحتقرون الحكمة والتعليم".

(31) سفر الجامعة والحكم والكثير من مزامير داود... ، كتب في القرن الثاني قبل الميلاد. فروح الفلسفة اليونانية تفوح منها. يقول ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة - م1 ج2 – ص390) عن إحدى الحكم: " تكاد تنطبق ألفاظها على وصف سقراط للفضيلة والحكمة، تفوح بعطر مدارس الإسكندرية حيث كان علم اللاهوت العبري يمتزج بالفلسفة اليونانية ". ويقول أيضاً في (ص388): " كما يكشف سفر الجامعة عن تشكك لا نتبينه فيما عنى الكتاب باختياره ونشره من أدب اليهود الأقدمين".

وفي مقدمة الطبعة الكاثوليكية للسفر (ص209) نجد: " ويبدو أنه استوحى مواضيع من أصل إغريقي، مما يحمل على الاعتقاد بأنه كتب حوالي السنة 180 قبيل الهزات العنيفة، وهزات اضطهاد أنطيوخوس أبيفان وثورة المكابيين".

(32) ول ديورانت: قصة الحضارة - م1 ج2 - ص 387-388.

وجملة (بلاد اليهود) التي وردت في النص تعبر عن جهل الكاتب، وتصديقه للرواية اليهودية عن تاريخ فلسطين القديم. وهكذا هم معظم المؤرخين الغربيين كويلز... فهم يغيبون التاريخ الكنعاني لصالح اليهود إما بسبب تأثير اليهود أو لأنهم أبواق للاستعمار الغربي والصهيوني.

* * *

الفصل السادس:

من الانهيار وحتى السبي

1- رحبعام ويربعام:

بعد موت سليمان صار ابنه رحبعام ملكاً على يهوذا. فجاءه الإسرائيليون وعلى رأسهم يربعام (ياربعام) طالبين منه تخفيف القهر والعبودية التي كانت منذ عهد أبيه (ملوك "1" 4/12). فطلب إمهاله ثلاثة أيام. وخلال تلك الأيام استشار الشيوخ والشبان، ثم تبنى رأي الشبان القمعي. ولما عادت المعارضة أجابها: " إن أبي حملكم نيراً ثقيلاً، وأنا أزيد على نيركم. أبي أدبكم بالسياط، وأنا أؤدبكم بالعقارب". (ملوك "1" 14/12).

وتمردت المعارضة عليه ونصّبوا يربعام ملكاً عليهم. ولقد كان ذاك عبداً لسليمان ولأنه عنيف وقاس عينه سليمان على " الأعمال المرتبة على آل يوسف". (ملوك "1" 28/11). ثم قرر سليمان قتله لجبروته وأخطائه، فهرب إلى مصر وبقي هناك إلى أن مات سليمان فعاد ليتزعم المعارضة. وصادفه نبي اسمه أحيّا الشيلونيّ، فأخبره بأن الرب سيشق المملكة وسيجعله ملكاً على عشرة أسباط. وسيترك لنسل سليمان سبطاً على أورشليم إكراماً لداود " الذي اصطفيته لأنه حفظ وصاياي ورسومي". (ملوك "1" 34/11).(1)

ويرد تعليل شق المملكة كما مر سابقاً: " لأنهم تركوني وسجدوا لعشتاروت إلاهة الصيدونيين وكاموش إله الموآبيين وملكوم إله بني عمون...". (ملوك "1" 33/11).

وصنع يربعام عجلين من الذهب، وضع أحدهما في بيت إيل والآخر في دان وقال: " هذه آلهتكم يا إسرائيل". (ملوك "1" 28/12). وقد عمم الوثنية: " وعملت لنفسك آلهة أخرى ومسبوكات لتغيظني وقد طرحتني وراء ظهرك". (ملوك "1" 9/14).

وقد أمضى حياته في حروب ضد رحبعام ملك الجنوب/ يهوذا /: " وكان بين رحبعام ويربعام حرب كل الأيام". (ملوك "1" 30/14).

وقبل موته خاض آخر معركة ضد ابن رحبعام واسمه أبيا. وقد خسر المعركة، واستطاع أبيا أن يقتل خمسمئة ألف رجل (أخبار الأيام "2" 17/13). ثم مات يربعام بعد حكم دام اثنتين وعشرين سنة أمضاها في محاربة الجنوب.

أما رحبعام بن سليمان ملك يهوذا (2)، فقد جمع جيشاً للقضاء على المعارضة واستعادة مملكة الشمال (إسرائيل) (3)، ولكنه أخفق. ويذكر السفر أن رجل الله شمعيا كلمه طالباً منه عدم مقاتلة يربعام لأن الرب هو الذي قرر تقسيم المملكة فأذعن للأمر. لكن الذي يبدو أنه أخفق في تحقيق حلمه. وأمضي حياته في محاولاته الحربية ولم يفلح.

وكان كقرنه وثنياً: " ترك شريعة الرب". (أخبار "2" 1/12) و " صنع يهوذا الشر في عيني الرب وأغاروه / أغاظوه/ أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بما ارتكبوه من خطاياهم". (ملوك "1" 22/14).

و " بنوا هم أيضاً لأنفسهم مرتفعات وأنصاباً وسواري على كل مرتفع وتحت كل شجرة خضراء". (ملوك "1" 23/14). كما ارتكبت يهوذا كأختها إسرائيل أنواع الرجاسات كلها.

وهاجم الجنوبَ ملكُ مصر شيشاق ونهب أورشليم.

وقد تزوج رحبعام ثماني عشرة امرأة حرة وستين سرية وولد له ثمانية وعشرون ابناً وستون بنتاً. (أخبار أيام "2" 21/11). ومات بعد أن حكم سبع عشرة سنة وورثه ابنه أبيا (أبيام).(4)

* * *

إذاً بعد موت سليمان مباشرة انقسمت المملكة المزعومة إلى مملكتين:

1- مملكة الشمال / إسرائيل/ كما كانت تسمى السامرا (السامرة).(5)

2- مملكة الجنوب / يهوذا /.

وبدأت سلسلة من الحروب بين المملكتين وماتت أعداد لا حصر لها؛ عشرات الألوف، بل مئاتها...

وتوالت سلسلة من الملوك، سادت حياة بعضهم الوثنية والفسق والفجور. وبعضهم حطم الأوثان وحارب المفاسد كالزنى والشذوذ والشرور... وتلك الانقلابات السريعة والتحولات مئة وثمانين درجة، تجعل السفر يدور في فلك سفر القضاة. لكن الصراع الأساسي هنا ليس بين الإسرائيليين وشعب كنعان، وإنما بين القبائل الإسرائيلية نفسها ومن أجل السلطة.

كما أن التحول من يهوه إلى غيره كالبعل... يعني أمرين:

1- لا فرق بين يهوه، وآلهة الوثنيين / بحسب تصنيف الأسفار/.

2- الاندماج في شعوب المنطقة، والتخلي عن المشروع الاستعماري.

ولكن الكهنة بالمرصاد فهم يربطون بين الاندماج والوثنية والمفاسد والشرور، لأن ذلك يحمي استعمار كنعان. والبقاء في أحضان يهوه والكهنة يؤدي إلى متابعة المشروع.

فالمشروع بحاجة إلى التقوقع والعزلة (الغيتو) ليبقى حاملو الفكرة الاستعمارية. أما الانفتاح والاندماج في الغوييم فهو قتل للمشروع.

* * *

2- أحآب وإيليا:

صار أحآب ملكاً بعد أبيه عمري. وتزوج إيزابل بنت ملك صيدا " وعبد البعل وسجد له". (ملوك "1" 31/16).

وأخذت إيزابل تقتل الأنبياء. لكن المشرف على بيتها واسمه عوبديا أنقذ مئة نبي خبأهم في مغارتين!

وكان هناك أنبياء كثيرون للإله بعل، وقد تحدى إيليا أربعمئة وخمسين نبياً أن يدعوا بعلاً ليحرق ذبيحة، فدعوا: " أيها البعل أجبنا " فلم يستجب لهم. فدعا إيليا يهواه " فهبطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة ". (ملوك "1" 38/18). وبالتالي ألقوا القبض على أولئك الأنبياء الكذبة، وذبحهم إيليا عند النهر!

وتغضب إيزابل وتتوعد إيليا فيهرب من وجهها لاجئاً إلى مغارة بعيدة فيخاطبه ربه ويسأله عن سبب وجوده في المغارة !! فيقول له مجيباً: " لأن بني إسرائيل قد نبذوا عهدك وقوضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف". (ملوك "1" 14/19).

ويخوض أحآب حرباً ضد الآراميين ويقتل منهم في يوم واحد مئة ألف رجل!
وترد حكاية تكشف عن نرجسيته وأنانيته وحبه لما يمتلكه الآخرون.
ففي جانب قصره كرم لشخص اسمه نابوت. فأعجبه الكرم فطلب من صاحبه نابوت أن يبيعه الأرض أو يعطيه أرضاً مقابلها. فرفض نابوت. فتحوك إيزابل مؤامرة تتهم فيها نابوت بالتجديف على الرب والملك، فيرجم حتى الموت. (ملوك "1" 13/21). ومن ثم يستولي أحآب على أرضه!
وجاءه إيليا فوبخه وبلّغه بأن الرب سيعاقبه. فبكى أحآب ومزق ثيابه كما فعل داود عندما وبخته الملائكة!
ولأنه استغفر وندم، عفا يهوه عنه وأرجأ إنزال العقوبة إلى زمن ابنه (ملوك "1" 29/21).
ولا ندري كيف تجرأ إيليا على العودة رغم طلب إيزابل رأسه! وما نلاحظه أن الجرائم لا تقام عليها الحدود التي وردت في الشريعة فالمجرم يكفيه الندم فيعفو عنه الرب. وما هدف الكتبة إلا القول: افعل ما شئت أيها اليهودي من أجل مصلحتك ويكفيك الندم الشكلي ليعفو يهوه عنك. فالندم الحقيقي أن يقتص منه " العين بالعين". " القاتل يقتل".
فالمجرم يندم وتبقى له المكاسب التي حققها من وراء جريمته! ويموت أحآب بعد حكم دام اثنتين وعشرين سنة.

* * *

3- اليشع:

نبي يرافق معلمه إيليا أينما يذهب. فيمضيان معاً إلى نهر الأردن " فأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب المياه فانفلقت إلى هنا وهناك وجازا كلاهما على اليبس". (ملوك "2" 8/2).
وبعد أن عبرا النهر كما عبر موسى البحر وكما عبره يشوع، وبينما هما يتحدثان: " إذا مركبة نارية وخيل نارية قد فصلت بينهما وطلع إيليا في العاصفة نحو السماء". (ملوك "2" 11/2).
ويعود اليشع إلى رجاله ومعه رداء إيليا. وأخذوا يبحثون عنه ولثلاثة أيام، في الجبال والوديان ولم يجدوه.
إن المنافسة ليست بين الملوك فقط، وإنما امتدت إلى الأنبياء، فهناك المئات منهم، وفي عهد أحآب كان أربعمئة نبي (ملوك "1" 6/22).
فالتنافس والتناحر امتدا إلى النبوة والكهانة أيضاً!
والطريف أن بعض الغربيين ذكر أن العربة التي ركبها إيليا، ما هي إلا مركبة فضائية جاءت من كوكب بعيد متقدم ومتطور وقد اختطفوه!

* * *

وتابع اليشع سياحته فمر بقرية شونم، فدعته امرأة لتناول الخبز فأحب رائحته ومذاقه، وصار كلما مر بتلك القرية يزور تلك المرأة ليأكل من خبزها، وينام عندها في العلية. وسألها ذات مرة إن كانت لها أُمنية ليحققها لها، فقالت إنها عاقر وزوجها شاخ. فدعا لها بالحمل، فحملت وولدت. (ملوك "2" 17/4).
ومات الولد فأعاده اليشع إلى الحياة (ملوك "2" 35/4). وتكثر على يديه الخوارق الخرافية كشفاء رئيس جيش آرام من البرص (ملوك "2" 14/5)، وإكثار الطعام... وهو في ذلك نظير وقرن إيليا.

وتتكرر صور القحط ولسبع سنين " لأن الرب قد دعا بجوع فهو يأتي على الأرض سبع سنين".
وكانت المجاعة في السامرة / إسرائيل/ فظيعة لدرجة أن امرأتين اتفقتا على أكل طفليهما بالتناوب. فقد اشتكت إحداهما إلى الملك: " إن هذه المرأة قالت لي هاتي ابنك فنأكله اليوم وغداً نأكل ابني". (ملوك "2" 28/6). " فطبخنا ابني وأكلناه وقلت لها في اليوم الثاني هاتي ابنك لنأكله فأخفت ابنها". (ملوك "2" 29/6).
هذه الصورة التي تثير الاشمئزاز تتناقض مع الصورة التي قدمها الكتبة عن حكمة سليمان في النزاع الذي وقع بين امرأتين حول وليد ادعت كل واحدة منهما أنه ابنها. (ملوك "1" 16/3 وما بعد...).

* * *

وتتكرر أجواء الدسائس والمؤامرات المبتذلة والغدر، والحروب بين الشمال والجنوب. وما بينهما وبين شعوب المنطقة.
وقد تحالف آحاز ملك يهوذا مع الآشوريين ضد مملكة الشمال التي تحالفت مع الآراميين.
ثم خضع هوشع ملك الشمال / إسرائيل/ السامرة، لآشور. وصار يدفع لهم الجزية. لكنه تحالف مع مصر وتوقف عن دفع الجزية، فسار إليه الملك الآشوري شلمنآسر (شلمنآصر) وحاصر السامرة ثلاث سنوات، وقبض على هوشع ورماه في السجن. وجلا إسرائيل إلى بلاد الآشوريين.
وعلل السفر السبب كعادته نتيجة آثام الإسرائيليين وشرورهم: " فغضب الرب جداً على إسرائيل ونفاهم من وجهه". (ملوك "2" 18/17). "وسبى إسرائيل من أرضهم إلى أشور إلى هذا اليوم. وأتى ملك أشور بقوم من بابل وكوث وعوّا وحماة وسفروائيم. وأسكنهم في مدن السامرة مكان بني إسرائيل. فامتلكوا السامرة واستوطنوا مدنها". (ملوك "2" 24-23/17).
وقد اختلف المؤرخون الدائرون في فلك التوراة حول زمن ذاك السبي لمملكة الشمال وسقوطها؛ أهو في عام 723 ق.م أو 841 ق.م.
والغريب أن الأقوام التي أسكنها الملك الآشوري في السامرة " لم يتقوا الرب، فبعث الرب عليهم أسوداً فكانت تقتل منهم". (ملوك "2" 25/17).
فأرسلوا إلى ملك آشور يطلبون أن يرسل إليهم من يعلمهم حكم إله الأرض. فأرسل كاهناً إسرائيلياً "من الكهنة الذين جلوتهم". ليقيم بينهم وليعلمهم حكم إله الأرض كما طلبوا!!
وجاء الكاهن ليعلمهم تقوى الرب: " وكانوا يتقون الرب ويعبدون آلهتهم كعادة الأمم الذين جلوهم من بينهم". (ملوك "2" 33/17).
لقد علل السفر السبي نتيجة وثنية وشر إسرائيل. وكان الأجدر بذاك الكاهن أن يعلم أتباعه تقوى الرب!!

* * *

ولم يكن وضع المملكة الجنوبية / يهوذا/ بأفضل من الشمال: " ويهوذا أيضاً لم يحفظوا وصايا الرب إلههم وسلكوا في سنن إسرائيل التي سنوها. فرذل الرب جميع ذرية إسرائيل وأذلهم وأسلمهم إلى أيدي الناهبين حتى نبذهم من وجهه".

(ملوك "2" 19/17-20). فلقد تلقوا ضربات من الشمال، ففي عهد ملكهم آحاز هاجمهم الإسرائيليون وقتلوا منهم مئة وعشرين ألفاً في يوم واحد وسبوا " مئتي ألف من النساء والبنين والبنات وأخذوا أيضاً منهم سلباً كثيراً وجاءوا بالسلب إلى السامرة ". (أخبار الأيام الثاني 8/28). ولكنهم تركوهم فيما بعد كما يقول السفر!

وتعرضوا لهجوم الأدوميين، كما استطاع الفلسطينيون أن يستعيدوا كثيراً من المدن التي احتلتها يهوذا.

وقد ذكرنا كيف تحالف آحاز مع الآشوريين ضد الشمال. وهم لم يكترثوا لذاك الحلف.

وبعد آحاز استلم ابنه حزقيا الذي بدأ عهده بتحطيم الأوثان كما حطم " حية النحاس التي كان موسى صنعها". (ملوك "2" 4/18)، وقد عبدها الإسرائيليون.

وحاول التمرد على الآشوريين؛ فقد ذكر المؤرخون التوراتيون أنه رفض الرضوخ لملك آشور سرجون ولم يقبل أن يسجد له وأن يعبده. ففرض سرجون عليه الجزية. ثم جاء الملك الآشوري سنحاريب (704 - 682 ق.م) واستولى على عدد من المدن التي كانت تحتلها يهوذا. فاعتذر حزقيا واعترف بخطئه وقدم له كل ما يطلبه من مال وذهب حتى أنه نزع الذهب عن أبواب المعبد ليرسله إليه.

وكما يذكر المؤرخون أقام حلفاً مع المصريين ضد الآشوريين لكن سنحاريب هزم التحالف معاً ورمى حزقيا في سجن أورشليم وسبى كثيراً من سكان مدن يهوذا.

ويذكر السفر أن حزقيا استنجد بالنبي أشعيا(6) الذي دعا على آشور: " وكان في تلك الليلة أن خرج ملاك الرب وقتل من جيش أشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألفاً ". (ملوك "2" 35/19). وينسحب سنحاريب إلى نينوى ليموت بالسيف على يد ابنيه أو على يد ابن واحد كما يقول التاريخ!

ويتحدث السفر عن حزقيا فيقول: " ولم يكن مثله في جميع ملوك يهوذا ولا في الذين كانوا قبله". (ملوك "2" 5/18).

وهذا يعني بأنه أفضل من الذين سبقوه بما في ذلك داود وسليمان وهذا المديح المطلق يرد مع معظم ملوك عشائرهم.

وبعد موت حزقيا استلم ابنه منسَّى وعمره اثنتا عشرة سنة. فأعاد بناء المرتفعات للأوثان، وكان يذبح للبعل وعمل الشر ولجأ إلى أصحاب الجن والتوابع... لذلك غضب الرب عليه وتكلم على لسان أنبيائه: "هأ نذا جالب على أورشليم ويهوذا شراً ". (ملوك "2" 12/21). و" أمسح أورشليم كما يمسح الصحن". (ملوك "2" 13/21). و" أخذل بقية ميراثي وأسلمهم إلى أيدي أعدائهم ويكونون خطفاً ونهباً لجميع أعدائهم. من أجل أنهم صنعوا الشر في عيني وأسخطوني منذ يوم خرج آباؤهم من مصر إلى هذا اليوم". (ملوك "2" 14/21-15).

ومات بعد حكم دام خمساً وخمسين سنة فاستلم ابنه آمون الذي سار على منهج أبيه الشرير. ومات قتلاً على يد عبيده. فاستلم ابنه يوشيا وعمره ثمانية أعوام فقضى على المفاسد وعبادة البعل وعشتاروت وبقية أنواع الأوثان وكل ما بناه سليمان لآلهة الآخرين (ملوك "2" 13/23).

و" تلا على مسامعهم جميع كلام سفر الميثاق / الشريعة/ الذي وجد في بيت الرب". (ملوك "2" 2/23).

وأعاد الاحتفال بيوم الفصح والذي توقف منذ عهد القضاة. " ولم يكن قبله ملك مثله... ولا قام بعده مثله". (ملوك "2" 25/23).

وفي زمنه جاء ملك مصر نخو (نكو) لمحاربة ملك أشور عند الفرات، وفي طريقه قتل يوشيا بعد حكم دام إحدى وثلاثين سنة.

ومن ثم خضعت مملكة يهوذا للنفوذ المصري وصارت تدفع الجزية لملكها. ومن بعد يوشيا استلم ابنه يوآحاز. فسجنه فرعون مصر نخو، وعين ابناً آخر ليوشيا واسمه ألياقيم وغير اسمه إلى يوياقيم. ثم أرسل يوآحاز إلى مصر ليموت سجيناً هناك.

وفي عهد يوياقيم جاء نبوخذ نصّر، فخضعت يهوذا للبابليين. وحاول يوياقيم أن يتمرد على البابليين " فأرسل الرب عليه غزاة الكلدانيين وغزاة أرام وغزاة موآب وغزاة بني عمون أرسلهم على يهوذا ليهلكوهم". (ملوك "2" 2/24).

ومات يوياقيم واستلم ابنه يوياكين فسار على درب أبيه الفاسد فجاء نبوخذ نصّر ملك بابل و" جلا جميع أورشليم... ولم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض". (ملوك "2" 14/24).

وأعاد نبوخذ نصّر الكرة عندما تمرد عليه الملك صدقيا الذي عينه بدلاً من يوياكين، وحاصر أورشليم مدة طويلة أدت إلى انتشار المجاعة. فتسلل الملك هارباً من المدينة فأُلقي القبض عليه وذبحوا أولاده وفقؤوا عينيه، وأخذوه مقيداً بالسلاسل إلى بابل. (ملوك "2" 7/25).

ثم فيما بعد جاء نبوزرادان رئيس شرطة نبوخذ نصّر على رأس قوة، فأحرق بيت الرب وقصر الملك وأورشليم كلها. كما حطم أسوارها وسبى من بقي إلى بابل عدا " مساكين الأرض كرّامين وفلاحين". (ملوك "2" 12/25).

وجاء في سفر (إرميا 12/52-16): " قدم نبوزرادان رئيس الشرط الواقف أمام ملك بابل إلى أورشليم. وأحرق بيت الرب وبيت الملك وجميع بيوت أورشليم وكل بيت للعظماء أحرقه بالنار. وهدم جميع جيش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط، كل أسوار أورشليم مما حولها. وبعضاً من مساكين الأرض وسائر الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربين الذين هربوا إلى ملك بابل وسائر الجماعة أجلاهم نبوزرادان رئيس الشرط. وترك رئيس الشرط من مساكين الأرض كرامين وفلاحين".

وهكذا: "جلي يهوذا من أرضهم". (ملوك "2" 21/25). ومن بقي فر إلى مصر.

* * *

إن المؤرخين المتكئين على تاريخ الأسفار يقولون: استولى البابليون على نينوى عاصمة الآشوريين(7) عام 612 ق.م، وأن نبوخذ نصّر الذي عاش (من 605- 562 ق.م). صار إمبراطوراً. (8)

وقد دمر مملكة يهوذا وسبى أهلها إلى بابل في عام (587 ق.م). والسبي تم على ثلاث دفعات كما مر.

وفي بابل استقر قسم من هؤلاء واندمج في شعوب المنطقة. وقسم جاء إلى أورشليم فيما بعد، وبعهد قورش عام 538 ق.م. (9)

ففترة السبي البابلي كانت تسعاً وأربعين سنة (587 - 538 ق.م).

أما السبي الآشوري فقد كان عام 721 ق.م، وشمل عشرة أسباط، وهؤلاء انقرضوا نهائياً نتيجة الذوبان والاندماج في شعوب المنطقة.

لقد وجه قورش الفارسي نداء لليهود للهجرة إلى أورشليم. ويذكر عزرا في سفره تلك الرسالة مضيفاً إليها: " فليصعد إلى أورشليم التي بيهوذا ويبن بيت الرب إله إسرائيل وهو الإله الذي في أورشليم. وكل من بقي في أحد المواضع حيث هو متغرب فليمدده أهل موضعه بالفضة والذهب والمال والبهائم فضلاً عما يتطوعون به لبيت الله الذي في أورشليم". (عزرا 1/1-4).

والذين هاجروا لم يتجاوزوا الخمسين ألفاً وعلى رأسهم " زربابل ويشوع ونحميا...". (عزرا 2/2)، ونحميا (7 /7). وهناك خلاف في الرواية بين السفرين! ونحميا المرافق لزربابل غير نحميا صاحب السفر كما يقولون!!

ونفهم من سفر عزرا أنه ذهب إلى أورشليم ومعه مجموعة دون الألفين في زمن الملك أرتحشستا (465 -424 ق.م).

وقد وجه أرتحشستا رسالة إلى عزرا: " من أرتحشستا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء الكامل سلام. إني أبرزت أمراً أن كل من شاء في مملكتي من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع إلى أورشليم معك فليرجع". (عزرا 7/12-13).

وينصح المك الفارسي عزرا بتطبيق الشريعة: " وكل من لا يعمل بشريعة إلهك وشريعة الملك فليقض عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة مال أو بالحبس". (عزرا 7/26).

ويتحدث سفر نحميا عن مجيء عزرا وقراءته لتوراة موسى: " واجتمع الشعب كله كرجل واحد في الساحة التي أمام باب المياه، وتكلموا مع عزرا الكاتب في إحضار سفر توراة موسى التي أمر بها الرب إسرائيل فأحضر عزرا الكاهن التوراة أمام الجماعة من الرجال والنساء وكل ذي فهم ليسمع في اليوم الأول من الشهر السابع. وقرأ فيه أمام الساحة ". (نحميا 8/1-3).

* * *

لقد صارت كلمة " اليهود" تستخدم في الأسر البابلي وما بعده. ويقولون إنها اشتقت من يهوذا السبط الوحيد المتبقي من الأسباط!

وقد جاء في رسالة وجهها المعارضون لبناء أورشليم، إلى الملك أرتحشستا باللغة الآرامية: " ليعلم الملك أن اليهود الذين خرجوا من عندك قد وفدوا إلينا إلى أورشليم المدينة...". (عزرا 4/12).

وفي (عزرا 4/23): " ذهبوا بسرعة إلى أورشليم إلى اليهود". وفي نحميا (1/2): " فسألتهم عن اليهود الذين نجوا".

وفي (نحميا 5/8): " نحن اشترينا إخوتنا اليهود الذين بيعوا للأمم".

وفي سفري المكابيين الأول والثاني، يتضح الاستخدام تماماً: " إلى الإخوة الذين في مصر سلام إليكم من الإخوة اليهود الذين في أورشليم وبلاد اليهودية أطيب السلام". (المكابيين 1/1).

والسؤال كيف تحل تسمية جديدة مكان تسمية قديمة استمرت مئات السنين كما يدعي كتبة الأسفار؟!

لقد صيغت الأسفار بدءاً من فترة السبي البابلي كما يقرر المؤرخون اللاهوتيون. وقد اعتمدنا ذلك كنقطة انطلاق تاريخية، وإن كنا لا نؤمن بذلك ولا بالسبي كله، ونرد الأمر كله إلى القرن الثاني زمن المكابيين إن كان لهم وجود.

فكلمة اليهود التي شاعت، تدل على وجود تاريخ آخر للعبرانيين والإسرائيليين، وما فعله الكتبة هو دمج التواريخ الثلاثة في تاريخ واحد وضمن سياق الثالوث.

* * *

إن بعضاً من شعوب المنطقة تهوّد ولا سيما في بابل بالقوة والإكراه - كما سيأتي - والذين هاجروا إلى أورشليم في عهد قورش ومن بعده، حملوا تسمية اليهود.

تقول الموسوعة الكتابية: " أواخر القرن السادس قبل الميلاد صارت كلمة اليهود اسماً عاماً لكل بني إسرائيل".

وسواء أكان اليهود من نسل سبط يهوذا أو من جنسيات مختلفة وقد تهودت، فإن الكتبة دمجوا الديانة / اليهودية/ والمتهودين، في الجنس / الشعب/ العرق.

والذين سمح لهم قورش الفارسي بالهجرة إلى أورشليم كانوا يهوداً ديانةً، ولكن من جنسيات مختلفة.

ولا ننسى أننا نحلل بناء على نص الأسفار، أما من الناحية التاريخية الحقيقية فلا إثبات على ذاك التاريخ. وما ذكر عن فارس وقورش إنما مصدره ما ورد في الأسفار وهي غير ثقة.

يقول د. معاوية إبراهيم: " تبقى معلوماتنا التاريخية الموثقة عن فلسطين في العهد الفارسي قليلة ومبعثرة، وما زالت المعلومات المتعلقة بالتنظيمات الإدارية والأوضاع الاجتماعية مستمدة من التوراة، وخاصة من سفري عزرا ونحميا". (10)

ويقول أيضاً: " يبقى تاريخ فلسطين في القرنين السابقين لحكم الإسكندر الكبير غامضاً ". (11)

فتحليل الأسفار شيء والتاريخ الحقيقي شيء آخر؛ فالمملكة المزعومة وانقسامها ثم السبي الآشوري فالبابلي، ثم الهجرة من بابل إلى أورشليم، كل ذلك كذب ودجل وخيال محض!

* * *

إذاً المملكة المزعومة انشقت إلى مملكتين بعد وفاة سليمان، ولم تدم أكثر من ثمانية وخمسين عاماً (980 - 922 ق.م).

وبعد الانشقاق نشب صراع بين المملكتين حتى الأسر الآشوري ثم البابليّ.

وتوالت على المملكتين سلسلة من الملوك هي بين مؤيد ليهوه أو مؤيد لآلهة شعوب المنطقة. أو بمعنى أدق مؤيد للمشروع الاستعماري أو رافض له!

وتتكرر أسطوانة الأحداث التي تبعث الملل والسأم في نفس القارئ إلى أن يأتي السبي فتبدأ أسطوانة جديدة حول أسباب السبي وما يرافق ذلك من هجوم على المعاصي والشرور التي ارتكبها أبناء يهوه.

لقد علل الكتبة أسباب السبي بالابتعاد عن يهوه وارتكاب الرذائل، والتزاوج من الأجنبيات / بنات الأرض/ الوثنيات... ، والاندماج والانصهار في الشعوب الأخرى.

فالسبي عقاب لشعب يهوه حتى يطهرهم من آثامهم ويغفر لهم ويعفو عنهم. ومع العقاب يندم يهوه كعادته وبالتالي ينتقم من الذين آذوا أبناءه علماً بأنه هو الذي أرسلهم كأداة للعقاب!

وهذه معادلة صعبة! فيهوه يسخر الآشوريين لمعاقبة شعبه، ثم يندم ويعفو عن شعبه، فيرسل البابليين لمعاقبة الآشوريين الذين أرسلهم لمعاقبة شعبه. فيقضي البابليون على الآشوريين. ثم يندم لأن البابليين اعتدوا على شعبه، فيرسل الفرس للقضاء على البابليين. وتنتهي المعادلة هنا، لأن الفرس سمحوا لشعبه بالهجرة إلى أورشليم!

* * *

جاء في (إرميا 50/17-18): " إسرائيل غنم مشتتة قد طردته الأسود أولها ملك أشور افترسه وآخرها نبوكدرصر(نبوخذ نصر) ملك بابل هشم عظامه. لذلك هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: ها أنذا أعاقب ملك بابل وأرضه كما عاقبت ملك أشور".

وفي الآية 29 من السفر نفسه: " جازوها / لبابل/ بحسب أفعالها وكجميع ما عملت اعملوا بها فإنها عتت على الرب على قدوس إسرائيل".

وقد دعا إرميا اليهود إلى الاستسلام لآسرهم نبوخذ نصر: " أدخلوا أعناقكم تحت ملك بابل واخدموه وشعبه". (إرميا 27/12).

و " اطلبوا سلام المدينة التي سبيتم إليها وصلوا لأجلها، إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام". (إرميا 29/7).

ويبرر إرميا خنوعه بوجود هدف عند الرب: " قد نصبت لك شركاً فعلقت يا بابل وأنت لم تعرفي". (إرميا 50/24).

فهو فخ رباني للانتقام من بابل التي أسرت شعبه: " كما أسقطت بابل قتلى إسرائيل كذلك يسقط قتلى بابل في كل الأرض". (إرميا 51/49).

فالعقلية القديمة تسقط كل شيء على إلهها سواء أكان إيجابياً أم سلبياً. إلا أن معادلة الأسفار المتناقضة لا يستوعبها العاقل!!

* * *

أسباب السبي كما قلنا: 1- الوثنية والفساد. 2- التزاوج من غير اليهود.

1- الوثنية والفساد:

هناك آيات عديدة تتحدث عن تخلي اليهود عن يهوه، وعبادة آلهة الشعوب الأخرى. وهذا الأمر يربطه الكتبة بالفساد والفسق والفجور:

- " الثور يعرف قانيه، والحمار معلف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف، شعبي لا يفهم". (أشعيا 1/3).

- " الكهنة لم يقولوا أين الرب، ودارسو الشريعة لم يعرفوني، والرعاة عصوني والأنبياء تنبأوا بالبعل، وذهبوا وراء ما لا فائدة فيه". (إرميا 2/8).

- " إنهم قد ولّوني أقفيتهم لا وجوههم، وفي وقت ضرهم يقولون قم وخلّصنا". (إرميا 2/27).

- " لأن شعبي أحمق. إياي لم يعرفوا. هم بنون جاهلون. وهم لا فهم لهم. هم حكماء للشر ولا دراية لهم للخير". (إرميا 4/22).

- " الأنبياء يتنبأون بالكذب، والكهنة تحكم على أيديهم، وشعبي هكذا أحب...". (إرميا 5/31).

- " لأنه بعدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا ". (إرميا 13/11).

- " أنبياؤك يا إسرائيل صاروا كالثعالب في الخرب". (حزقيال 4/13).

- " لا إلى شعوب كثيرة غامضة اللغة وثقيلة اللسان لست تفهم كلامهم، فلو أرسلتك إلى هؤلاء لسمعوا لك. لكن بيت إسرائيل لا يشاء أن يسمع لك. لأنهم لا يشاؤون أن يسمعوا لي. لأن كل بيت إسرائيل صلاب الجباه، قساة القلوب". (حزقيال 3/6-7).

- " منذ أيام آبائنا نحن في إثم عظيم إلى هذا اليوم ولأجل ذنوبنا قد دفعنا نحن وملوكنا وكهنتنا ليد ملوك الأرض، للسيف والسبي والنهب وخزي الوجوه كما في هذا اليوم". (عزرا 7/9).

- " وقال لي يابن آدم أنا مرسلك إلى بني إسرائيل، إلى أمة متمردة قد تمردت عليّ هم وآباؤهم عصوني إلى هذا اليوم ذاته". (حزقيال 3/2).

- " أيديكم ملآنة دماً ". (أشعيا 15/1).

- " كفوا عن الشر". (أشعيا 16/1).

- " تعلموا فعل الخير". (أشعيا 17/1).

- " فأتيتم ونجستم أرضي وجعلتم ميراثي رجساً ". (إرميا 7/2).

- " خزي بيت إسرائيل هم وملوكهم ورؤساؤهم وكهنتهم وأنبياؤهم". (إرميا 26/2).

- " وأنت ساكن بين العقارب". (حزقيال 6/2).

- " ويل لمن يبني مدينة بالدماء ويؤسس قرية بالإثم". (حبقوق 12/2).

وليت حبقوق صادق فيما يقوله. أو ليست الأسفار كلها مجازر دموية وبأمر من الجزار الأول يهوه ؟!

وهو عندما يحتج على تلكؤ يهوه في الاستجابة لدعائه يصرخ: " حتى متى يا رب ادعو وأنت لا تسمع وأصرخ إليك من الظلم وأنت لا تخلّص". (حبقوق 2/1). " فلم تنظر إلى الناهبين، وتصمت حين يبلغ الشرير من هو أبرّ منه". (حبقوق 13/1).

فيجيبه يهوه: " لأنك سلبت أمماً كثيرة. فبقية الشعوب كلها تسلبك لدماء الناس، وظلم الأرض والمدينة وجميع الساكنين فيها". (حبقوق 8/2).

فهل هذا الكلام صحيح ؟! أم هو زيف ودجل ؟!

فهل يهوه يدين شعبه على ما اقترفه من جرائم وسفالات وانحطاط ؟!

أوليس يهوه هو نفسه الذي كان يدعو إلى القتل والتدمير والحرق والاعتداء على الآخرين وسلبهم حقوقهم ؟!

وهل سلب الشعوب الأخرى لشعب يهوه الملوث بالدم هو انتقام منه ؟!

يجب ألا ننخدع بذاك الكلام الذي هو مجرد تبرير للسبي. وليس الظلم والسلب هنا، المقصود منه شعب كنعان أو غيره. إنما المقصود ظلم اليهودي لليهود. وبالتالي الخلاص هو الخلاص لهم وحدهم فقط كما يدل عليه سياق النص والأسفار كلها!

والاحتجاج ذاك نجده عند إرميا المعاصر لحبقوق: " التحفت بالغضب وطردتنا، قتلت ولم تشفق". (مراثي إرميا 43/3).

وعند إرميا نجد العلاقة بين يهوه وشعبه علاقة زواج انتهى إلى الطلاق: " زنت العاصية إسرائيل فطلقتها وأعطيتها كتاب طلاقها. لم تخف الخائنة يهوذا أختها، بل مضت وزنت هي أيضاً ". (إرميا 8/3).

ولأن لأورشليم مكانة خاصة فقد تناولها الكتبة بصيغة أكثر حدة وعنفاً. فهي عرش يهوه: " أورشليم كرسي الرب". (إرميا 17/3).· و" أسكن في وسط أورشليم". (زكريا 3/8).

وفي (يوئيل 7/3): " فتعلمون أني أنا الرب إلهكم الساكن في صهيون جبل قدسيّ وتكون أورشليم قدساً ولا يجتاز فيها الأجانب من بعد".

فيهوه منحها الرفعة والعظمة والجمال والقدسية ولذا تزوجها، ولكنها خانته مع غيره: " وفرجت رجليك لكل عابر". (حزقيال 25/16). و" سلمتك إلى نفوس مبغضاتك بنات فلسطين اللواتي خجلن من طريقك الفاجر". (حزقيال 27/16).

وأيضاً: " إن سدوم أختك لم تفعل هي وبناتها كما فعلت أنت وبناتك". (حزقيال 48/16).

وبما أن أورشليم زوجة عاهرة لذا أرسل زوجها يهوه من ينهبها ويجردها من ملابسها: " ويغادرونك عريانة متجردة. ويجلبون عليك الجمع ويرجمونك بالحجارة ويقطعونك بسيوفهم. ويحرقون بيوتك بالنار...". (حزقيال 39/16-41).

ويروي حزقيال حكاية رمزية عن أختين مومستين: الكبرى واسمها أُهلة (أهولة) وهي السامرة. والصغرى واسمها أهوليبة (أهليبة) وهي أورشليم.

وقد اتخذهما يهوه زوجتين له(12) " فزنت أهلة عليّ ". حيث عشقت بني آشور وسلمتهم جسدها فضاجعوها. وكذلك الثانية، لكنها زادت في عشقها وعهرها وفاقت فواحشها فواحش أختها... (حزقيال الإصحاح الثالث والعشرون).

وعلى الرغم من تلك الصورة القبيحة برمزيتها وبلغتها المبتذلة: " ضاجعوها في صباها وغمزوا نهدي بكارتها وأفرغوا فواحشهم عليها..." ، إلا أنها تعطي فكرة واضحة عن الانحطاط الذي وصل إليه شعب يهوه المقدس.

* * *

2- التزاوج من الشعوب الأخرى:

كانت النقطة الأولى التي مرت أحد سببي الأسر بعد القضاء على المملكتين. والنقطة الثانية هي الاندماج في الشعوب الأخرى والتزاوج منهم.

فالاندماج يكون من خلال الاحتكاك والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية ولا سيما أن اليهود اعتمدوا على التجارة. والاحتكاك ذاك سيؤدي إلى ذوبان الحواجز والعوائق أمام المصاهرات. وقد أدرك الكتبة ذلك، ومن ثم ربطوا بين الاندماج والوثنية والفساد، وفظعوا الأمر وشنعوه، لأن ذلك يؤدي إلى ضياع المشروع الاستعماري!

لذلك عدوا التزاوج من الآخرين غير اليهود جريمة كبرى لا تقل عن جريمة التخلي عن يهوه.

جاء في سفر (عزرا 1/9-3): " أقبل الرؤوساء إليّ يقولون إن شعب إسرائيل والكهنة واللاويين لم ينفصلوا عن شعوب الأرض ورجاساتهم من الكنعانيين والحثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والموآبيين والمصريين والأموريين. لأنهم اتخذوا من بناتهم لهم ولبنيهم. فاختلط النسل الطاهر بأمم الأرض. بل يد الرؤوساء والعظماء كانت الأولى في هذه الخيانة. فلما سمعت هذا الكلام مزقت ثوبي وردائي، ونتفت شعر رأسي ولحيتي وجلست متحيراً ".

وبعد أن جمع سبط يهوذا المتبقي من الأسباط التي انقرضت كما ذكرنا، قال لهم: " إنكم قد تعديتم واتخذتم نساء غريبات لتزيدوا في إثم إسرائيل. فاعترفوا الآن للرب إله آبائكم واعملوا مرضاته واعتزلوا أمم الأرض والنساء الغريبات". (عزرا 10/10-11).

وعلى إثر ذلك طردوا النساء الأجنبيات مع أولادهم منهن.

ولا يفوتنا هنا ذكر وضع اليهود في الأسر البابلي واستناداً إلى النص. فهم هوّدوا الكثيرين - وبغض النظر عن أسلوب التهويد كالإكراه والتخويف والإرهاب - لزيادة عدد اليهود من أجل تحقيق مشروع الاستيلاء على أرض كنعان، لأن عدد اليهود كانوا قلة وإلا لما احتاجوا إلى التهويد!

والسبي البابلي لم يكن وقفاً على اليهود فقط فقد شمل شعوباً عديدة من فلسطين ومصر والشام والجزيرة العربية...

وقد جاء في سفر (أستير 17/8): " وكثيرون من شعوب الأرض تهوّدوا، لأن رعب اليهود وقع عليهم".

وفي بابل ومناطق السبي كانت الأبواب مفتوحة تماماً للاندماج والاختلاط والتزاوج.

وكل ما افترضه عزرا ذهب أدراج الرياح. فقد عمل على خلق مجموعة اليهود هو والكتبة / الكهنة/ الزعماء... وأحاطوها بقوقعة ممتلئة بالعنصرية والفكر الاستعماري. ولكن عندما هاجر إلى أورشليم واكتشف أن الجماعة في حالتي الاندماج والتزاوج أي ضياع المشروع، نتف شعر رأسه ولحيته!

* * *

وعلى الرغم مما مر لم يقطع الكتبة الشعرة بينهم وبين أتباعهم، فهم بين مد وجزر، بين ترغيب وترهيب!

فيهوه وإن كان قاسياً وعنيفاً وأنزل عقوبته على الزانيتين: السامرة ويهوذا لأنه: " إله غيور ومنتقم. الرب منتقم وذو سخط". (ناحوم 2/1). و: " من يقف أمام سخطه ومن يقوم لدى اضطرام غضبه. قد انصب حنقه كالنار وانحلّت منه الصخور". (ناحوم 6/1). و: " أنا أيضاً عيني لا تشفق ولا أعفو". (حزقيال 10/9).

فيهوه وإن كان كذلك، فهو له مراجعاته للأمور، لأنه يعرف تماماً إن بقي مصلباً رقبته، فأولئك اليهود رقابهم أصلب، وبالتالي لن يعودوا إليه، وسيبقى وحيداً لأنهم سيرمونه خلف ظهورهم. ولأنهم يعرفون أن قضية انشقاق المملكة - وبحسب النص - والسبي إنما نتيجة اختلال موازين القوى، ولا علاقة ليهوه بذلك لا من قريب ولا من بعيد، لذلك لم يقطع الرجاء لأن الشدة ستؤدي إلى اليأس والهرب!

ومن هنا وحتى لا تنقطع الشعرة يقول إرميا (12/3): " ارجعي أيتها المرتدة إسرائيل يقول الرب فلا أحول وجهي ضدكم لأني رحيم. يقول الرب: لا أحقد إلى الأبد".(13)

وكما هي عادته في الندم: " لكن عيني أشفقت عليهم عن إهلاكهم فلم أفنهم في البرية". (حزقيال 17/20).

فكما لم يقض عليهم في التيه لشفقته وقلبه الكبير كذلك هنا: " وعند رجوع الشرير عن شره وعند عمله بالعدل والحق فإنه يحيا بهما". (حزقيال 19/33).

فيهوه لا ييئس من شعبه ولا يبيده كله: " غير أني لا أبيد بيت يعقوب تماماً ". (عاموس 8/9).

ويعود إليهم من جديد ويعطيهم: " قلباً واحداً وأجعل في أحشائهم روحاً جديداً وأنزع من لحمهم قلب الحجر وأعطيهم قلباً من لحم". (حزقيال 19/11). و: " أجعل روحي في داخلكم". (حزقيال 27/36). و: " هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي وآتي بكم إلى أرض إسرائيل". (حزقيال 12/37). و: " آخذكم من بين الأمم وأجمعكم من جميع الأراضي وآتي بكم إلى أرضكم". (حزقيال 24/36). و: " أجعلهم أمة واحدة في الأرض في جبال إسرائيل. وملك واحد يكون ملكاً لجميعهم ولا يكونون من بعد أمتين ولا ينقسمون من بعد إلى مملكتين أبداً". (حزقيال 22/37). و: " أكون لهم إلهاً ويكونون لي شعباً". (حزقيال 27/37).

وحزقيال الذي يقول: " آل إسرائيل إنما ذهبوا إلى السبي بإثمهم". (حزقيال 23/39) ، هو نفسه الذي يتحدث بتلك الروح السابقة.

ومثله أشعيا الذي تحدث عن السبي الآشوري، وتنبأ بعودة اليهود: " هكذا قال السيد الرب هآ نذا أرفع إلى الأمم يدي وللشعوب أنصب رايتي فيأتون ببنيك في الأحضان، وبناتك على الأكتاف يحملن. ويكون الملوك حاضنيك، وسيداتهم مرضعاتك. وعلى وجوههم إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون تراب قدميك". (أشعيا 49/22-23).

المهم أن يهوه سيعفو عن شعبه، رغم وثنيته وآثامه وسيسكن معهم في أورشليم: " هكذا قال الرب إني قد رجعت إلى صهيون وسأسكن في وسط أورشليم فتدعى أورشليم مدينة الحق وجبل رب الجنود الجبل المقدس". (زكريا 3/8).

* * *

والسؤال المطروح: هل كان السبي عبودية وسحقاً وقهراً لليهود كما يذكر النص. وهل النواح والمراثي نتيجة البعد عن أرض كنعان أم التعبير عن التطلع الجشع لاستعمار أرض كنعان ؟!

السبي لم يكن آلاماً كما نفهم من النص، فاليهود تعلموا وتطوروا ومنهم من صار من حاشية الملوك كأستير ودانيال وعزرا ونحميا...(14) ، بل إن يوياكين الملك اليهودي أُخرج من السجن في بابل وصارت منزلته كالملوك. وكان يتناول الطعام دائماً أمام الملك البابلي طيلة حياته (ملوك "2" 29/25).

* * *

لقد انطلقنا في البحث من نقطة السبي كبداية لتاريخ اليهود، وكذلك صياغة الأسفار الأساسية بالاستناد إلى كثير من المؤرخين.

وبالتالي وضع عزرا ثالوثه " يهوه - الشعب المختار - الأرض الموعودة " أي: " الوثنية - العنصرية - الاستعمار".

والأسفار التي صيغت إنما لتخدم ذاك الثالوث، والمحور الأساسي هو استعمار أرض كنعان كيفما تفتقت أشكال الأطروحات.

فالاطلاع على ثقافات الشعوب الأخرى والاختلاط والاندماج، كل ذلك ساهم في صنع الأسفار. فكيف يتحقق كل ذلك لو كانوا أذلاء ؟!

فلم تكن هناك معاناة أو ذل أو قهر فقد هوّدوا الناس وصاروا من رجال الحاشية. ولما كان الخروج رافقهم سبعة آلاف وثلاثمئة وسبعة وثلاثين عبداً رقيقاً وألفين من المغنين. فمن كان له هذا العدد من الرقيق والمغنين، فكيف يكون عبداً مسحوقاً ؟

ثم إن الذين خرجوا لم يتجاوزا الخمسين ألفاً، فلِمَ لَمْ يخرج كلهم ؟!

إن حياتهم في بابل أدخلتهم حياة جديدة فيها الاستقرار والتطور والانتقال من مجتمع البداوة إلى مجتمع زراعي، مهني، تجاري واسع...

وبالتالي لَمْ يهاجروا كلهم، وقسم كبير منهم اندمج في شعوب المنطقة ورمى عزرا وثالوثه خلف ظهره!

المهم هو أن السبي كان المنطلق لكتابة الأسفار، والتحريض والتعبئة لاستعمار أرض كنعان برأي بعض المؤرخين. وهذا يحتاج إلى دليل علمي وتاريخي. فالسبي لا أساس له من الصحة كما قلنا. ونرى أن القضية تعود إلى العهد المكابي ولربما لها ارتباطات باليونان الذين جاؤوا إلى أرض كنعان من تجار وصناعيين ومهنيين إضافة إلى المغامرين الذين أتوا طلباً للرزق أو لأسباب سياسية. ولا ننسى بقايا فلول اليونان الذين بقوا في المنطقة فربما هم اليهود...(15)

* * *

هوامش الفصل السادس: من الانهيار وحتى السبي

(1) هنا يُذكر داود كقديس. وفي (ملوك "1" 8/14): " ولم يعمل إلا ما هو قويم في عينيّ ". وهذا يعني أن يهوه راض عن كل ما عمله داود. فأعماله القبيحة والمنحطة قويمة في عيني ربه!!

(2) يهوذا في العبرية تعني " يحمد". ومنها اشتقت كلمة يهود، والتي بدأت بالظهور خلال السبي وبعده. وفي عصر المسيح سادت كلمة يهودية لتعني أورشليم وما حولها. أما السامرة فهي الجليل وكان فيها الإسرائيليون.

(3) يقول فراس السواح في كتابه: " الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم" - (ص 207) : " المملكة الحقيقية المزدهرة قد استمرت في الشمال حيث الأراضي الزراعية الخصبة والطرق المفتوحة على التجارة في البر والبحر. أما في المملكة الجنوبية التي لم تنل من القسمة إلا الأراضي الفقيرة، فقد عاشت أورشليم في حالة من العزلة محاطة ببلاد معادية من جميع جهاتها. وبينما انفتحت السامرة على بقية العالم الكنعاني وصارت جزءاً منه، ازداد انكفاء أورشليم على نفسها تدريجياً ودخلت عصر التحجر والمحافظة الذي عاشه اليهود إلى نهاية تاريخهم".

ونحن لا ندري شيئاً عن المصادر الموثوقة التي استند إليها السواح ليقرر تلك المعلومات!!

(4) هناك اختلاف في الاسم والنسب بين سفري (الملوك "1" 1/15-2) و(أخبار الأيام "2" 1/13-2). ومن المعلوم أن سفري أخبار الأيام الأول والثاني هما نسخة أخرى عن الأسفار السابقة، ولكنها نسخة تختلف / اختصار، حذف، تعديل، إضافة.../. وقد كتبا في القرن الرابع قبل الميلاد كما يقول اللاهوتيون. وهناك من ينسبهما إلى نحميا، علماً بأن هناك من يقول عزرا ونحميا شخص واحد!

(5) في عهد الملك عمري اشترى جبل السامرة - كما في النص - وبنى مدينة دعاها " شامر". (ملوك "1" 24/16).

(6) يعد أشعيا من أهم الشخصيات اليهودية وله سفر باسمه. جاء في مقدمة الطبعة الكاثوليكية عن سفره (ص340) : " يعتبر أشعيا في العموم كأعظم الأنبياء". وهو يعلل السبي كنتيجة للشر والمعاصي التي ارتكبها بنو إسرائيل. " وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين". (أشعيا 5/6).

وتنبؤاته تتعلق بالسبي الآشوري: " في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد، لوثايان الحية الهاربة، لوثايان الحية المتحوية. ويقتل التنين الذي في البحر". (أشعيا 1/27). وله حملته على الأغنياء من اليهود الذين يستغلون فقراء اليهود. ولعلّه المطوّر الأول لمفهوم يهوه، فما يطرحه عنه وعن صفاته ولا سيما في الإصحاح الأربعين يجعله المؤسس ليهوه الأقرب إلى التوحيد. والممهد لكل من جاء بعده وخاصة الأنبياء الصغار. فمن أقواله: "ويل للقائلين للشر خيراً، وللخير شراً. والجاعلين الظلام نوراً والنور ظلاماً. الجاعلين المرّ حلواً والحلو مراً ". (أشعيا 20/5). " أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري". (أشعيا6/44). " إله الدهر خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا. ليس عن فهمه فحص". (أشعيا 28/40). وهذه الآية تنقض التوراة التي تدعي بأن الرب استراح في اليوم السابع!

" لأن بيت الصلاة يدعى لكل الشعوب". (أشعيا 7/56). وهذا ما نجده عند صفنيا (9/3): " لأني حينئذٍ أحول الشعوب إلى شفة نقية ليدعو كلهم باسم الرب ليعبدوه بكتف واحدة ". وهذا نقض لعنصرية الإله الخاص بشعبه

المختار. والنقض الموجه نجده عند إرميا فهو يجعل كل إنسان مسؤولاً عن عمله: " كل واحد يموت بذنبه. كل إنسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه". (إرميا 30/31). و" كل واحد بإثمه يموت " ، نقض للأسفار التي كانت تحمل الأجيال أخطاء الآباء! ومع أن موسى حمّل كل إنسان مسؤولية عمله: " لا تقتل الآباء بالبنين ولا تقتل البنون بالآباء بل كل امرئ بذنبه يقتل ". (تثنية 16/24) ، إلا أنه بقي يحمل الأجيال أخطاء آبائهم!

ومن هنا يقول سبينوزا في كتابه: " رسالة في اللاهوت والسياسة (ص 168): " آراء الأنبياء كانت متعارضة فيما بينها ".

وكان أشعيا متفائلاً بمجيء مخلّص ينقذهم من السبي الآشوري ليعودوا إلى استعمار أرض كنعان: "ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل". (أشعيا 4/7)· و" يأتي الفادي إلى صهيون". (أشعيا 20/59).

ولكن أشعيا ومن بعده لم يخرجوا عن إطار الوثنية والعنصرية والاستعمار فهو يقول: " من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب". (أشعيا 3/2). " أنت يا رب أبونا، ولينا / فادينا/ أبدي اسمك". (أشعيا 16/63). " لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لي خلاصاً ". (أشعيا 2/12). " فيأتون ببنيك في الأحضان، وبناتك على الأكتاف يحملن. ويكون الملوك حاضنيك، وسيداتهم مرضعاتك. وعلى وجوههم إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون تراب قدميك". (أشعيا 22/49-23). " وأما أنت يا إسرائيل عبدي يا يعقوب الذي اخترته نسل إبراهيم خليلي". (أشعيا 8/41).

وهذه النزعة العنصرية والوثنية نجدها عند إرميا وهوشع وعاموس وغيرهم... يقول إرميا (1/31) : " أكون إلهاً لكل عشائر إسرائيل وهم يكونون لي شعباً ". "يهوه اسمه". (إرميا 2/33) ، و(عاموس 8/5). " والرب إله الجنود يهوه اسمه". (هوشع 4/12).

وفكرة الإله العنصري المعمم لفظاً موجودة حتى عند موسى: " وقالا اللهم إله أرواح جميع البشر" ، لكن ذلك لا يعني شيئاً فقد بقي الإله الوثني العنصري وكذا الشعب المختار! ولعل يونان الذي أكد عبرانيته أمام أصحاب السفينة: " أنا عبراني". (يونان 9/1) ، أكثر توجهاً نحو غير شعب يهوه. فالسفر يذكر بأنه ذهب إلى نينوى ليدعو أهلها إلى الإيمان بيهوه وهم لم يستجيبوا له فيئس منهم بسرعة!

ومع أن غيره يدعي ذلك كإرميا (5/1): " جعلتك نبياً للشعوب". إلا أنه مجرد كلام لا ترجمة له على أرض الأسفار!!

على كل إن المفاهيم الجديدة هي نتيجة الاطلاع على ثقافات الشعوب الأخرى، ونتيجة الاختلاط والتحول الجزئي من الهمجية والوحشية المطلقة إلى شيء من الرقي والتطور. وقد أدى هذا أيضاً إلى تلطيف يهوه الدموي العنصري. وكذلك دخلت مفاهيم جديدة كقضايا الخير والشر والموت والحساب والجنة والنار والشيطان... وسفر أيوب محوره الأساسي الصراع بينه وبين الشيطان كرهان تم بين يهوه والشيطان حول استقامة أيوب. ويقول يونغ في كتابه " الإله اليهودي" - (ص 17) عن عذابات أيوب: " ما من أحد يظلمه ويقسو عليه سوى يهوه نفسه. لأنه لا يستطيع أن ينكر أنه إنما يواجه إلهاً لا يكترث لأي مبدأ أخلاقي بالمرة، ولا يعترف بأي صيغة أخلاقية ملزمة ".

(7) نينوى عاصمة الآشوريين في عهد سنحاريب (704 -681 ق.م).

(8) نبوخذ نصَّر أو نبوخذ راصر أو نبوكد نصَّر. وقد جاء في الموسوعة الكتابية: " نبوخذ راصر الاسم الأكادي للملك نبوخذ نصر ملك بابل الشهير".

ويذكر الطبري في تاريخه (ج1 ص 316) أن بختنصر (نبوخذ نصر) غزا مصر وقتل ملكها وسبى أهلها كما سبى الكثيرين من أهل فلسطين والأردن. ويقول في (ص 317): " وفي ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل، ونزل بعضهم أرض الحجاز بيثرب ووادي القرى وغيرها". وعندما ملك بشتاسب بن بختنصر، بلغه أن بلاد الشام خربة، فنادى بالمسبيين الإسرائيليين من " شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع".

وفي كتاب الكامل لابن الأثير (المجلد الأول – ص 198) يذكر إحدى الروايات بأن بختنصر " كان في عهد أرميا النبي، ودانيال، وحنانيا وعزاريا، وميشائيل". ويذكر في (ص 204) أن كيرش (كورش، قورش) تعلم التوراة على يد دانيال ولذلك أعادهم إلى فلسطين وأمرهم بعمارة بيت المقدس!!

(9) يعد قورش أعظم إمبراطور عرفته بلاد الفرس كما يقول ديورانت عنه ويقول أيضاً: إن أولى قواعده السياسية حرية العبادة " لأنه كان عليماً كل العلم بالمبدأ الأول الذي يبنى عليه حكم الشعوب، وهو أن الدين أقوى من الدولة؛ ومن أجل ذلك لا نراه ينهب المدن ويخرب المعابد، بل نراه يبدي كثيراً من الإكبار والمجاملة لآلهة الشعوب المغلوبة ". (قصة الحضارة - م1 ج2 - ص 404).

(10) الموسوعة الفلسطينية - المجلد الثاني - الدراسات التاريخية - ص 131.

(11) د. معاوية إبراهيم - المرجع السابق – ص 130.

(12) راجع حواشي حزقيال - الطبعة الكاثوليكية - ص 70.

(13) الرب لا يحقد على شعبه إلى الأبد مهما فعلوا، ولكنه حقود أبديّ على شعب كنعان وحده دون شعوب العالم قاطبة. لأن حام رأى عورة أبيه فاستاء الأب نوح وشتم ابن ابنه كنعان ولعنه!! فيهوه العنصري واللا عادل " يرق لشعبه". (يوئيل 8/2) ، وهو " ملجأ لشعبه وحصن لبني إسرائيل". (يوئيل 16/3) ، أما كنعان الذي لم يفعل شيئاً سوى الدفاع عن أرضه وحياته أمام مشروع يهوه الاستعماري، فقد بقي تحت اللعنة لأنه حارب الظلم والعدوان والإرهاب، وقال: لا للمشروع العنصري الاستعماري!!

(14) حكاية أستير: عاش رجل يهودي اسمه مردخاي (أستير 5/2) في قصر الملك أحشورش (أحشو يروش) بن داريوس الفارسي. وقد ربى ابنة عمه هدسة (أستير) الجميلة جداً، كابنة له. وطلب مردخاي منها ألا تخبر أحداً عن يهوديتها وشعبها " ولم تكن أستير أخبرت عن جنسها وشعبها كما أوصاها مردخاي". (أستير 20/2). وقد اتخذها الملك عشيقة ثم أحبها وتزوجها. وكان هناك شخص اسمه هامان وهو ثري جداً. وقد قرر أن يصلب مردخاي لأنه لم يسجد له وأن يقتل اليهود جميعاً! ولكن أستير بجمالها وذكائها تنقذ مربيها وشعبها. وتنتهي الحكاية بصلب هامان وأبنائه العشرة. ويستلم مردخاي منصب هامان فيستولي على كل ممتلكاته وينتقم من أعداء اليهود: " قتلوا من أعدائهم خمسة

وسبعين ألفاً ". (أستير 16/9). وكنتيجة لمكانة اليهود " صار كثير من أمم تلك الأرض يهوداً لأن خوف اليهود حل عليهم". (أستير 17/8).

حكاية دانيال: اقتيد مع السبي إلى بابل في عهد نبوخذ نصّر. واشتهر بحكمته وتفسيره للأحلام. وذات مرة حلم نبوخذ نصّر حلماً مزعجاً وأخفق العرافون بتفسير حلمه فقتلهم جميعاً " وأمر بإبادة كل حكماء بابل". (دانيال 12/2). وكما في حكاية يوسف، يأتون بدانيال إلى الملك ليفسر له حلمه. وينجح في ذلك، فيسجد له الملك ويكافئه " سلطه على كل إقليم بابل وجعله رئيس الولاة على جميع حكماء بابل". (دانيال 49/2). وقد فسر له حلماً آخر ينبئ بانتهاء مجده. ونلاحظ من الآيات بأن الملك صار موحداً أكثر من دانيال نفسه!

وفي عهد الملك بيلشاصر، يرى ذات يوم أصابع يد تكتب على الجدران. فخاف جداً فأخبرته الملكة بأن أباه قد نصب دانيال في منصب " كبير المجوس والسحرة والكلدانيين والمنجمين". (دانيال 11/5). ويُجلب دانيال ليفسر تلك الظاهرة، وينجح في ذلك. وتصير مكانته " الثالث في سلطان المملكة ". (دانيال 29/5).

وفي عهد الملك داريوس صار وزيراً أعلى، وفاق الجميع بعمله مما أدى إلى حسده والوشاية به! فرماه الملك في جب الأسود، إلا أن الأسود لم تأكله. فأخرجه الملك وعفا عنه ورمى الوشاة وعائلاتهم في بئر الأسود. وأعلن لشعبه: " أن يهابوا ويرهبوا وجه إله دانيال، لأنه هو الإله الحي القيوم إلى الأبد". (دانيال 26/6). ودانيال ذاك عاش طويلاً كما يذكر السفر وحتى مجيء قورش الملك الفارسي!

أما نحميا - صاحب السفر - فقد كان من حاشية الملك أرتحشستا. وكذلك عزرا المؤسس للديانة اليهودية وللمشروع الاستعماري، والذي حصل على إذن من الملك أرتحشستا في الهجرة إلى أرض كنعان هو وكل من يرغب من اليهود وقدم له الأموال من ذهب وفضة و...

(15) راجع كتاب مصطفى مراد الدباغ " بلادنا فلسطين - ج1 القسم الأول - ص 634-636" حول الوجود اليوناني في فلسطين وبعد أن انتهى عهد الإسكندر وعهد مملكته التي انشقت إلى قسمين. وكذلك راجع قصة الحضارة لديورانت حول الموضوع نفسه في المجلد الرابع.

* * *

القسم الثاني

الفصل الأول:

الصهيونية وثالوث عزرا

في القسم الأول حللنا العهد القديم " الشخصيات، الحكايات، الحوادث..."، وتبين أن الجوهر في العهد كله هو ثالوث عزرا " يهوه، الشعب المختار، الأرض الموعودة ". وهذا الثالوث حقيقته " الوثنية، العنصرية، الاستعمار".

وبما أن الصهيونية ادعت بأن " التوراة هي روح الأمة اليهودية "، ربطت نفسها بالعهد القديم إلا أن تبنيها في الحقيقة كان لقضيتين من ثالوث عزرا وهما: الشعب المختار، أرض الميعاد، أي العنصرية و الاستعمار!

فالثنائية تلك قامت عليهما الصهيونية، وهذا ما جمع بين عزرا وتلك الحركة العنصرية الاستعمارية.

إن يهود اليوم لا علاقة لهم مطلقاً بيهود الأمس، ويهود الأمس لا علاقة لهم بفلسطين لا من قريب ولا من بعيد.

وما فعله عزرا والكتبة لم يكن سوى أكاذيب لخدمة هدف استعماري كان الفرس وراءه بحسب تحليلنا للنص.

وعندما يستند الصهاينة إلى أكاذيب عزرا، فلأن ذاك الاستناد يخدم مصالحهم، ومن هنا كان نقد الدين لإسقاط تلك الركائز التي يتكئون عليها!

ولأنهم علمانيون أسقطوا من الثالوث يهوه!

وقد لاحظنا في القسم الأول وجود جدلية لا تنفصم بين أركان الثالوث، وهذا استمر مع الكهنة والمؤمنين بالدين. ولكن العلمانيين كانوا أجرأ من هؤلاء إذ صرحوا كما يقول بن جوريون: " إن الدين هو وسيلة مواصلات فقط، ولذلك يجب أن نبقى فيها بعض الوقت، لا كل الوقت".(1)

فالقضية الاستعمارية هي الأس وما عدا ذلك خزعبلات وخداع.

* * *

لقد وجدت المشكلة اليهودية الحل في أوروبا عبر الاندماج في الشعوب الأوروبية، ولكن الصهيونية هي التي عطلت الاندماج وحل المشكلة لأن ذلك يعطل مشروعها الاستعماري، وهذا ما سعى إليه عزرا والكتبة كما مر معنا.

وهنا استخدم الثالوث كمادة تخديرية ولذا نستطيع أن نقول بالضبط: الدين اليهودي أفيون لمعتنقيه وللمؤمنين به.

والمؤسسات الدينية اليهودية والحاخامات، تزداد هيمنتها وسلطتها على اليهود المخدرين بالدين، والذين رأوا فيه ما يبيح لهم السرقة والاغتصاب والعدوانية والإرهاب والوحشية...(2)

نعم إن لكل إنسان حرية اعتقاد ما يشاء فهذا شأنه الشخصي وهو حق نحترمه. لكن إن كان اعتقاده وما يؤمن به هو الاعتداء على الآخرين وسرقة حقوقهم وقتلهم وطردهم من ديارهم وأرضهم، فهذا ينهي حريته في الاعتقاد لأنه يمس حرية الآخر وحقوقه، ولأن عقيدته لم تعد شخصية إنما حولته إلى إرهابي وداعية إلى الشر والاستعمار!

إن العقل الغربي الذي يدعي العلم والحضارة، والمنطق والموضوعية والحرية والديمقرطية... ويتعالى بغطرسة وعنجهية على الشعوب المغلوب على أمرها، هذا العقل يتبنى الأساطير والخرافات التي صنعها عزرا والكتبة!!

وعزرا الذي نسب الوعد ليهوه إنما هو في الحقيقة حلمه الاستعماري هو والكتبة، وهو وعد قورش. فما علاقة الصهيونية بقورش أو دارا أو أرتحشستا ؟!

بل ما علاقتها بشخصيات العهد القديم ؟!

إن الميكافيلية هي المؤرخ الحقيقي لكل دعاوى الاستعمار بكل أشكاله وألوانه!

وإسقاط العهد القديم بالتحليل والنقد أمر في غاية السهولة لهشاشته وسطحيته وضحالته وتهافته، لكن عندما يتحول إلى أفيون ديني مقدس يحقق المنافع والمكاسب المادية ، تتعقد الأمور!!

فكل يهودي وفي أي زمان ومكان وبغض النظر عن الشكل الذي جعله يهودياً، إن لم يكن أخلاقياً ومؤمناً بقيم الحق والخير والعدل، سيؤمن بالثالوث... فيهوه خاص به. وهو كيهودي من أبناء يهوه، له امتياز عن بقية الشعوب، وفلسطين أرض آبائه وأجداده وليست هي فقط وإنما من النيل إلى الفرات!!

ولو لم تكن في الدين تلك المنفعة / الأرض/ لما وجدنا أي متحمس لذاك الدين!

فاليهودي كمادي حسي يفهم الحساب والعقاب والجنة والجحيم كما فهمها عزرا بالضبط؛ فالارتباط بيهوه نتيجته الجنة التي هي أرض كنعان، أما الابتعاد عن يهوه فنتيجته الجحيم أي الطرد من أرض كنعان. فالحساب والعقاب هنا في الحياة الدنيا.

وما الطقوس والشعائر إلا شكليات أقرب إلى العادات الاجتماعية منها إلى الحقيقة الدينية!

والأمر يرتبط بوعي اليهودي لإنسانيته المستلبة والمخدرة، وإنسانية الآخرين، بوعيه لحقيقة التاريخ والحضارة والقيم...

* * *

تقسم الصهيونية التي تبنت ثالوث عزرا إلى:

1- الصهيونية اليهودية العلمانية العنصرية.

2- الصهيونية اليهودية الدينية العنصرية.

3- الصهيونية غير اليهودية والمؤمنة بأرض الميعاد.

4- الصهيونية الاستعمارية من غير اليهود.(3)

وهذه الأقسام الأربعة ساهمت جميعها في صنع مأساة فلسطين، حيث زرعت الاستعمار الصهيوني اليهودي على أرضها وشردت شعبها.

وهي وإن تعددت أشكالها وأنواعها فإنها تلتقي معاً عند قضيتين من الثالوث: 1- الشعب المختار. 2- أرض الميعاد.

وقضية يهوه تبقى إضافة إيمانية لا أكثر. وتبني القضيتين لأنهما تحققان المنفعة، بينما يهوه يمكن رميه وتجاهله إلا إن كانت هناك ضرورة تخديرية فيُستحضر مباشرة، ويصير الملحد كاهناً من الطراز الأول!

* * *

لقد خرج المتبنون للديانة اليهودية من فلسطين إلى أنحاء العالم في القرن الأول الميلادي كما يقول المؤرخون المؤمنون بذلك!

وهؤلاء من شعوب شتى وجنسيات مختلفة، ولكن الزيف الصهيوني حوّل الدين إلى قومية.

إن الدين شيء، والعرق/ الجنس/ الإثنية/ الشعب...، شيء آخر. كما أن الشعب الواحد/ الإثنية، الأمة.../ قد يتبنى أكثر من دين واحد.

وما فعله عزرا والكتبة وتلقفته العنصرية الصهيونية، هو الدمج بين الديانة كإيديولوجيا، وبين الإثنية / العرق/ الجنس... وبالتالي صار اليهودي هو المؤمن بالديانة اليهودية وفي الوقت نفسه جنسيته /عرقه/ يهودي. وهذا زيف ودجل وضد العلم والمنطق!

إن كلمة اليهود واليهودية وبحسب النصوص / الأسفار/ اليهودية، ظهرت في الأسر البابليّ في القرن السادس والخامس قبل الميلاد، ثم شاعت الكلمة.

ومعنى هذا أن عصر الآباء - كما يُسمونهم - وحتى السبي لم يحمل تلك التسمية. ويقول المؤرخون إن كلمة اليهود صارت اسماً عاماً لكل بني إسرائيل، وهي مرادفة للعبرانيين.

يقول مصطفى مراد الدباغ: (" يهودي" مثل كلمة " إسرائيلي"، تعنيان اليوم معنى واحداً وهما تعنيان في الوقت نفسه " عبراني"). (4)

وهو يتابع كلامه بأن كلمة يهود أعم من لفظة عبرانيين وبني إسرائيل، لأنها تطلق على العبرانيين وعلى غيرهم ممن دخل الديانة اليهودية.

واستناداً إلى النص التوراتي نقول: العبرانية صفة تحولت لتدل على الجنس. وقد جاء في الموسوعة الفلسطينية أن عبيرو أو خبيرو هي طبقة اجتماعية أو فئة في الأكادية والبابلية القديمة. وقد وردت في رسائل تل العمارنة وتعني أعداء الله/ الإله/ والملك والأرض. كما وردت بمعنى القاتل أو القتلة (عصابات - مخربين) أو المحاربين. إضافة إلى معنى " سائقي قوافل الحمير" وذكرت الموسوعة بأن ربط الإسرائيليين بهذا اللفظ: " لا يتفق مع غالبية الأبحاث الرصينة المتعلقة بهذه المجموعات". (5)

وصفة العبراني تقف عند يعقوب لتصير إسرائيل، والتي تشيع بعد أربعة قرون مع موسى ومن معه وحتى الأسر البابلي حيث ظهرت كلمة اليهود وعلى الرغم من ذلك بقيت التسميات تلك متداولة معاً لكن مع تغليب إحداها على غيرها تاريخياً / وبحسب النص/ كما ذكرنا سابقاً.

فمن إبراهيم وحتى يوسف: عبرانيّ.

ومن موسى وحتى الأسر: إسرائيليّ+ يهوذا.

ومن السبي وما بعده – يهوديّ.

والدارس للنصوص لا يرى ترابطاً منطقياً بين تلك المجموعات/ الأقسام/ السلالات/ الزمر... لكن النص صهرهم في بوتقة واحدة، ودمجهم جميعاً، وبالتالي لم يعد التمييز بين تلك التسميات بذي أهمية!

وما يقوله الدباغ حول عمومية لفظة اليهود سليم منطقياً، فهي تعني المتبني للديانة اليهودية سواء أكان ينتمي لتلك السلالة أم لا!

ولنقل اليهودية دين انتمى إليه عدد من الشعوب سواء أكانوا من المنطقة أم من خارجها. أي بغض النظر عن إثنيتها لأنه لا ارتباط بين الانتماء العرقي وبين الإيمان باليهودية!

ولم يعد الفصل بين تلك التسميات مجدياً، طالما صارت تخص اليهود وحدهم ولكن أن يربط يهود اليوم أنفسهم بأولئك كاستمرار طبيعي لهم، أمر سخيف وتافه ولا يستحق النقاش، لأن النص نفسه تحدث عن التهويد والاندماج والتزاوج وفترات الانقطاع الطويلة!!

وبما أن اليهود يعدّون عزرا المؤسس الحقيقي للديانة اليهودية كما تقول الموسوعة الكتابية، فلنر ما تقوله الأسفار وما قاله المؤرخون عما يؤمن به اليهود أنفسهم:

1- يعترف النص باختلاط اليهود بالشعوب الأخرى والتزاوج منهم. وسفر القضاة نموذج واضح. كما أن الأنبياء والملوك والزعماء والقادة تزوجوا أجنبيات وثنيات، وكما ذكرنا في القسم الأول.

2- ذكرنا سفر أستير وكيف تهودّ كثير من شعوب الأرض.

3- وذكرنا كيف أصابت الصدمة عزرا عندما أُخبر بأن اليهود اختلطوا بشعب الأرض، وتزاوجوا منهم بعد مجيئهم إلى أرض كنعان من بابل، ولا سيما رؤساؤهم وعظماؤهم. وقد طلب منهم أن : " اعتزلوا أمم الأرض والنساء الغريبات". (عزرا 10/ 11) ، و " فلا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم". (12/9).

4- خلال المملكة المزعومة وما تلاها من انقسام، كان الاندماج في الآخرين والتزاوج وعبادة آلهة الآخرين، أمراً شائعاً.

5- وفي القرن الثاني قبل الميلاد جرت عمليات تهويد بالجملة وقسراً. فقد ذكر مصطفى مراد الدباغ: " وقد أكره رئيسهم الخامس (هركانوس 135 -104 ق.م) الآدوميين، سكان جنوبي فلسطين على التهود". (6)

كما أن ابن هركانوس أرسطوبولس الأول (104 - 103 ق.م) قام هو وأخوه إسكندر من بعده بإجبار سكان الجليل - الأيطوريين - على اعتناق اليهودية، وأجبروهم على الاختتان.

وهذا ما ذكره أيضاً المؤرخ توينبي: " قيام اليهود المكابيين بقيادة " إسكندر جينوس"، بإكراه سكان الجليل من غير اليهود على اعتناق اليهودية. وذلك في الربع الأول من القرن الأول قبل الميلاد". (7)

6- يتحدث كوستلر عن قبيلة الخزر التي تهودت بدءاً من القرن الثامن الميلادي، على يد اليهود. وصارت الديانة اليهودية هي الديانة الرسمية لإمبراطورية الخزر، والتي استمرت حتى نهاية القرن الحادي عشر. ومع بداية القرن الثاني عشر بدأت الهجرة باتجاه أوروبا ولا سيما ألمانيا. (8)

7- أثبت التاريخ بما في ذلك التأريخ الذي كتبه مؤرخون يهود، بأن يهود أوروبا، غير بعضهم دينه وصار مسيحياً. ومنهم من تزوج مسيحية أو العكس.

* * *

والآن من هو اليهودي؟!

إذا عدنا إلى الأسفار نجد أن عزرا يفصل بين أبناء الله وبنات البشر وبدءاً من سلالة نوح.

ومع إبراهيم وحتى يعقوب يحافظ على النسل الآرامي من الأبوين الحرين.

لكن مع نسل إسرائيل (يعقوب)، يتخلى عن ذاك الارتباط الآرامي. ولم يعد الزواج من الأجنبيات جريمة تلوث النسل المقدس لأبناء يهوه.

فيعقوب يعترف بولديّ يوسف كولدين شرعيين من سلالته وإن كانت أمهما مصرية وثنية. وكذا فعل كثير من أولاده.

لقد صارت الأم أداة تفريخ فقط، والمهم هو الأب. وبعد التغييب الزمني لأربعة قرون مجهولة تماماً حتى عند الحريصين على الأنساب والنسل، نجد أنفسنا أمام موسى ثم ما تلا ذاك من أحداث... وما ذكرناه من نقاط أنهى قضية النسل الصافي العنصري، وبالتالي لم يعد أحد يستطيع القول إن اليهودية مرتبطة بالإثنية!

وإذا ما قفزنا إلى قوانين نورنمبرغ الألمانية التي تعرف اليهودي نجد: " أي الشخص الذي ينحدر من ثلاثة أو أربعة جدود يهود أو من جدين يهوديين وكان في 16 أيلول 1935 يهودياً أو اعتنق اليهودية بعد هذا التاريخ، أو ذاك الذي ينحدر من جدين يهوديين وتزوج في 16 أيلول 1935 أو بعد هذا التاريخ زوجة يهودية ". (9)

ويقول د. رشاد عبد الله الشامي: " اليهودي هو أي شخص ينتسب لأم يهودية أو تحول للديانة اليهودية ولايدين بديانة أخرى ". (10)

ويقول د. أسعد رزوق: " فاليهودي هو المولود من أم يهودية أوسبق لها أن اعتنقت الديانة اليهودية عن طريق رعاة المذهب الأرثوذكسي اليهودي - أي المذهب المعترف به في إسرائيل والمعمول به وحده رسمياً ". (11)

فاليهودي هو من كانت أمه يهودية أو تهود بحسب الأصول. والمؤسسة الدينية تسعى لإضافة جملة " تهود حسب الشريعة وعلى يد حاخام أصولي معترف به". ومن جملة التعاريف: " من يحس بأنه يهودي وينظر إليه من جانب الآخرين باعتباره يهودياً ". (12)

بعد كل هذا نستنتج بأن اليهودي هو المنتمي إلى الديانة اليهودية، ولا علاقة للديانة اليهودية بالإثنية مطلقاً.

وعلى الرغم من ذلك يدعي اليهود نسبتهم إلى إسرائيل / يعقوب/ بل إلى إبراهيم!!

والتوراة تقول إن إبراهيم وإسحق ويعقوب آراميون، وهم مقدسون دون غيرهم من الآراميين. وإن كانوا أقرباء وأهل وأولاد لهم كلوط وإسماعيل وعيسو!!

والنسبة إلى شعب بكامله/ الآراميين/ أسهل بكثير من النسبة إلى فرد منهم.

ثم النسبة إلى أسباط يعقوب/ إثنياً / أمر مضحك لتفاهته!

فالأنساب والسلالات التوراتية خرافات وخزعبلات كلها، وعلى الرغم من ذلك نقول ما علاقة اليهودي بتلك السلالات وهو لا يمت لها بصلة، كما هو الحال بالنسبة للمسيحي في أية بقعة من العالم ونسبته إلى المسيح أو إلى بيت لحم!!
إنها الميكافيلية والبراجماتية قديماً وحديثاً؛ عند عزرا وعند الصهيونية والجوهر هو استعمار الأرض!

* * *

بعد أن طرد اليهود من إسبانيا عام 1492، رحلوا إلى شرقي أوروبا وإلى آسيا حيث ساد الحكم التركي. وقلة رحلت إلى إيطاليا ومنها إلى غرب أوروبا وهؤلاء هم السفارديم. (13)
وخلال العصور الوسطى وكنتيجة لاهتمامات اليهود بقضايا التجارة والمال والربا، وأفكارهم المثيرة للحساسية الدينية، ومن خلال العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، نشأ ما يسمى بالغيتوات الاختيارية أو الإجبارية.
ففي عهد البابا إينوست الثالث (1198-1216م) اتخذت قرارات بحق اليهود كارتداء ملابس خاصة بهم لتميزهم عن المسيحيين. ومنع تعيينهم في المناصب العامة.
وفي منتصف القرن السادس عشر فرض البابا بولس (بول) الرابع الغيتو على اليهود وأخذت الغيتوات تنتشر في أوروبا.
وفي روسيا أواخر القرن الثامن عشر فرضت الإمبراطورة كاترين الثانية أحياء الغيتو على اليهود، وألزمتهم بحمل شارات لتمييزهم من غيرهم...
لقد ظن رجال الدين المسيحي المرتبطون بالنظام الإقطاعي أنهم يخدمون الكنيسة بالتشدد على نسل قتلة المسيح!
وكنتيجة للاضطهاد ولا سيما محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال تبنى كثير من اليهود الديانة المسيحية ومنهم من تظاهر بذلك.
والغيتوات تلك ساهمت في تقوقع اليهود وعدم الاندماج في المجتمعات الأوروبية.
إن اليهود المشتغلين بالمال والربا كانوا من الأغنياء، وكانت الكنيسة تحرم المسيحيين من التعامل بالربا. ومن هنا يمكن فهم التنافس الإقطاعي واليهودي على تحصيل الثروات!
والاضطهاد شمل أقليات أخرى غير اليهود سواء أكانت أقليات دينية مثل اليهود أو إثنية: " ولم يكن الاضطهاد مقتصراً على اليهود. فالنظام الإقطاعي السائد آنذاك امتزج بالتعصب الديني واستخدمه الإقطاعيون في الصراعات الاجتماعية ". (14)
ولا ننسى أن الكنيسة نفسها في القرون الوسطى كانت على قمة الهرم الإقطاعي!
وعلى الرغم مما مر فقد بقيت دول تعترف باليهود كطائفة دينية مستقلة مثل بولونيا والتي صارت ملجأ لكل اليهود الفارين من الاضطهاد سواء أكانوا من الأشكناز أم السفارديم.
ولم تبدأ تلك الغيتوات بالتحطم إلا مع مجيء الثورة الفرنسية عام 1789 والتي طرحت شعار الحرية والإخاء والمساواة.

وبدأت صفحة جديدة في حياة اليهود حيث منحوا حق المواطنة كأي مسيحي. وقد امتد ذلك في أوروبا كلها فيما بعد.(15)

إن اليهود الذين جلبوا كراهية الجميع لهم نتيجة الجشع وحب المال والربا والأنانية، وجدوا في الانفتاح وسيلة للانعتاق وحل معاناتهم.

وجاءت حركة التنوير اليهودية (الهسكلاه) التي قادها الفيلسوف والمفكر اليهودي موسى مندلسون في القرن الثامن عشر، لتضع البرنامج الحقيقي لحل مشكلة اليهود جذرياً.

فقد هاجم مندلسون الغيتو والانعزالية، ودعا إلى الاندماج في الشعوب والانفتاح على الحياة والمعاصرة والعلوم. ودعا إلى الفصل بين الدين والدولة. وعدّ الدين قضية شخصية: " كن يهودياً في بيتك وإنساناً خارج بيتك".

ودعا تلامذته إلى أن يخلص اليهودي للوطن الذي يعيش فيه، وأن يتخلى عن خرافات أرض الميعاد، وانتظار قدوم المسيح المخلص الذي سيحيي المملكة البائدة!

كما هاجموا رجال الدين والمعابد وشنوا حملة ضد التلمود، وعدّوا المعبد والتلمود ورجل الدين مصدر العنصرية، والسبب في وضع اليهود المزري والذي سيؤدي إلى تدميرهم.

لقد استوعب كثير من اليهود هذه المفاهيم واقتنعوا بأن اليهودية دين وليست إثنية /عرقاً / شعباً... وبدأوا بالاندماج والانفتاح. ومنهم من انصهر كلياً في المجتمع الغربي المسيحي رغم أنف عزرا بل ومنهم من اعتنق المسيحية أو تزوج مسيحية...

لقد كان القرن الثامن عشر قرن التحرر الحقيقي لليهود فقد نالوا حقوقهم المدنية وفتحت أمامهم أبواب العمل كلها...

وبدأت البرجوازية اليهودية بتأسيس البنوك والمصارف وصارت تقدم القروض للمشاريع الاقتصادية وبدأت عائدات المال المصرفي تنهال عليها...

وهنا بدأت بذور الصهيونية!!

* * *

إن تكدس الأموال في بنوك ومصارف اليهود فتح شاهية الاستعمار الغربي للاستفادة من تلك الأموال في تغطية نفقات طموحاته وأطماعه الاستعمارية خارج القارة الأوروبية، لنهب ثروات الشعوب وللسيطرة على التجارة الدولية والطرق المؤدية إليها.

وهنا أستدعي ثالوث عزرا للاستفادة من اليهود في قضيتين:

1- الرأسمال اليهودي. 2- بناء قاعدة شرقي المتوسط / فلسطين/ لتأمين حماية الطرق الاستراتيجية للتجارة العالمية!

وتلك القاعدة موجودة في أسفار العهد القديم، والتي تمثل القسم الأكبر من الكتاب المقدس عند المسيحيين!

فجاءت صرخة نابليون بونابرت في نهاية القرن الثامن عشر كبيان نشره بين اليهود: " سارعوا ! إن هذه هي اللحظة الحاسمة المناسبة التي قد لا تتكرر لآلاف السنين - للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سلبت منكم لآلاف السنين وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم، وحقكم الطبيعي المطلق في عبادة يهوه". (16)

وقد أخفق نابليون في استعمار فلسطين وجعلها قاعدة يهودية تابعة له للسيطرة على طرق التجارة الدولية، أمام المنافس الأكبر له بريطانيا!

إن موقع فلسطين الجغرافي والاستراتيجي جعل أنظار المستعمرين الغربيين تتهافت عليها، ولأن ثالوث عزرا الاستعماري يرتبط بها، أستغل كدين يخدم مصالح الرأسمالية الغربية والتي وصلت الصناعة فيها إلى أعلى درجاتها المكونة لفائض الانتاج والتي لابد لها من أسواق للتصريف خارج القارة!

وبدأت تظهر كتابات استعمارية، ولكنها تضرب على أوتار دينية ومن هذه الكتب كتاب جيمس بيتشينو الذي دعا فيه إلى: " تجميع يهود العالم في فلسطين، تحقيقاً للنبوءات التوراتية، وسعياً إلى حل الأزمات التي تجتاح الدول المسيحية والدول العثمانية ". (17)

كما أن الرأسمالية اليهودية أخذت تفكر بالاستعمار مثل بريطانيا وفرنسا، وصارت تفكر بالشراكة مع الإمبريالية وليس التبعية الذيلية لها!

واستغلت أوضاع اليهود التي كانت تسير باتجاه الحل الاندماجي، فحاربت بعنف دعوات الاندماج التي دعت إليها حركة التنوير اليهودية. وطالبت بالمحافظة على كينونة اليهودي والتي ستذوب وتتلاشى في الاندماج، اقتداء بعزرا! ودعت إلى إقامة دولة قومية لليهود على غرار القوميات التي خلقتها البرجوازيات الغربية في أوروبا.

يقول موزس هس: " المشكلة اليهودية هي آخر مسألة قومية في أوروبة، وإن حلها لا يكون إلا بعودة اليهود إلى وطنهم التاريخي"... ويتابع كلامه: " قام كتّاب عبرانيون ينتقدون اندماج اليهود الغربيين ويطالبون ببعث اللغة العبرية والعودة إلى عقيدة الخلاص، لأن نهضة اليهود الروحية والحضارية لا يستقيم أمرها إلا في وطنهم". (18)

إن هس حارب الاندماج وحركة التنوير اليهودية لأن ذاك الاتجاه يحبط المشروع الاستعماري، ولا سيما وأن طريق الاندماج كان يسير بسرعة هائلة.

يقول المفكر الصهيوني روبنشتاين: " نستطيع أن نقول بأن واقع اليهود التاريخي أثبت، ومازال يثبت - وخاصة في غرب أوروبا وأمريكا - أن انعتاق اليهود وانصهارهم، قد تم بسرعة ونجاح مذهلين، إلا أن الصهاينة لم يتقبلوا هذا النجاح التاريخي النسبي، لأنهم كانوا منشغلين بترقب نجاحهم في مخططهم للعودة إلى (أرض الميعاد) والخلاص الأبدي". (19)

فالرأسمالية بدلاً من المساهمة في حل مشكلة اليهود، وقفت ضدهم لتستغلهم في طموحاتها الاستعمارية.

وقد تبنت الأفكار العنصرية في ثالوث عزرا. وربطت بين الدين والإثنية. ونادت بالروح القومية وبتأثير أفكار فيخته العنصرية.

ودعت في البداية إلى استعمار أي بلد ما ليكون مجمعاً لليهود ليمارسوا الاستغلال مستقلين ودون منافس. ولكن لإقناع اليهود بمشروعهم كان لابد من ثالوث عزرا والذي يرتبط بفلسطين حصراً.

وهكذا التقت أفكار الصهاينة العلمانيين والمتدينين وتبنت مشروع إقامة دولة لليهود في فلسطين في مؤتمر بال في سويسرا عام 1897م.

" وكان أولهم في ذلك حاخامون ورأسماليون ينتمون، بأصولهم، إلى أوساط تدين بالتراث". (20)

إذاً في الوقت الذي كان فيه الكثير من فقراء اليهود قد اندمجوا في المجتمع الغربي، وانخرطوا في نضالات الشعوب الأوروبية ضد المستغلين والرأسماليين، تقف الصهيونية ضدهم لتدعوهم إلى الذهاب إلى فلسطين لإقامة وطن قومي بناء على الدين!

والدعوة القومية تلك والمرافقة لعصر نهوض القوميات في أوروبا، كانت مترافقة مع الامتداد الإمبريالي في العالم.

وهذا يعني أن الصهيونية استغلت الدين ولاسيما ثالوث عزرا، لكن في النهاية، لا التوراة والأسفار ولا التلمود في أذهان زعماء الصهيونية.

وتبنت الرأسمالية الغربية المشروع الصهيوني لأنه يخدم مصالحها بل هي فكرت فيه قبل اليهود: " إن اهتمام البورجوازية اليهودية العليا (أمراء المال) بالمشروع الصهيوني جاء متمماً لاهتمام الإمبريالية الحاكمة في بلدين مثل بريطانيا وفرنسا". (21)

" ولما كانت الحركة الصهيونية في بدايتها بحاجة إلى الرعاية والدعم، فإن الإمبريالية الغربية بقيادة بريطانيا ومن ثم الولايات المتحدة الأمريكية لم تأل جهداً في الدعم المستمر لبناء وتقوية الحركة الصهيونية ". (22)

* * *

كما أن الصهيونية ركزت على الشعب المختار في ثالوث عزرا فادعت بأن اليهود شعب عبقري ويمتلك قدرات عقلية وفكرية وعملية تفوق الأوروبي نفسه. وأن الآخرين يكرهون اليهودي حسداً وغيرة من كونه شعب الرب الخاص المميز بذكائه الخارق!

يقول ناحوم كولدمان واصفاً اليهود بأنهم: " شعب يكاد يكون، على ما أرى، فريداً في تاريخ البشرية "... وهو " يختلف بأساسه ومبدئه عن كل تكوينات التاريخ الجماعية التي تدعى شعوباً وأمماً. فهو شعب وجماعة دينية في آن واحد.

وهذه الخاصة تميزه عن غيره من الشعوب التي لم توحد يوماً بين ولائها الديني وهويتها القومية، حتى ولو كان لها دينها الخاص". (23)

لقد تحدثنا سابقاً عن فصل اليهودية كدين عن الإثنية لأن اليهود خليط من جنسيات /عروق/ مختلفة.

ولا أحد يدعي بنقاء الدم والعرق إلا النازية والصهيونية وهما توءمان.

ومفهوم الشعوب لا يقوم على الدين، فهناك سمات نفسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وتاريخية، متفاعلة في مجتمع ما. فهل توفرت تلك السمات لليهود في تجمعاته في أنحاء العالم!؟

إن التفوق العقلي ما هو إلا خرافة من الخرافات العنصرية التي تبنتها الصهيونية كتعويض نقص ليس إلا، أمام أوروبا الاستعمارية.

وإذا أردنا أن نعرف سبب كراهية الآخرين لليهودي لندرس حياة اليهودي المعاشة، وعبر علاقاته بالآخر. لندرس الانغلاق والانفتاح وما يعنيه الغيتو والغوييم في مفهوم اليهودي نفسه.

وما دور اليهودي الاجتماعي والاقتصادي في التاريخ وليس خارج التاريخ.

لندرس اليهودي المحب للمال والربا والجشع واستغلال الآخرين. لننظر إلى أنانيته ونرجسيته التي جعلته فوق الجميع!

يقول ماركس في رده على باور: " لننظر إلى اليهودي الواقعي، لا يهودي السبت، كما يفعل باور، بل يهودي كل الأيام.

لا تبحثن عن سر اليهودي في دينه، بل لنبحث عن سر الدين في اليهودي الواقعي.

ما هو الأساس الدنيوي لليهودية ؟ الحاجة العملية، المنفعة الشخصية، ما هي عبادة اليهودي الدنيوية ؟ المتاجرة. ما هو إلهه الدنيوي ؟ المال.

إذن، بانعتاقه من المتاجرة ومن المال، بالتالي من اليهودية الواقعية والعملية، العصر الراهن سيعتق نفسه بنفسه.

إن تنظيماً للمجتمع يحذف الشروط الضرورية للمتاجرة، بالتالي إمكانية المتاجرة، يجعل اليهودي مستحيلاً.

الوعي الديني لليهودي سيتلاشى، مثل بخار لا طعم له، في الجو الحقيقي للمجتمع". (24)

* * *

ولكي تحمي الرأسمالية اليهودية نفسها من المنافسة والمزاحمة، ولتطلق العنان لنفسها في جمع الأموال وبكل الطرق المشروعة وغير المشروعة اختلقت قضية اللاسامية / العداء للسامية، العداء لليهود!!

إن سيطرة أغنياء اليهود على كثير من البنوك والمصالح الاقتصادية الهامة ومشاركتها في مشاريع حيوية... خلق جواً من المنافسة بينها وبين الرأسمالية المسيحية.

وهذا الأمر جعل قسماً من الرأسماليين اليهود، ينتقلون إلى دول أوروبية غير فرنسا وبريطانيا، بحثاً عن فرص أكثر للتوسع الرأسمالي والسيطرة والهيمنة. ووجد بعضهم في ألمانيا هدفهم. لكن الرأسمالية الألمانية خشيت من المنافس القادم بوحشية.

وبدأت تظهر كتابات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تندد بالرأسمالية اليهودية الجشعة.

يقول يوجين ديرينغ في كتابه: " إن العنصر اليهودي هو أسوأ عناصر العرق السامي، هدفه التسلط على العالم واستعباد الشعوب الأخرى". (25)

فجشع الرأسمالية اليهودية ولّد اللاسامية. وإثارة هذه القضية ولدرجة مبتذلة يحقق لها المزيد من المكاسب.

وقد بقي هذا الشعار المزيف حتى هذه اللحظة كسلاح فوق رقاب الأوروبيين أنفسهم!

يقول د. رشاد عبد الله الشامي في معرض حديثة عن اللاسامية: " إن اليهودي يعتقد بأن ما حل به: " إنما يرجع لكونه يهودياً، وأن من يسعون لإيذائه مصابون بداء " اللاسامية ". والمنطق الطبيعي يقول عكس ما يدعيه اليهود، لأن العداء للسامية هو رد فعل لعداء اليهود لغير اليهود، أو عداء السامية لغير الساميين. وهكذا أصبح شعار معاداة السامية سلاح إرهاب مسلط على كل من يدفعه ضميره أو تفكيره إلى معارضة مخططات الصهيونية من رجال السياسة والفكر. وقد ترتب على هذا أن تمكن الصهيونيون من احتواء الفكر الغربي". (26)

فاللاسامية سلاح يستخدم لإسكات من يفضح شرورهم وعدوانيتهم وعنصريتهم.

ويقول كوروف: " إن اتهام كل من يعارض السياسة العدوانية لإسرائيل بالشرق الأوسط وكل من ينتقد مسلمات الصهيونية وكل من يسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية - اتهامهم جميعهم بالعداء للسامية - يعد وسيلة من بين ترسانة الوسائل التي تكثر الصهيونية استعمالها بسفالة لا حدود لها في هذا الصراع ". (27)

* * *

وأخيراً تمكن الصهاينة اليهود بالتنسيق مع الصهاينة غير اليهود، من صنع وعد بلفور، بعد أن احتلت بريطانيا فلسطين. وأخذا يعملان معاً لإقامة كيان مصطنع لليهود.

ولقد ساهمت الصهيونية غير اليهودية ، الأوروبية والأمريكية على خلق الكيان المزيف وقدموا له كل ما بوسعهم لخدمة أهدافهم الاستعمارية في إنشاء قاعدة استعمارية تحمي مصالحهم وهيمنتهم وسيطرتهم.

ولقد قلنا إن الشعب / القومية / الأمة... تولد طبيعية من خلال عوامل متفاعلة تاريخياً. ولا يمكن أن تُصنع. فالمصنع يصنع سيارة، آلة... ولا توجد مصانع لصنع وإنتاج شعب، أمة... من العدم!!

وما يعانيه الاستعمار الصهيوني في فلسطين المحتلة كجسم غريب مصطنع ومنبوذ - إلا من الأنظمة الرخيصة - يثبت استحالة استمراره مهما استند إلى الإرهاب والبطش والعدوانية والوحشية. ومهما فعل الغرب المزيف المنافق هو وأمريكا، واللذان يدعيان الدفاع عن الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان. وفي الوقت نفسه يصفان كيان المستعمر الصهيوني والمسمى بإسرائيل: " إسرائيل مجتمع متحضر تسوده العدالة والرخاء، وهي دولة مسالمة تسودها الديمقراطية، وزعماؤها أكفّاء..." (28)!!

* * *

لقد ظن الصهاينة بخداعهم لليهود من خلال ثالوث عزرا، بأنهم سيصنعون من الدين قومية وكياناً طبيعياً!

وجاء اليهود مخدرين بتحقيق ثالوث عزرا ولا سيما الشعب والأرض. ولكن وحتى هذه اللحظة لم يستقر الكيان، ولم يخلق التجانس بين الشعوب المتعددة الإثنيات والتي لها لغاتها المختلفة وعاداتها وتقاليدها وتاريخها وتراثها...

وهذا لأنهم - ولغبائهم - جعلوا الدين إثنية / عرقاً. فما علاقة الروسي اليهودي بالأمريكي اليهودي، أو الفرنسي اليهودي بالفلاشا، أو البريطاني باليمني أو...

فلكل من هؤلاء بنية تختلف عن الآخر بحسب طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية والتاريخية والثقافية.

وما صنعوه هو القومية الدينية المزيفة!!

يقول شلومو بن عمي: " إن هذا المجتمع الذي أنشأه الآباء المؤسسون من الصهاينة على أن يكون بوتقة صهر تمتزج فيها مختلف الثقافات واللغات، تحول إلى مجتمع متعدد الأعراق ومتعدد الثقافات ومتعدد الطوائف. لقد تغيرت وتفتت الصورة الأسطورية المأمولة لتحل محلها صور أخرى عديدة لكل منها شرعيته...

بين اليهودي والعربي، والمتشددين دينياً (الحريديم) والقوميين الدينيين (جوشو أمونيم) والتقليديين والعلمانيين وغيرهم ممن تمتد جذورهم إلى أصول عرقية مختلفة مثل (السفاراديم) و(الأشكنازيم) و(المهاجرين الروس) و(الإثيوبيين)

وغيرهم. وقد أدى هذا التفتت للصيغة الإسرائيلية إلى تشرذم المجتمع بين ثقافات وطوائف مختلفة، ولهجات متباينة وبين مواقف متصارعة تجاه الدولة اليهودية ".

ويرى بن عمي أن هذه الانشقاقات: " تؤهل لحدوث انفجارات عنيفة داخل المجتمع". (29)

* * *

إذاً تلك هي الصهيونية وارتباطها بثالوث عزرا الاستعماري العنصري وما وصلت إليه.

والكيان المستعمر الذي تحميه عسكرة المجتمع وحراب الأمريكيين والغربيين سيبقى جسماً غريباً لا آفاق له وإن طال الزمن.

فكل يهودي على أرض فلسطين هو صهيوني ومستعمر، ولن تنفعه خرافاته (30)، المستمدة من عزرا أو من شرعية الأمم اللا أخلاقية، أو من الصاروخ، في قلب الحقائق وإلغاء حق الفلسطيني المتجذر في فلسطين منذ أكثر من خمسة آلاف سنة وحتى الآن!

ولا حل للمشكلة اليهودية إلا بالعودة إلى أوطانهم التي جاؤوا منها وأن يعودوا إلى أحضان المدرسة التنويرية اليهودية.

يقول برودسكي: " لقد اعتبر لينين محاولة الصهاينة عزل اليهود عن الشعوب الأخرى سياسة خاطئة. وأشار إلى أن أفضل وسيلة وأسهلها لليهود أنفسهم هي أن ينصهروا تدريجياً وطوعاً في الشعوب التي يعيشون بينهم. فيتبنون لغتها وقواعد سلوكها وعاداتها. وكتب يقول: " هذه على وجه الدقة هي المشكلة اليهودية: الانصهار أو العزلة ". (31)

وهذا بالضبط هو الحل أن يندمجوا في شعوب العالم، وأن يلغوا من دينهم ثالوث عزرا الاستعماري العنصري.

* * *

هوامش القسم الثاني ـ الفصل الأول ـ الصهيونية وثالوث عزرا

(1) د. رشاد عبد الله الشامي: القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة - ص 54.

(2) المرجع السابق: يعطينا صورة واضحة عن أثر رجال الدين اليهودي في الحياة العامة وشؤون الدولة.

(3) إن الصهيونية اليهودية لم تصنع مشروعها على أرض فلسطين وحدها. وليس باستطاعتها ذلك لولا الصهيونية الأوروبية غير اليهودية وكذلك الصهيونية الأمريكية. فهما اللتان قدمتا المشروع لليهود على طبق من ذهب. راجع كتاب: الصهيونية غير اليهودية - جذورها في التاريخ الغربي: د. ريجينا الشريف.

(4) مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين (ج1 القسم 1) – ص574.

وراجع كتاب د. أحمد داود: " العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود". لمعرفة دلالة كل مصطلح.

(5) الموسوعة الفلسطينية - القسم الثاني - المجلد الثاني (الدراسات التاريخية) - ص 103.

(6) مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين - (ج1 القسم الأول) ص 600.

(7) المرجع السابق - ص 601.

والجدير بالذكر أن جاينوس أو جينوس (103 - 76 ق.م) تعاون مع الفرس لتكوين مملكة في أورشليم. إلا أن الرومان الذين جاؤوا فيما بعد قضوا على المملكة وعلى النفوذ الفارسي في المنطقة. وقد احتل بومبي المنطقة 36 ق.م.

(8) آرثركوستلر: إمبراطورية الخزر وميراثها (القبيلة الثالثة عشرة) - ترجمة حمدي متولي مصطفى صالح. لقد عد كوستلر الخزر السبط الثالث عشر. وهذا كلام مضحك! فالمقصود بالأسباط الاثني عشر أولاد يعقوب، ونسلهم اختلط فيه الحابل بالنابل - وبحسب النص - ولم تعد هناك رابطة بين جماعة موسى وبينهم إلا بالتسمية. ثم انقرضت عشرة أسباط بعد السبي الآشوري. واندمج سبطان في سبط واحد هو يهوذا. أي لم يعد هناك سوى سبط واحد وبحسب ما ترويه الأسفار. وذاك السبط الذي صارت تسميته (اليهود) اختلطت فيه شعوب كثيرة تهودت. أي بمعنى آخر انقرضت الأسباط كلها ولم يبق إلا اليهود. والأجدر بالمؤلف أن يقول: (القبيلة المتهودة).

(9) د. على المحافظة: العلاقات الألمانية الفلسطينية - تنظيم هجرة اليهود الألمان إلى فلسطين – ص 215.

(10) د. رشاد عبد الله الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل - ص 172.

(11) د. أسعد رزوق: التلمود والصهيونية - ص 267.

وراجع كتاب د. عبد الوهاب محمد المسيري: الأيديولوجية الصهيونية - بحث قضية الهوية ص 264 وما بعد.

وراجع كتاب ول ديورانت: قصة الحضارة (م1 ج2 - ص 303). حيث يصف الأنف الحثي ليستنتج أن الحثيين " اختلطوا بالعبرانيين الأقدمين اختلاطاً شديداً أكسب هؤلاء أنفهم الأقنى الشديد القنا ومن ثم فإن من واجبنا أن نعد هذه الخاصة العبرية " آرية " حقة ". (والأنف الأقنى كما في المعجم الوسيط: قنا الأنف: ارتفع وسط قصبته

وضاق منخراه). ويتابع ديوارنت وصفه لليهودي (ص 328) فيقول: " الأنف الحثي الطويل الأقنى، والوجنتين البارزتين، وشعر الرأس واللحية المتلوى...".

إن الصفات الشكلية للعرق أسقطها العلم، لأنه لا وجود لعرق صافٍ أبداً لاقديماً ولا حديثاً ولا في الجهات الأربع! وحتى عالم النفس اليهودي هانز إيزنك رفض وجود شكل محدد لليهودي.

فتلك النظرية عنصرية وسخيفة!

(12) الجوهر الرجعي للصهيونية – ص 9.

(13) السفاراديم: صيغة الجمع العبرية من كلمة سفارادي نسبة إلى إسبانيا باللغة العبرية القديمة. وهم اليهود الذين طردوا أو هربوا أو هاجروا من إسبانيا نتيجة القمع المسيحي لهم. وقد توجهوا إلى شرق أوروبا وآسيا حيث سلطة العثمانيين. ووجدوا الأمان في ظلها. فالمصطلح يطلق على يهود شمالي أفريقيا وتركيا واليونان والبرتغال إضافة إلى إسبانيا.

أما الأشكنازيم ومفردها أشكناز (الاسم القديم لألمانيا باللغة العبرية). والمصطلح يطلق على يهود شرقي أوروبا وغربها وهم من أصول خزرية. أما مصطلح اليهود الشرقيون فهو يتعلق بيهود البلاد العربية...

(14) إميل توما: جذور القضية الفلسطينية - ص 25.

(15) في أمريكا مُنح اليهود حقهم عام 1830. أما في أوروبا فقد تأخر الأمر أربعين عاماً حتى تحرر اليهود في كل أوروبا عدا إسبانيا والبرتغال حيث تأخر إلى بدايات القرن العشرين.(في البرتغال 1910 - في إسبانيا 1919). أما في روسيا وبعد اتهام اليهود باغتيال القيصر إسكندر الثاني 1881، جرت مذابح لليهود أدت إلى هجرة الكثيرين إلى أوروبا وأمريكا. ولكن البرجوازية اليهودية الكبيرة استطاعت أن تنشئ الكثير من البنوك والمصارف في روسيا. وساهمت في صناعات متعددة وامتلكت مطاعم وفنادق... وقد ترعرعت الصهيونية في أحضان يهود روسيا وبولونيا ومنهما امتدت إلى سائر أوروبا.

لكن حزب البوند كان شرساً وفي أدبياته تفوح رائحة الانتقام والثأر بسبب إذلال اليهود في عهد القيصرية. وقد حقدوا على البشرية وحملوها المسؤولية " وأدانوا الإنسانية كلها " (د. هاني الراهب: الشخصية الصهيونية في الرواية الإنكليزية - ص 164).

وجاءت الثورة البلشفية عام 1917 لتضع الحل الإنساني لهم. واصطدم لينين مع البوند. وقد رفض الفكرة الصهيونية وعدها حركة رجعية وطالب اليهود بالاندماج في الشعب الروسي...

(16) د. ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية - ص 107.

(17) د. علي المحافظة: العلاقات الألمانية الفلسطينية – ص 95.

(18) شمويل أتينغر: من الفكر الصهيوني المعاصر - ص 46-47.

(19) روبنشتاين: نقلاً عن كتاب القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة – للد. رشاد عبد الله الشامي - ص 16.

(20) شمويل أتينغر: من الفكر الصهيوني المعاصر - ص 46-47.

(21) د. جلال صادق العظم: الصهيونية والصراع الطبقي - ص 82.

(22) د. عبد المالك خلف التميمي: الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي - ص 109.

(23) ناحوم كولدمان: من الفكر الصهيوني المعاصر - ص 328.

(24) ماركس: حول المسألة اليهودية - ص 200.

(25) صبري جريس: تاريخ الصهيونية - ص 48. ويذكر الكاتب قضية الضابط اليهودي الفرنسي درايفوس الذي اتهم بالخيانة العظمى لتقديمه معلومات إلى ألمانيا عام 1894. والذي أدى إلى زيادة كراهية الفرنسيين لليهود.

(26) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية - ص 38.

(27) كوروف: الجوهر الرجعي للصهيونية - ص 81.

(28) السيد يسين: الشخصية العربية - ص 61.

(29) من كتاب د. رشاد عبد الله الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل – ص 210.

(30) في كتاب " الجوهر الرجعي للصهيونية " - مقال بعنوان: خرافات الصهيونية السبع: شاهنو فيتش - ص 23 وما بعد.. يعدد الكاتب تلك الخرافات السبع: 1- أبدية العداء للسامية 2- نقاوة الجنس اليهودي 3- الأمة اليهودية العالمية 4- الوحدة اليهودية خارج الإطار الطبقي (وهنا يتحدث الكاتب عن استغلال اليهود الأغنياء لليهود الفقراء وللعمال. ووقوف الحاخامات إلى جانب الأثرياء اليهود ضد الكادحين...). 5- ادعاء اليهود بأنهم يعيشون مضطهدين في الغيتو الذي هم فرضوه على أنفسهم ويرفضون الخروج منه والاندماج في الآخرين 6- جوهر الدين في الصهيونية 7- أرض الميعاد.

(31) برومان برودسكي: الحقيقة حول الصهيونية - ص 139- (مجلة شؤون فلسطينية العدد 52).

وسنضيف هنا بعض كلام برودسكي لأهميته: (" ومنذ البداية تبنت الصهيونية العالمية، اليهودية أيديولوجية لها. فإن الأساطير التي اخترعها الحاخاميون اليهود حول كون اليهود شعب الله المختار، وحول أرض الميعاد وارتفاع هيكل دمره الرومان سنة 73 بعد المسيح..." " وجهود الحاخاميين للمحافظة على عزلة الجاليات اليهودية - كل ذلك اتفق تمام الاتفاق مع الأهداف السياسية للزعماء الصهاينة..." " هم يوسعون الادعاء اليهودي حول كون اليهود شعب الله المختار ليزعموا أن اليهود "عرق نبيل" و " أنقى الأعراق بين أمم العالم المتمدنة ". وبعدما أعادوا تأليف بحث يرقى عهده إلى القرن الرابع كتبه حكماء تلموديون، فإنهم يستعملونه الآن ككتاب للتعليم الديني في المدارس الإسرائيلية، والكتاب يخبر التلاميذ أن اليهود هم " نخبة البشرية " وأن " أقوام الجنسيات الأخرى يجب أن يكونوا عبيداً لليهود").

وهذا الكلام يدل على زيف الغرب ونفاقه، ألا يعرف حقيقة الصهيونية، وما جرى ويجري! فليست القضية قضية السيطرة الإعلامية الصهيونية على العقل الغربي كما يدعي بعضهم، وإنما هي ارتباط المصالح الغربية الاستعمارية مع المصالح الصهيونية الإسرائيلية الاستعمارية. وهي أيضاً العنصرية الغربية القائمة على الغطرسة

والتعالي والعنجهية، واحتقار الشعوب الفقيرة والمتخلفة نتيجة فقرها. والغرب الاستعماري هو المسؤول عن امتصاص خيراتها وما آلت إليه ظروفها. ولأنه لا يمتلك الإحساس الإنساني ولا الضمير، لا يقبل أن يعترف بجرائمه وأن يدين نفسه وأن يصلح ما أفسده بجرائمه. وما مؤتمر دوربان في جنوب أفريقيا إلا شاهد حي على التقاء الصهيونية العنصرية المستعمرة مع العنصرية الاستعمارية الغربية!! وكل من ينفي العنصرية والاستعمار عن الصهيونية إنما هو إما غبي ومغفل أو عنصري مستعمر.

وراجع أيضاً ما كتبه يوري إيفانوف حول الصهيونية في كتابه: احذروا الصهيونية.

* * *

القسم الثاني:

الفصل الثاني
نقد مفهوم "الشخصية اليهودية"

درسنا في القسم الأول الشخصيات الأسطورية المتنوعة والتي رسمتها أقلام عزرا والكتبة لتسقط عليها الثالوث. وقد تبين أن لكل شخصية سماتها التي تختلف عن الشخصيات الأخرى.

وهذا يعني أن الشخصية تتعلق بالفرد، ولا يمكن أن تكون هناك شخصية كلية، تنضوي تحتها مجموعة من الشخصيات / الأفراد..

ومايذكره الآخرون عن الشخصية اليهودية أو الشخصية الصهيونية أو الشخصية الإسرائيلية هو مجرد خرافة لا أكثر!!

ولننظر في تعريف الشخصية في علم النفس:

1- الشخصية سمات تميز الشخص من غيره:

يقول د. حامد زهران في تعريف الشخصية: " السمات الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية التي تميز الشخص عن غيره".(1)

2- تكامل السمات المميزة لفرد ما:

يقول د. فاخر عاقل: " تكامل الصفات الجسدية والخَلْقية المميز لفرد ما بما في ذلك بناؤه الجسدي وسلوكه واهتماماته ومواقفه وقدراته وكفاءاته، كلية الشخصية كما يراها الآخرون".(2)

3- الشخصية هوية للفرد:

يقول د. أحمد زكي بدوي: " نظام متكامل من مجموعة الخصائص الجسمية والوجدانية والنزوعية والإدراكية التي تعين هوية الفرد وتميزه عن غيره من الأفراد".(3)

والهوية تتعلق بالحالة الشخصية الفردية (الاسم ، الجنسية، السن، المهنة، الحالة العائلية..).(4)

والهوية في علم النفس هي نفسها في علم المنطق: " أن يكون الشيء نفس الشيء أو مثيله من كل الوجوه. الاستمرار والثبات وعدم التغير".(5)

4- سمات متفاعلة في الفرد:

يقول د. يوسف مراد: معنى الشخصية: " يشمل جميع الصفات الجسمانية والوجدانية والعقلية والخلقية في حالة تفاعلها بعضها مع بعض وتكاملها في شخص معين يعيش في بيئة اجتماعية معينة ".(6)

وتكامل الشخصية / السوية / في التعريف السابق هو: " تنسيق هذه السمات بحيث تكمل بعضها بعضاً وتمكن الشخص من أن يسلك دائماً سلوكاً ناجحاً ".(7)

إذاً من خلال تلك التعريفات نجد أن الشخصية فردية ولها سمات تميزها عن غيرها من الأفراد والشخصيات سواء أكانوا ضمن المجموعة التي تنتمي إليها أم لم يكونوا.

والعنصرية، ولاسيما الصهيونية، أرادت أن تجعل لليهودي شخصية مميزة من خلال تعميم تلك الشخصية، بمعنى ما أن تجعلها كلية / جمعية / نمطية... ، على نمط الروح الجماعية، أو العقل الجمعي عند العنصرية النازية.

وذاك كله طرح لا علمي. يقول د. أحمد زكي بدوي عن روح الجماعة: " تعبير غير علمي يقصد به الشعور بالتضامن وهو أحد مظاهر التكامل الاجتماعي".(8)

وهو ينتقد أيضاً العقل الجماعي مع الإشارة إلى اختلاف ميادين علم النفس وعلم الاجتماع حول ذلك.

ويذكر أن الاتجاه العلمي الحديث يرفض ذلك ولكنه: " يدرس تفاعل الفرد مع الأفراد الآخرين أي أنه لا يتخذ الفرد وحده بمعزل عن الجماعة ولا يتخذ الجماعة وحدها بمعزل عن الفرد".(9)

نستنتج من ذلك أن الروح الجماعية أو العقل الجماعي، أو الشخصية الكلية كل ذلك أوهام وخرافات صنعتها العنصرية.

فالعلم يقول هناك شخصية فردية مقابل / مواجهة / المجموعة، التي تنتمي إليها، بما تتسم به من صفات تميزها.

ولا يمكن للمجموعة ككل، أن تكون شخصية واحدة لها سمات واحدة مقابل مجموعات أخرى غير مجموعتها.

ومن هنا يسقط ما يسمى علم النفس الجماعي. يقول د. شارل بلوندل: " وكل الأبحاث التي هيأت لها سيكولوجيا العروق لا تنفعنا بنقير ولا قطمير هنا.

ذلك بأنه ولو فرضت فيها القيمة الموضوعية التي طالما أنكرت عليها، فإنما هي مهتمة بشرائط النمو الذهني الفيزيولوجي لا بشرائطه الاجتماعية.

وليس لعلم النفس الجماعي - في بداءة عهده على الأقل - أن يتوقع جني ثمرة مفيدة من ذلك.

وأما سيكولوجيا الشعوب التي استنفدت فيها المحابر، فليس في استطاعتها أيضاً خلافاً للظاهر، أن تعين علم النفس الجماعي في شيء مفيد. فإن مبدأ هذه السيكولوجيا باطل".(10)

فالشخصية تبقى فردية علمياً، وواقعياً، ومنطقياً... وفي علم النفس وعلم الاجتماع، والتاريخ أيضاً.

ولا وجود لشيء اسمه الروح الجماعية أو العقل الجماعي أو علم نفس الجماعة. ويمكن الحديث عن كينونة الفرد وسيكولوجيته. أما عن ارتباطه بالآخرين فيمكن الحديث عن أفكار المجموعة، إيديولوجيتها، مبادئها، أعمالها، تعاونها، تضامنها...

ولم تتمكن الديانة اليهودية ولا الحركة الصهيونية ولا أية تنظيمات أو أحزاب عنصرية، من صنع تلك الشخصية الجمعية مهما ادعت من هلوسات وشعوذات.

وما فعلته يجعل الشخصية شخصيات لا حصر لها: شخصية إنكليزية أو فرنسية... ، شخصية بوذية أو مسيحية... ، وشخصية رأسمالية، اشتراكية، ماوية، ماركسية... ، وشخصية بحرية أو برية أو جوية... ، وشخصية رياضية...!!

هناك شخصية واحدة فردية تحمل أفكاراً سواء أكانت دينية أم غير دينية، قومية أم غير قومية، يمينية أم يسارية، تقدمية أم رجعية...

وتلك الأفكار التي تحملها / تتبناها/ تؤمن بها... ، تكون نتيجة جدل مع الآخر عبر علاقات اجتماعية، اقتصادية، تاريخية...

* * *

إذاً لا يوجد قالب واحد لليهود سواء أكانوا متدينين أم غير متدينين. وسواء أكانوا استعماريين أم غير استعماريين. فلكل شخصية سماتها الخاصة بها وحدها.

ونحن لم نجد في شخصيات العهد القديم شخصية تطابق أخرى. نعم قد تتناقض بين القول والعمل أو تتشابه في الجرائم والعدوانية والشراسة والطمع، أو تتشابه في أفكارها... ولكن كل ذلك لا يوحد ولا يصهر الشخصيات المتعددة في شخصية واحدة. فهل شخصية موسى هي نفسها شخصية يشوع ؟!

وهل شخصية سليمان متماهية في شخصية أبيه داود ؟!

إن لكل منهما شخصيته المميزة والمستقلة.

ولقد حاول عزرا والكتبة أن يرسموا شخصية نموذجية تكون قدوة ومثلاً أعلى وكاريزما، يحتذى بها من جوانبها كلها، ولكنهم لم يفلحوا مطلقاً!

لقد ارتبطت تلك المفاهيم اللاعلمية (الشخصية الكلية، الروح الجماعية، العقل الجماعي...) بالعنصرية التي ادعت نقاء العرق وصفاءه، إضافة إلى التفوق العقلي!

وقد بينا زيف المفهومين وتفاهتهما. وهما ليسا إلا خرافتين من الخرافات الكثيرة التي ادعتها الصهيونية.

والصهيونية بذلك لم تكتف بتزييف التاريخ والعلم والحقائق، بل تستغبي الآخرين الذين يدورون في فلكها!

ولم تقف عند حد دمج الانتماء الديني في الإثنية بل ادعت أن اليهود يشكلون أمة واحدة !!

والأمة لها مقومات موضوعية متفاعلة لم تتوفر ولا بأي شكل من الأشكال في اليهود.

ويكفي أن ننقل رأي برودسكي حول ذلك، فهو يقول: " تبنى الصهاينة تحديداً سخيفاً " للأمة ". " فالأمة "، حسب مفهومهم، هي جماعة من الناس يوحدهم الصراع ضد عدو مشترك... ".

ويقول أيضاً: " ولم تكن تقل عنها سخفاً محاولة الصهاينة إعلان اليهود في جميع أنحاء العالم أمة واحدة على أساس الديانة اليهودية... ".

ويتابع بأن الماركسيين اللينينيين نقدوا ذلك: " ورفضوا النظرية القائلة بوجود مجتمع يهودي عالمي واحد وأمة يهودية واحدة ".

وينقل عن لينين قوله: " إن الفكرة القائلة بأن اليهود يشكلون أمة منفصلة هي فكرة رجعية من الناحية السياسية (11)."

* * *

إن جدلية الإنسان مع الواقع الاجتماعي / الاقتصادي/ التاريخي/ الثقافي، تحدد سمات الشخصية الفردية.
وما الدين إلا جزء من ذاك الواقع وليس هو كل شيء.
والأفكار والمفاهيم التي تصاغ عبر تلك الجدلية تتطور وتتغير داخل التاريخ وضمن الظروف الذاتية والموضوعية.
وهذا يعني أنه من السخف العودة إلى الدين كمستند لتبرير المشروع الصهيوني الاستعماري، وكذلك رؤية اليهودي من خلال الدين!
ويهود الشرق لا علاقة لهم بيهود الغرب، ويهود اليوم لا علاقة لهم بيهود الأمس كما قلنا.
وأية ادعاءات بوجود علاقة أو رابطة إنما هي زيف ودجل، وهذا ما صنعته الصهيونية !
إن الدين كفكر ممكن أن يتبناه اليهودي في أي زمان أو مكان، وممكن أن يتخلى عنه كذلك في كل زمان ومكان.
ويمكن أن نناقش الدين كأفكار ومفاهيم وقيم، ولكن الأمر الذي لا يمكن قبوله هو أن الدين صنع الشخصية اليهودية.
فهذا الكلام لا علمي ولا عقلاني. وكذلك الادعاء بأنه يمكن فهم سيكولوجية اليهودي من خلال الدين!
فالدين وإن كان له دور ولكنه في النهاية مجرد أفكار.
وقد انتقد د. قدري حفني الاتجاهات التي تعتمد في دراساتها للشخصية اليهودية أو الإسرائيلية / كما تسميها / بالاستناد إلى الدين.
فهو يقول: " ولا شك لدينا في أن الدين يلعب دوراً هاماً لا يمكن إنكاره في ذلك التكوين، ولكن النظر إليه باعتباره منبعاً لكل حركة " وأصلاً لكل سلوك إسرائيل" ، "وسبيلاً إلى فهم اليهود" ، هو ما نعتبره فيما نرى، تحميلاً للأمور بأكثر مما تحتمل، واقتصاراً على عامل واحد ليس هو بحال، العامل الأساسي في فهم التكوين السيكولوجي الإسرائيلي".(12)
إن الصهيونية هي التي ربطت بين حاضر الصهاينة المستعمرين وبين اليهودية التاريخية والتوراتية. وهذا زيف مكشوف. فلا تراث واحداً لليهود ولا تاريخ واحداً ولا ثقافة واحدة، ولا عادات وتقاليد واحدة. ولا وجود لسلسة مترابطة!
وفي هذا الإطار يقول د. قدري حفني: " ولم ينتبه هؤلاء الباحثون إلى ما أسدوه بالفعل إلى إسرائيل من خدمة جليلة بتأكيدهم أن لها ذلك التراث الطويل مهما كانت وجهة نظرهم هم في مخازيه". (13)
والشيء الوحيد الذي يجمع الصهيونية والدين هو المشروع الاستعماري. والدين لن يفيدنا في فهم اليهودي بمعزل عن الواقع المعاش.
ولعل شكسبير في مسرحيته " تاجر البندقية " نجح في تقديم شخصية شايلوك، اليهودي المحب للمال والربا، الجشع والماكر والخبيث... ، في الوقت الذي قدم فيه ابنته جيسيكا كنقيض لأبيها، وهي تكره صفاته تلك. ولذا قررت أن تخرج من قوقعته لتتزوج المسيحي الذي أحبته ولم تبال بأبيها ودينها السابق!!

ودراستنا للشخصيات لم تكن بهدف فهم سيكولوجية اليهودي المعاصر، إنما بهدف التقاط الفكر الاستعماري والعنصري في دين عزرا والكتبة، ثم استغلال الصهيونية لثالوث عزرا لتغطية وتبرير استعمارهم. ولخداع اليهود وتضليلهم، لجلبهم إلى فلسطين!

* * *

لقد درس كثير من الغربيين، وأيضاً قلة من العرب ما يسمى بالشخصية اليهودية أو الإسرائيلية أو الصهيونية...

ومن الباحثين العرب من توجه إلى الأدبيات اليهودية ولا سيما الرواية لدراسة تلك الشخصية، كهاني الراهب وغسان كنفاني. ومنهم من توجه إلى الشعر كصالح معياري...

ومنهم من كانت دراسته منهجية / نفسية، مثل د. قدري حفني ورشاد عبد الله الشامي...

وقد وقعت معظم الدراسات في فخ الشخصية الكلية / الجمعية (14)، رابطة يهود اليوم بيهود التاريخ والتوراة.

* * *

1- الشخصية الصهيونية في الرواية الإنكليزية: د. هاني الراهب.

الكتاب رسالة الدكتوراه التي حصل عليها الكاتب من جامعة اكستر في بريطانيا.

وهو يرصد الشخصية اليهودية في الرواية الإنكليزية بين عامي 1817-1967. بادئاً بأعمال ماريا إدجورث والسير والترسكوت، وانتهاء بأعمال يائيل دايان.

فالشخصية اليهودية وحتى القرن التاسع عشر صُورت كشخصية جشعة تحب المال، وهي شخصية الغيتو أو اليهودي التائه.

ومع القرن التاسع عشر ظهرت شخصية اليهودي الطيب في تعامله الجيد مع الآخرين وحبه للاندماج في الآخرين والانفتاح.

وعندما ظهرت الحركة الصهيونية رفضت الاندماج، لتحافظ على الشخصية اليهودية من الضياع والذوبان كما تدعي.

ولذلك سعت إلى خلق ما يسمى بالأمة اليهودية وعلى أرض فلسطين، ومن هنا تبدلت الشخصية اليهودية.

إن التناقض بين دعوة الصهيونية للخلاص، وفي الوقت نفسه تستعمر دولة وعلى حساب شعبها الفلسطيني، أوقع اليهودي في تناقض. إلا أنه أخرج نفسه منه من خلال ميكافيليته مستنداً إلى الوعد الإلهي!

وهناك شخصية الصابرا (السابرا) ذاك اليهودي المولود في فلسطين والمختلف: " يمثل الصابرا والإسرائيلي، نظرياً على الأقل، الهوية الجديدة لليهودي العصامي الذي يمتلك وطناً وينتمي إلى أمة يعرف بها نفسه".(15)

وتلك الشخصية تتسم بسلوكها الفظ، وانعدام الذوق، ورفضها لليهودية، وتتمسك بتسمية الإسرائيلي.

وهي شخصية عدوانية، شرسة لأنها شخصية عسكرية مقولبة. وهي الممثل الحقيقي للشخصية التي سعت إلى خلقها الصهيونية، لذلك انعكست تلك الشخصية في الأدبيات لتمثل دور البطل العبقري والمعصوم!!

إن تتبع الشخصية كمسار في العمل الأدبي الروائي شيء، وانعكاس ذلك على الواقع ليعني مسار الشخصية الكلية / الجمعية لليهود شيء آخر!

فكأنما اليهود في أوروبا شكلوا شخصية عامة، كلية عاشت الغيتو وعاشت التيه!!

ثم مع الحركة التنويرية والانفتاح والاندماج صارت شخصية اليهود الكلية شخصية طيبة تحب الآخرين!

ومع المشروع/ الصهيوني/ واستعمار فلسطين، ولدت شخصية جديدة كلية سماتها عسكرية تشعر بانتمائها القومي الإسرائيلي، وترفض التسمية الدينية / اليهودي/...!

ونلاحظ اختلاط الإيديولوجيا بالشخصية وسماتها. وحمل الأفكار وتبنيها والعمل على تحقيقها أمر يختلف عن ماهية الشخصية!

والشخصية في الرواية، فردية. وهي وإن مثلت قطاعاً واسعاً من اليهود إنما هي تمثل أفكارهم، مبادئهم، تطور مفاهيمهم.

وهذا لا يعني أبداً أن تكون هناك شخصية كلية يتماهى فيها المتشابهون فكراً وعقيدة ومبادئ!

***

وغسان كنفاني في كتابه " في الأدب الصهيوني" يلتقي الراهب في دراسة الرواية الإنكليزية، وشخصية اليهودي الطيب، واليهودي التائه الجوال. وهو أسبق من الراهب في دراسته للأدب الصهيوني. وهو لا ينسى وضع اليهودي ضمن الظروف الاجتماعية والاقتصادية. ثم الحركة الصهيونية واستعمار فلسطين وشخصية الصهيوني المميز والمتفوق والعبقري!

كما درس غسان المسرح وكيف صارت الشخصية الصهيونية متأبطة السلاح كجزء منها.

ولم تكن دراسته للشعر إلا ثانوية. لكنه أعطى صورة عن احتجاج الشعراء على واقع اليهود.

وكل ما ذكره غسان أو هاني هو في الحقيقة متابعات لأفكار ومفاهيم عكستها شخصيات/ أبطال/ أعمال أدبية.

***

2- في الشعر العبري والصهيوني المعاصر: صالح معياري.

يتحدث الكاتب عن الشعراء اليهود الذين تناولوا المعاناة وتمجيد التراث والأجداد. ويركز على الشعر العنصري ما بين الحربين 1967-1973.

وأن المجتمع الصهيوني قائم على تغذية الروح الحربية العدوانية. وتحليله للشعر يقوده إلى التحليل النفسي للشخصية اليهودية: " إن تفرد اليهودي العرقي ثم نقاوة شخصيته، تعتبر من الصفات الأساسية في تكوين الشخصية اليهودية عبر تاريخها".(16)

وهكذا كلام تقوله الصهيونية استنادا إلى الدين، يوظفه الباحث ليتحدث عن: " المصادر الأساسية في تكوين الشخصية اليهودية، فإن التوراة والتلمود تشكلان المصدر الأنطلوجي الفكري الأساسي الذي ساهم تكوينياً في بناء هذه الشخصية ".(17)

ولا ينسى الباحث الجانب الاجتماعي الاقتصادي، فهو يقول: " لقد كان عمل الصيرفة والتجارة والربا خاصة عبر تاريخ اليهود، يمثل الحلقة الرئيسية في علاقاتهم مع الأمم الأخرى، الروحية منها والاجتماعية والاقتصادية. وكما نعرف أن العلاقة بين الأنا والغير في اللحظة التبادلية على مستوى القيمة السلعية والمالية الحرة، تحكمها حالة انفصال واغتراب، يصبح فيها الأنا والغير متباعدين".(18)

والتحليل هنا دقيق وهو يمس اليهودي وغيره إن كان يعمل في الإطار ذاته (الصيرفة، التجارة، الربا).

وبالتالي علينا أن نبحث عن اليهودي هنا: اليهودي التاجر، الصيرفي. وأيضاً اليهودي العنصري، الاستعماري، البراجماتي والميكافيلي... وليس العودة إلى التوارة والتلمود.

وأخطر ما يقع فيه المعياري هو الحديث عن الشخصية اليهودية عبر التاريخ فذلك يعني ربط يهود الحاضر بالماضي ضمن تراث متسلسل. وهذا ما سعت إليه الصهيونية في حديثها عن الشخصية اليهودية الكلية.

فلا علاقة بين يهود الحاضر والماضي؛ ولا علاقة زمنية أو مكانية تربط بينهم. وما الدين إلا أفكار ولا ينسخ شخصيات كربونية / أو استنساخ لشخصية واحدة متكررة !!

***

3- الإسرائيليون من هم ؟ د. قدري حفني.

الباب الثاني من كتابه بعنوان " تجسيد الوهم". وهو (دراسة سيكولوجية للشخصية الإسرائيلية). وقد حازت تلك الدراسة على جائزة الدولة التشجيعية في علم النفس عام 1972.

يرى الباحث أن الجيل لا يمكن أن يكون صورة عمن قبله، و إلا توقف التطور. وفي الوقت نفسه لا يمكن أن تنقطع الصلات بالماضي فهناك: " العلاقة الديناميكية المستمرة أبداً بين الماضي والحاضر والمستقبل".(19)

وهناك اختلاف بين الأفراد في أمور، وتقارب وتشابه في أمور أخرى. وهذا ينطبق على كل الجماعات الإنسانية.

وهو يرفض - كما مر- أن يكون الدين هو العامل الأساسي والوحيد في فهم التكوين السيكولوجي الإسرائيلي.

ومن ذاك المنطلق يدرس النفسية الإسرائيلية بدءاً من الرواد الصهاينة من المهاجرين القدماء: " فلتكن نقطة بدايتنا إذن الخصائص السيكولوجية لأولئك الرواد".(20).

ولا ينكر قدري دور المجتمع في تدعيم التكوين النفسي: " إن المجتمع لا بد وأن يسعى دوماً إلى تدعيم ذلك التكوين السيكولوجي المشترك بين أفراده والمحافظة عليه. أي أن يسعى إلى خلق نوع من المعايير السلوكية المشتركة تجمع بين أفراده جميعاً. أو بين القدر الأكبر منهم ضماناً لتماسكه وبقائه".(21)

والدعم السيكولوجي هو " عملية التنشئة الاجتماعية ". ولكن تلك التنشئة ليست مفتاحاً لفهم سيكولوجية شعب ما، ولا لمظهر من مظاهره.

فعملية التنشئة الاجتماعية وإن ركزت على المتشابهات لكنها لا تتدخل في شخصية الفرد. لأنه لا يوجد فردان متشابهان فلكل " شخص وراثته المفردة، وخبراته المتميزة، ونمو شخصيته الفريدة ". (22)

وهو يرفض قول الصهيونية " اليهودية دين وقومية ". ويرفض ارتباط يهود اليوم بيهود التاريخ التوراتي.

ويعد نظرية العرق والدم الصافي ساقطة علمياً، لكن اليهود الصهاينة تمسكوا بها ليجعلوا منها مدخلاً إلى التمايز والتفوق العقلي. ورفض الادعاء بوجود اضطهاد دائم لليهود عبر التاريخ. وهذا ما رفضه أيضاً إيزنك عالم النفس اليهودي.

لكن الباحث يتحدث عما يسمى بشخصية السابرا (أبناء الكيبوتزات الذين ولدوا في فلسطين)، وسمات تلك الشخصية!

ومن تلك السمات العدوانية (كره الغرباء) - الانطوائية - البرود الانفعالي – الحقد...

وطبعاً نحن نرفض تعميم السمات الفردية المتعلقة بالشخصية الفردية، لتصير كلية!

ولكن يمكن الحديث عن إيديولوجية السابرا / المبادئ/ المفاهيم... (23)

***

4- الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية: د. رشاد عبد الله الشامي.

يتحدث الكاتب عن عوامل خلق الروح العدوانية عند الإسرائيليين، ومنها:

1- " استلهام الروح العدوانية في التراث الديني اليهودي".(24) :

فحروب العهد القديم اللا أخلاقية من قتل وذبح... كانت النموذج لعدوانية الصهاينة في فلسطين. يقول الكاتب: " وهكذا وضع موسى أسس التقاليد العسكرية الإسرائيلية التي سار على هديها من بعده سائر الأحفاد".(25)

كما أن قوانين الحرب في سفر التثنية صارت المغذية لوجدان الإسرائيلي: " وهذه النصوص التوراتية التي تغذي الوجدان الإسرائيلي بمبررات العنف والقسوة والوحشية الحيوانية تدرس في المدارس الإسرائيلية ".(26)

2- استلهام تقاليد الروح العدوانية في الفكر والسلوك الصهيوني:

وهنا ينقل عن بيغن قوله: " نحن نحارب فنحن إذن نكون" !(27). كما ينقل قول بن جوريون: " إن موسى أعظم أنبيائنا هو أول قائد عسكري في تاريخ أمتنا "!

3- تمجيد القسوة الإسبرطية كمثل أعلى:

" وفي ثنايا هذا الجو المشبع بروح العدوانية والإرهاب أصبح المثل الأعلى لدى الشباب الإسرائيلي هو ذلك النمط الذي تتجسد فيه ملامح القسوة الإسبرطية المتوحشة المتعطشة دوماً إلى الدماء والعنف والقسوة ".(28)

ويدرس الكاتب سيكولوجية السابرا (الصباريم) والذين يعدون أنفسهم إسرائيليين قبل أن يكونوا يهوداً.

ويذكر سمات سيكولوجية السابرا:

الانطوائية - التشكك - الشعور بالدونية - الامبالاة - الإحساس بالفشل - الحاجة للمديح والإطراء - الكآبة - التشاؤم - العدوانية - البرود العاطفي - الحساسية المفرطة للنقد - خشونة المظهر - انفعالية الأعماق...

وهو كما نلاحظ يلتقي قدري حفني في السمات مثل: الانطوائية - الشعور بالدونية - التشاؤم والشك – العدوانية...

ويتحدث الشامي عن تأثير مفاهيم نيتشه النازية العنصرية على أبناء الكيبوتزات (المزارع الجماعية).

وللشامي كتاب آخر " الهوية في إسرائيل" يتحدث فيه عن تلك السمات.

فصفات الشخصية تلك: فعّال (يقظ وأحياناً هائج) ، عدواني (عنيف ومتمرد) ، يفتقر إلى الكياسة، متفاخر، متكبر، وطني، مؤثر، خشن الطباع...(29)

والخطأ الذي وقع فيه الشامي هو عدم التعامل مع مفهوم الشخصية كما ورد في علم النفس الذي ينظر إلى الشخصية الفردية فقط وسماتها التي تميزها عن غيرها من المجموعة التي تعيش فيها.

فتعميم الشخصية خطأ علمي. فلا وجود لما يسمى الشخصية الكلية / الجمعية... وحتى اللا شعور الجمعي الذي ابتدعه يونغ، لا علمي وله أبعاده العنصرية عنده!!

* * *

نستنتج مما مر أن الدراسات التي استخدمت مفهوم الشخصية اليهودية أو الإسرائيلية أو الصهيونية إنما هو استخدام لا علمي. وهو سيؤدي حتماً إلى مفاهيم خاطئة مثل: الشخصية الكلية، الروح الجماعية، العقل الجمعي... وكل تلك المفاهيم عنصرية نازية وصهيونية. وما سعت إليه الصهيونية من ربط يهود العالم ببعضهم إنما هو خزعبلات عنصرية تخدم الهدف الاستعماري.

كما أنه لا علاقة ليهود العالم بيهود التاريخ. ولا علاقة لهم بتاريخ الشخصيات الدينية في الأسفار.

ولا وجود لدم نقي إلا في أذهان العنصريين النازيين والصهاينة. واليهود لا يشكلون شعباً ولا أمة. واليهودية دين وليست بإثنية.

وما فعلته الصهيونية هو خلق قومية دينية مزيفة واستعمارية لا غير!

* * *

هوامش القسم الثاني - الفصل الثاني - نقد مفهوم "الشخصية اليهودية"

(1) الصحة النفسية والعلاج النفسي: د. حامد زهران - ص 50.

(2) معجم علم النفس: د. فاخر عاقل - ص 83.

(3) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: د. أحمد زكي بدوي - مادة: شخصية.

(4) المرجع السابق - مادة: الهوية.

(5) معجم علم النفس: د. فاخر عاقل - مادة: الهويةز

(6) مبادئ علم النفس العام: د. يوسف مراد - ص 343.

(7) المرجع السابق - ص 370.

(8) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: د. أحمد زكي بدوي - ص 186.

(9) المرجع السابق - الصفحة نفسها 186.

(10) المدخل إلى علم النفس الجماعي: د. شارل بلوندل - خلاصة ختامية – ص183.

(11) برودسكي: مقال " الحقيقة حول الصهيونية " - ص 141 - شؤون فلسطينية - العدد 52 – 1975.

(12) د. قدري حفني: الإسرائيليون من هم ؟ ص 121.

وقد انتقد د. حفني من اعتمد على الدين اليهودي وحده لدراسة اليهود. كما في نقده لكتاب عبده الراجحي " الشخصية الإسرائيلية " لأنه يدرس سيكولوجية الإسرائيلي المعاصر بالاستناد إلى الدين اليهودي. وينقل عنه قوله من كتابه ص 67: " هذا الدين هو الذي نؤكد أنه المنبع الأول لفهم الشخصية الإسرائيلية ".

راجع كتاب د. قدري حفني ص 120-121.

(13) المرجع السابق - ص 163.

(14) تلك الدراسات نظرت إلى الشخصية اليهودية كأمر مسلم به، وهو أمر خاطئ علمياً فلا وجود لشيء اسمه الشخصية اليهودية، أو الإسرائيلية أو الصهيونية.

وتلك التسميات - شاءت الدراسات أم لم تشأ - تعني وجود شخصية كلية / جمعية... لليهود. وهذا مناف للعلم.

(15) د. هاني الراهب: الشخصية الصهيونية في الرواية الإنكليزية - ص 164.

(16) في الشعر العبري والصهيوني المعاصر: صالح معياري - ص 223.

(17) المرجع السابق - ص 225.

(18) المرجع السابق - ص 228.

(19) د. قدري حفني: الإسرائيليون من هم ؟ - ص 130.

(20) المرجع السابق - ص 165.

(21) المرجع السابق - ص 138.

(22) المرجع السابق - ص 138.

(23) راجع كتاب د. قدري حفني: دراسة سيكولوجية في الشخصية الإسرائيلية: الأشكنازيم - وهو رسالة الدكتوراه.

(24) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية - ص 167.

(25) المرجع السابق - ص 170.

(26) المرجع السابق - ص 171.

(27) المرجع السابق - ص 184.

(28) المرجع السابق - ص 200-201.

(29) د. رشاد عبد اللّه الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل - ص 85 وما بعد.

* * *

الخاتمة

لقد تم استعراض شخصيات العهد القديم من خلال الحدث والحكاية. وقد انطلقنا من الأسر البابليّ / متجاوزين شكنا فيه/ لرسم الخلفية التاريخية لليهود وللبدء في كتابة الأسفار.

فاليهود قبائل بدوية تعتمد على الرعي والتجارة، وقد وقعت في الأسر البابلي كغيرها من القبائل أو الشعوب وهو أمر طبيعي وعادي في تلك العصور.

وفي الأسر تعلموا حياة الاستقرار، ومنهم من تعلم واطلع على تراث المنطقة. وفي الوقت الذي فكر فيه قورش الفارسي بإنشاء محمية له غرب إمبراطوريته لتكون عينه في مراقبة مصر وطموحاتها التوسعية، أو الإغريق الذين تتنامى عظمتهم، وجد اليهود خدماً مطاعاً في تحقيق إرادته.

والمتعلمون من اليهود ولا سيما عزرا ونحميا ولعلهما شخص واحد، أخذوا يكتبون الأسفار لتكون المرجعية لعلاقات اليهود مع بعضهم ومع الآخرين. ولضبط أمورهم وأوضاعهم في الأرض الجديدة كنعان!

وقد استفادوا من تراث المنطقة إلى أقصى حدود الاستفادة. وكان الجوهر في تلك الأسفار ثالوث عزرا: " يهوه، الشعب المختار، الأرض الموعودة ". وترجمة الثالوث عملياً: " الوثنية، العنصرية، الاستعمار".

وهكذا صارت الأسفار مرجعية لجماعة اليهود وفي الوقت نفسه أداة تحريض لاستعمار أرض كنعان!

والأسفار وإن تعددت أقلام الكتبة، تفوح منها رائحة أطماع الفريسيين بأرض كنعان.

فالشخصيات كلها تدور في فلك الأرض فهي المحرك الأول والأخير ولا علاقة لتلك الشخصيات بالحقيقة المطلقة لا من قريب ولا من بعيد. فهي لم تكن جديرة بالقدوة لأتباعها إلا في العدوانية والإرهاب والإجرام والوحشية. وذاك هو دورها الذي رسمه الكتبة.

لقد بدأت الإرهاصات الأولى منذ التكوين، وبدأت تتضح معالمها مع قايين وهابيل ثم أخذت بُعدها في تهيئة ذهن القارئ لجوهر الموضوع مع نوح. وما إن جاء إبراهيم حتى كشف الستار عن المطلب الجوهري، والذي أخذ يتنامى كلازمة مكررة دونما انقطاع!

لقد كانت الأرض كهدف منشود، تحتاج إلى حملة يأخذون على عاتقهم ذاك الهدف، فكان لابد من رفع معنوياتهم وجعلهم مميزين لأنهم اختيروا وحدهم لتنفيذ مهمة اللصوصية والسرقة.

وكان لابد من ربط الفكرة، ليس بالكتبة الطماعين والجشعين واللصوص، ولكن بيهوه/ الإله الوثني المسروق والمشوه/ فاكتملت الحلقة: فالفكرة الاستعمارية تنسب إلى يهوه، والشعب المميز حامل الفكرة كمنفذ لإرادة ومشيئة يهوه، والهدف من العلاقة ما بين يهوه وشعبه هو الاستيلاء على الأرض.

وفي مسار الأسفار كنا نرى تداولاً بين مرحلتين: الضعف والقوة، ومع الضعف يبرز التنظير، ومع القوة تبرز فكرة الممارسة والتطبيق.

* * *

إن اليهود لم يعرفوا التوحيد، فلقد عبدوا الأوثان والأيقونات، كالكروبيم (جسم يشبه الملائكة كما تقول الموسوعة)، والعجل والحية... وما كان يهوه إلا إله براكين ورعود وجبال... والنصوص القديمة كانت تستخدم كلمة يهوه للتعبير عن الإله أو الرب وكذلك إلوهيم وغيرهما.

لكن مترجمي النصوص القديمة من اللاهوتيين أجروا تعديلاً فصاروا يترجمون كلمة يهوه وإلوهيم بالرب، بالله... وقد قال جورج قرم في كتابه " تعدد الأديان وأنظمة الحكم": إن كلمة رب في الأسفار كانت في الأصل يهوه!

ورب اليهود كانوا يعدّونه خاصاً بهم ولهم وحدهم. وهذه هي الوثنية، فالوثنية تعني أن تعبد القبيلة، أو شعب ما، إلهاً خاصاً بهم.

أما التوحيد فهو الإيمان بتعميم الإله وجعله للجميع.

وما حملته أسفار أشعيا وارميا وحزقيال ودانيال... من مفاهيم متطورة عن يهوه، يجب النظر إليها برؤية شمولية ومتصلة، لا كجزئية منفصلة عن السياق العام.

فهي لها ظروفها الثقافية والمتأثرة بالشعوب الأخرى. ولكنها بقيت في النهاية تدور ضمن إطار الخصوصية!

إن يهوه لم يتسم بالحق والخير والعدل، والكمال المطلق، ودعاة يهوه لم تنعكس عليهم سمات المطلق، بل كانوا شخصيات لا أخلاقية ولا تستحق أي احترام.

وهنا نستغرب من ابن العلم والحضارة والثقافة والقيم كيف مازال يعتقد بقدسية تلك الشخصيات!!

ولقد كان هدف الكتبة هو الأرض، ولذلك عملوا على كل ما يخدم ذاك الهدف.

حتى قضية محاربة الاندماج لم تكن إلا بهدف المحافظة على حملة المشروع حتى لا يضيعوا ويذوبوا في المجتمعات، فيذوب المشروع معهم!!

وسيف الكهنة المسلط على أتباعهم، من تخويف وتهديد ووعيد، كله لم يكن إلا بهدف إبقائهم ضمن إطار المشروع. فيهوه هو المشروع، أو هو الشكل المغلف للمشروع.

وكنا نلاحظ انفلات الأتباع من الوصاية المستمرة ورفض العزلة (الغيتو). وقبول الانفتاح والاندماج في الشعوب، رامين عزرا وثالوثه خلفهم!

* * *

لقد كانت اليهودية ديناً ومشروعاً استعمارياً، ولم تكن إثنية /عرقاً /. ولكن محاولات المستعمرين القدماء والحديثين انصبت في اتجاه دمج الديانة في الإثنية!

والأسفار تعترف بتهود الكثيرين إكراهاً بهدف زيادة عدد اليهود لتحقيق المشروع كما مر، ولا سيما في سفر أستير وعهد المكابيين. ثم في القرون الوسطى تهود الخزر (الأشكنازيم).

فالاختلاط والاندماج والتزاوج والهجرات، ينفي ارتباط اليهود ببعضهم إثنياً / عرقاً، وينفي ارتباط اليهود بمن سبقهم من اليهود.

فالرابطة هي الدين كما هو الحال بالنسبة للمسيحيين في العالم أو المسلمين. فمن هو الأحمق الذي يستطيع أو يتجرأ على القول إن مسيحيي العالم ينتمون إلى إثنية / عرق، واحد، ودمهم نقي وصاف أباً عن جد ؟!

طبعاً لا يقول إلا سخيف، ذاك الكلام!!

إن النسبة إلى نوح خرافة تافهة، وكذلك النسبة إلى آرامية إبراهيم، فلقد انقرضت - وبحسب النص- تلك الأجيال الوهمية، وانقرضت معه كل النظريات الاستعمارية والتي يستحي من الحديث عنها المؤرخ المحترم!

وتزييف الاستعمار ومن يدور في فلكهم من اللاهوتيين لذاك التاريخ القديم أمر مكشوف وعليهم أن يقرأوا النص التوراتي نفسه فهو واضح كل الوضوح وينفي تلك الادعاءات الكاذبة!

فالمملكة المزعومة التي انشقت أنهت عشرة أسباط، والمملكة الجنوبية وبعد السبي ومشروع قورش، لم يتجاوز عدد اليهود المهاجرين إلى فلسطين خمسين ألفاً وهم خليط من شعوب شتى!!

وما إن وطئت أقدامهم أرض كنعان حتى اختلطوا بالآخرين وتزاوجوا منهم متخلين عن يهوديتهم!

وفي أرض كنعان كان وجودهم في أورشليم - بحسب النص - وكانوا خاضعين قسراً لسيطرة الكهنة الذين يشرفون على الحياة اليهودية الاجتماعية والاقتصادية. أما الحياة السياسية فقد كانت خاضعة للنفوذ الخارجي/ الفرس، مصر، اليونان، الرومان.../.

وما إبراز الوجود اليهودي في أرض كنعان إلا تضخيم وتهويل في الوقت الذي يُغيّب فيه شعب كنعان عن الوجود!!

ولقد أُبرزت اليهودية بشكل حاد مع مجيء المسيحية في القرن الأول للميلاد وكنتيجة للصراع بين الديانتين، وما يحمله من خلفيات اجتماعية واقتصادية.

وبروز ما يسمى بالسامرة / إسرائيل/، واليهودية في أورشليم، يضعنا أمام احتمالات ثلاثة:

1- لفق المؤرخون اللاهوتيون ومنهم يوسفوس ذاك التاريخ، لربطه بتاريخ السامرة ويهوذا الواردين في الأسفار.

2- زيف السامرة ويهوذا الوارد في الأسفار، لأنهما انعكاس لذاك التاريخ الذي صنعه اللاهوتيون من بنات أفكارهم.

3- زيف التاريخين معاً!

ولو دققنا في التاريخ قبيل الميلاد وبعده نجد أن المؤرخين الكذبة ارتكبوا أشنع الأخطاء في تأريخهم لتلك الفترة؛ فقد قسموا فلسطين إلى ثلاث مناطق:

1- منطقة أورشليم/ اليهودية / والتي رفضت دعوة المسيح.

2- السامرة وفيها الإسرائيليون الذين قبلوا دعوة المسيح. وقد قال عنهم خراف بني إسرائيل الضالة. 3- ما عدا المنطقتين السابقتين تأتي منطقة كنعان وغيرها من مناطق الوثنيين!!

وكلنا يذكر تلك المرأة الكنعانية التي رفض المسيح أن يشفي ابنتها من الشيطان، ثم تراجع عن ذاك فيما بعد. (متى15/21-28) ، و (مرقس 7/24-30). (وراجع كتاب برنارد شو: " المسيح ليس مسيحياً - ص 49"، حول هذه القضية).

واستمر الزيف التاريخي دونما أية محاولات حيادية وعلمية، لإعادة كتابته بنزاهة وأمانة.

ولولا اعتراف الكنيسة بأسفار اليهود، وضمها إلى الكتاب المقدس/ العهد القديم/، لما كان للديانة اليهودية أي شأن يذكر!!

فالذي ساعد على استمرارية الدين اليهودي، إنما هو النشر الدائم للعهد القديم ضمن الكتاب المقدس (العهد القديم + العهد الجديد).

ومن هنا استمرت اليهودية في الذاكرة المسيحية لأنها جزء من الديانة المسيحية / تاريخ، شريعة، قوانين، صلوات.../.

وصارت الشخصيات اليهودية - اللا أخلاقية - مقدسة عند اللاهوت المسيحي!!

فالمسيحية هي التي حفظت وصانت الديانة اليهودية من التلاشي، أي صانت العنصرية والمشروع الاستعماري لأرض كنعان. وليست العبقرية اليهودية هي التي حفظت وصانت كما يدعي الصهاينة العنصريون.

وادعاء الصدام اليهودي/ المسيحي، من منطلق أن اليهود قتلة المسيح هو زيف ودجل، فالقضية لها أرضيتها الاجتماعية / الاقتصادية / التاريخية.

ولو كان هناك رفض حقيقي لليهود واليهودية / دينياً، مثالياً / كما يُدّعى، لأدى هذا إلى فصل الديانة اليهودية عن المسيحية. وكل الأصوات التي نادت ودعت إلى فصل أسفار العهد القديم لم يلتفت إليها اللاهوتيون والكنيسة !!

* * *

لو جردنا الأسفار من السرقات ومن ثالوث عزرا " الوثنية - العنصرية – الاستعمار" ، فلن نجد شيئاً، لأن الديانة اليهودية كما قلنا جوهرها الاستعمار، وكل ماعدا قضية سرقة الأرض، يصب في خدمتها وطريق الوصول إليها وتحقيقها.

حتى أن بعض اليهود كانوا يدركون ذاك الدين البغيض، فما إن تتاح لهم الفرصة للانفلات من عقال الكهنة، حتى كانوا يتسارعون بعيدين عنه.

لكن عقال الكهنة كان قاسياً عبر التاريخ على المؤمنين من أتباعهم!

وجاء الفكر الصهيوني العنصري ليسخر اليهود في سبيل خدمة مصالحه الاستعمارية ووجد في الثالوث مبتغاه.

لقد زيف التاريخ والعلم والحقائق كأي استعمار في العالم. وادعى بأن يهوه وعده هو وآباءه وأجداده بأرض كنعان. ولا ندري ما علاقته هو البريطاني أو الفرنسي أو الأمريكي أو الروسي بوعد يهوه!

وحاول خلق ما يسمى بالشخصية الكلية اليهودية والروح اليهودية، والعقلية اليهودية... كما اختلق من العدم فكرة الشعب اليهودي أو الأمة اليهودية، وتابع طريق الكهنة في محاربة الاندماج ليبقي اليهود رهينة مشروعه الاستعماري.

إن البراجماتية والميكافيلية في صلب الدين اليهودي، وبالتالي صارتا في صلب الفكر الصهيوني.

وكما نظرت الأسفار لليهودي بأن المرجعية / المعيار/ تكمن فيه كيهودي خارق، وهذا وحده كاف ليمنحه يهوه الحب والأبوة الأبدية رغم كل جحوده وأخطائه وآثامه، كذلك جعلت الصهيونية العنصرية، الانتماء إلى اليهودية وحده كاف ليكون من الشعب المميز الذي له الحق وحده بأرض فلسطين، دون النظر إلى أي اعتبار آخر.

* * *

وقراءة ما بين سطور العهد القديم ترينا شعب كنعان المُغيّب عن حقه وأرضه وتاريخه وتراثه.

نقرأ عن شعب كنعان المتمسك بأرضه والمقاوم لكل محاولات الاستيلاء عليها. فما المعارك التي ذكرتها الأسفار إلا دليل على رفضه للغزاة المستعمرين الهمج.

ورغم ادعاء الأسفار بإفناء آلاف الفلسطينيين، واستقرار المستعمرين اليهود، مانلبث أن نقرأ عن معارك جديدة وقتل الآلاف من اليهود واستعبادهم!!

ونقرأ زيف ذاك التاريخ لأن المؤرخين الغربيين، والعرب الذين يدورون حول موائدهم يغيبون الإنسان الفلسطيني ليقولوا بوجود اليهود فقط في ذاك التاريخ.

كما أن اليهود الغزاة خضعوا للحضارة الكنعانية وتعلموا منها وتبنوا عاداتها وتقاليدها وثقافتها، بل لغتها كما يذكر أنيس فريحة.

والضعيف هو الذي يتعلم من القوي، وعقد النقص قد تكون بالكلام وأحلام اليقظة. لكن بين سطور الأسفار نجد مجد داود وسليمان المزيفين يصنعه شعب المنطقة حتى بناء السكن والمعبد!!

وكيف نفسر تبعية سليمان لآلهة المنطقة - بحسب النص - لو لم يكن هو الضعيف أمام قوة شعب المنطقة ؟!

وكيف نفهم تعويض عقد النقص والإخفاق، لولا ذاك الحقد الدفين والمتأجج وحشية وعدوانية وإرهاباً عندما تسنح له الفرصة كما تذكر الأسفار؟!

إن القراءة ترينا شعب كنعان الطيب والمتسامح والمتطور والحضاري مقابل تخلف اليهودي وبدائيته ووثنيته ووحشيته.

ولكن شعب كنعان المسالم كان يدافع عن أرضه بكل بسالة وشجاعة ولم يدع المستعمرين يستقرون وينعمون بالهدوء على امتداد الأسفار.

لقد قدمت الأسفار صورة سوداء عن الشعب المختار، وبأثواب لا أخلاقية ومنحطة. وهنا لا تعنينا أدلجة رؤية الأسفار لهذا الأمر، ولكن ما يهمنا تلك الصورة الحقيقية التي قدمتها!

ومقابل تلك الصورة المقيتة والمثيرة للاشمئزاز، كنا نجد ابن كنعان ببراءته وإنسانيته وأخلاقه المثالية.

وأمام صورة يهوه المجرم والدموي والذي لا يعكس المطلق، كنا نقرأ عن إله كنعان العادل إله الجميع والمحب للحق والخير والعدل!

إذاً على الرغم من التعتيم والتجاهل والتغييب، ظهر ابن كنعان الإنسان صاحب الأرض وصاحب الحق، والمدافع عن حقوقه التي يريد الغزاة المستعمرون انتزاعها منه بوثيقة ألفها الكتبة الطامعون واللصوص!

إن الفلسطيني تمتد جذوره في أرض كنعان أكثر من خمسة آلاف سنة. والمستعمرون الصهاينة لا جذور لهم في فلسطين ولا تاريخ ولا ماض. ولا حق لهم وإن حصلوا على وثيقة دولية من زعماء الإمبريالية والاستعمار، فما هي إلا وثيقة لا أخلاقية من دول لا أخلاقية تدعي الشرعية وما هي إلا زمرة من المجرمين واللصوص والقتلة والاستعمار.

وحل المشكلة سهل للغاية، وهو يكمن في اليهودي نفسه عندما يعي إنسانيته فيتخلى عن دينه اللا أخلاقي أو يسقط منه على الأقل عنصرية الشعب واستعمار أرض فلسطين، الأرض التي ليست له، ولن تكون مطلقاً، طالما هناك إنسان فلسطيني على قيد الحياة.

وأن ينفتح على الآخرين ويندمج فيهم ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم. وألا يتنكر لجنسيته التي قد تكون فرنسية أو روسية أو رومانية... ، فهي شرفه وكرامته. وأن يؤمن كما يـؤمن المسيحي أو المسلم أو البوذي بأن الدين شيء، والإثنية شيء آخر.

وعليه أن يؤمن بأن ما طرحته الأسفار عن اليهود، وحقهم في أرض كنعان إنما هو طرح استعماري لا أخلاقي.

وكذلك أن يؤمن بأن كل يهودي على أرض فلسطين إنما هو مستعمر ووجوده لا يستند إلا إلى فوهة المدفع والإرهاب والعدوان والقوة.

وإن كل يهودي يدعي الشرف والأخلاق، وهو على أرض فلسطين إنما هو كاذب ومتناقض. وعليه أن يرحل، إن كان حتماً إنساناً يؤمن بالأخلاق والحق والخير والعدل، لأن وجوده إنما هو على حساب فلسطيني مطرود من أرضه وبيته!

وعلى العالم أن يؤمن بأن الاستعمار الصهيوني، إنما هو على حساب حقوق الشعب الفلسطيني في أرضهم وبيوتهم التي استعمرت عام 1948.

* * *

المصادر والمراجع

ملاحظات:

1- تم ترتيب المصادر والمراجع، بذكر اسم الكتاب قبل اسم المؤلف.

2- رتبت أسماء الكتب دون النظر إلى (ال) التعريف.

3- هناك كتب لم تذكر في المصادر والمراجع.

4- من الرقم 1- 5 أسماء المصادر المتعلقة بالدين اليهودي، وهي مستقلة عن الترتيب الألفبائي.

* * *

1- الكتاب المقدس: منشورات دار المشرق ش م م - بيروت – 1986.

2- الكتاب المقدس: جمعيات الكتاب المقدس المتحدة - بيروت – 1958.

3- الكتاب المقدس مع ترجمة CD. ROM- KJV - الإصدار 2،2- 98.

4- دائرة المعارف الكتابية - دار الثقافة - CD. ROM ·

5- معجم اللاهوت الكتابي - دار المشرق ش م م - ط 2 - بيروت – 1986.

* * *

6- اختلاق إسرائيل القديمة (إسكات التاريخ الفلسطيني) - كيث وايتلام - ترجمة: د. سحر الهنيدي - عالم المعرفة - العدد 249 - أيلول 1999 – الكويت.

7- أزمة التحليل النفسي: إريك فروم - ترجمة: محمود منقذ الهاشمي - منشورات وزارة الثقافة - دمشق – 1986.

8- الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي - دراسة تاريخية مقارنة: د. عبد الملك خلف التميمي - عالم المعرفة - العدد 71 - تشرين الثاني 1983 – الكويت.

9- الإسرائيليون من هم ؟ دراسة نفسية: د. قدري حفني - مكتبة مدبولي - القاهرة – 1971.

10- إشكالية الهوية في إسرائيل: د. رشاد عبد الله الشامي - عالم المعرفة - العدد 224 - آب 1997- الكويت.

11- الله: عباس محمود العقاد - كتاب الهلال - العدد 42 - 1954 – مصر.

12- الإله اليهودي (بحث في العلاقة بين الدين وعلم النفس): ك. غ. يونغ - ترجمة: نهاد خياطة - دار الحوار - ط 1- 1968 – سورية.

13- إمبراطورية الخزر وميراثها (القبيلة الثالثة عشرة): آرثر كوستلر - ترجمة: حمدي متولي مصطفى صالح - منشورات دار فلسطين المحتلة.

14- أمجاد إسرائيل في أرض فلسطين: د. جورجي كنعان. دار الطليعة - ط 1 - 1978 – بيروت.

15- الإنسان بين الجوهر والمظهر: إريك فروم - ترجمة: سعد زهران - عالم المعرفة - العدد 140 - آب 1989 – الكويت.

16 - الإنسان وعلم النفس: د. عبد الستار إبراهيم - عالم المعرفة - العدد 86 - شباط 1985 - الكويت.
17- الأيديولوجيا الصهيونية - دراسة حالة في علم اجتماع: د. عبد الوهاب محمد المسيري - عالم المعرفة - العدد 60 - 61 حزيران 1988 – الكويت.
18- بلادنا فلسطين: مصطفى مراد الدباغ - دار الطليعة - ط2 - 1973 – بيروت.
19- تاريخ دمشق: ابن عساكر - CD. ROM - إعداد الخطيب وبإشراف مركز التراث – عمان.
20- تاريخ الصهيونية : صبري جريس - (الجزء الأول 1862-1917) - مركز الأبحاث - منظمة التحرير الفلسطينية - 1977 – بيروت.
21- تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية: ميرسيا إلياد - ترجمة: عبد الهادي عباس - دار دمشق - ط1 – 1986.
22- تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم: محمد عزة دروزة - منشورات المكتبة العصرية - 1969 – بيروت ، صيدا.
23- تاريخ فلسطين القديم: ظفر الإسلام خان - دار النفائس - ط3 - 1981 - بيروت.
24- التلمود والصهيونية: د. أسعد رزوق - الناشر للطباعة والنشر - ط2 - 1991- لبنان.
25- التلمود تاريخه وتعاليمه: ظفر الإسلام خان - دار النفائس- ط1 - 1971- بيروت.
26- التوحيد في تطوره التاريخي (التوحيد يمان): ثريا منقوش - دار الطليعة - ط1 - 1977- بيروت.
27- التوراة بين الوثنية والتوحيد: سهيل ديب - دار النفائس - ط1- 1981- بيروت.
28- التوراة تاريخها وغاياتها: ترجمة وتعليق: سهيل ديب - دار النفائس - ط3 - 1980 – بيروت.
29- جذور القضية الفلسطينية: إميل توما - (منظمة التحرير الفلسطينية - دائرة الإعلام والثقافة) - دار الجليل - ط3- 1984- دمشق.
30- جلجامش: " كنوز الأعماق، قراءة في ملحمة جلجامش" : فراس السواح - الطبعة السورية بإشراف العربي للطباعة والنشر - ط1- 1987 - دمشق.
31- الجوهر الرجعي للصهيونية: دار التقدم - 1975 – موسكو.
32- حول المسألة اليهودية: باور - ماركس - ترجمة: إلياس مرقص - دار الحقيقة – بيروت.
33- دراسة الكتب المقدسة: موريس بوكاي - دار رشا – بيروت.
34- الدين في ضوء علم النفس: ك. غ. يونغ - ترجمة وتقديم: نهاد خياطة - العربي للطباعة والنشر - ط1 - 1988 – دمشق.
35- رسالة في اللاهوت والسياسة: سبينوزا - ترجمة: د. حسن حنفي - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - 1971 – مصر.
36- الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية: د. رشاد عبد الله الشامي - عالم المعرفة - العدد 102 - حزيران 1986- الكويت.

37- الشخصية الصهيونية في الرواية الإنكليزية: د. هاني الراهب - سلسلة كتب فلسطينية 56 / م. ت. ف. - مركز الأبحاث ووزارة التعليم العالي في سورية - تموز 1974 – بيروت.
38- الشخصية العربية (بين صورة الذات ومفهوم الآخر): السيد يسين - دار التنوير للطباعة والنشر - ط1- 1981 – بيروت.
39- شؤون فلسطينية: العدد 45 - أيار 1975، العدد67 - حزيران 1977، العدد 52 - كانون الأول 1975.
40- الصحة النفسية والعلاج النفسي: د. حامد عبد السلام زهران - عالم الكتب - ط2- 1982 - القاهرة.
41- الصهيونية غير اليهودية (جذورها في التاريخ الغربي): د. ريجينا الشريف - ترجمة: أحمد عبد الله عبد العزيز - عالم المعرفة - العدد 96 - كانون الأول 1985 – الكويت.
42- الصهيونية والصراع الطبقي: د. صادق جلال العظم - دار العودة - ط1 - 1975 – بيروت.
43- علم النفس التحليلي: ك. غ. يونغ - ترجمة وتقديم: نهاد خياطة - دار الحوار - ط1- 1985- دمشق.
44- العلاقات الألمانية الفلسطينية (1841- 1945): د. علي محافظة - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ط1- 1981.
45- العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود: د. أحمد داود - دار المستقبل - ط1 - 1991- بيروت.
46- الغصن الذهبي (دراسة في السحر والدين): سير جيمس فريزر - ترجم بإشراف د. أحمد أبو زيد - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - الجزء الأول - 1971 – القاهرة.
47- في الأدب الصهيوني: غسان كنفاني - منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث - تشرين الثاني 1967 – بيروت.
48- في الشعر العبري والصهيوني المعاصر: صالح العيّاري - دار دمشق - طلاس للدراسات والترجمة والنشر - ط1 – 1987.
49- قصة الحضارة: ول ديورانت - ترجمة: زكي نجيب محمود - جامعة الدول العربية - دار الجيل - دار الفكر - 1988 – بيروت.
50- قلق المرض: د. أحمد عبد الخالق - عالم المعرفة - العدد 111- آذار 1987- الكويت.
51- القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة: د. رشاد عبد الله الشامي - عالم المعرفة - العدد 186 - حزيران 1994 – الكويت.
52- الكامل في التاريخ: ابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين - سلسلة 2000 للبرامج التعليمية - الجزء 23 – CD. ROM.
ومعه كتاب تاريخ ابن خلدون - شركة سما – مصر.
53- اللغة المنسية: إريك فروم - ترجمة محمود منقذ الهاشمي - منشورات اتحاد الكتاب العرب - 1991 – دمشق.
54- مبادئ علم النفس العام: د. يوسف مراد - دار المعارف بمصر - ط3 – 1957.

55- المدخل إلى علم النفس الجماعي: د. شارل بلوندل - تعريب: د. حكمة هاشم - دار المعارف بمصر - ط1 – 1953.
56- مذهب التحليل النفسي وفلسفة الفرويدية الجديدة: فاليري ليبين - الفارابي - ط1 - 1981 – بيروت.
57- مرض القلق: دافيد. ف. شيهان - ترجمة: د. عزت شعلان - مراجعة: د. أحمد عبد العزيز سلامة - عالم المعرفة - العدد 124 - نيسان 1988 – الكويت.
58 - المسيح ليس مسيحياً: برنارد شو - ترجمة: جورج فتاح - دار الطليعة - ط1 - 1973 – بيروت.
59- معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: د. أحمد زكي بدوي - مكتبة لبنان – 1978.
60- معجم علم النفس: د. فاخر عاقل - دار العلم للملايين - ط1- 1971- بيروت.
61- المعتقدات الكنعانية: د. خزعل الماجدي - دار الشروق للنشر والتوزيع - ط1 - 2001 – عمان.
62- مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية CD. ROM: الخطيب للتسويق والبرامج - الإصدار 1.5 - 1999- عمان. يتضمن مجموعة من الكتب التاريخية الأساسية منها تاريخ الطبري - البداية والنهاية لابن كثير - تاريخ اليعقوبي - الكامل في التاريخ للشيباني - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي...
63- من الفكر الصهيوني المعاصر: (مجموعة من الكتاب الصهاينة) - مركز الأبحاث - منظمة التحرير الفلسطينية - شباط 1968- بيروت.
64- الموسوعة الفلسطينية: المجلد الثاني (الدراسات التاريخية) - المجلد الرابع (دراسات الحضارة) - ط1 - 1990 – بيروت.
65- موسوعة أساطير العرب: د. محمد عجينة - دار الفارابي في بيروت، والعربية في تونس - ط1 – 1994.
66- الموسوعة الفلسفية: بإشراف م. روزنتال ، ب. يودين - ترجمة : سمير كرم - دار الطليعة - ط4 - كانون الأول 1981- بيروت.
67- موسى والتوحيد: سيجموند فرويد - ترجمة: جورج طرابيشي - دار الطليعة - ط1 - 1973- بيروت. وهناك كتب أخرى لفرويد وردت مثل: الطوطم والتابو - قلق في الحضارة - مستقبل وهم.
68- وثيقة الصهيونية في العهد القديم: د. جورجي كنعان - توزيع دار النهار للنشر - ط2 - 1982 – بيروت.

* * *

النهاية